# الكتاب الأول

---

# تراجـــــم مصرية

obeikandl.com

obeikandl.com

# كليوباطرة

كليوباطرة اسم ساحر خلع عليه التاريخ وخلعت عليه الأساطير من ألوان الفتنة بهاء باهرا تضاءلت الى جانبه أسماء الزهرة وافروديت وسميراميس وسائر آلهة الجمال ، وهاتاسو ونيفرت وسائر الملكات ، بل تضاءلت الى جانبه أسماء الملوك ، والشعراء ، والكتاب . فهى ليست جميلة وكفى ، وليست مليكة وكفى ، وليست ساحرة الحديث وكفى ، وليست ذكية وكفى ، وليست أديبة وكفى ، بل هى ذلك كله وهى أكثر من ذلك كله ، هى الفتنة والسحر والذكاء والأدب والنشاط وقوة الارادة فى أسمى ما تصوره معانى هذه العبارات . وهى مع ذلك آخر البطالسة الذين حكموا مصر عصورا طويلة كانت مصر فيها مهبط وحى الحكمة والشعر والجمال . لذلك لم يفت مؤرخ ولا قصاص ولا شاعر أن يتحدث عن كليوباطرة وأن يتغنى بحياتها وأن يصور هذه الحياة على النحو الذى يجب أن تكون . ولذلك كان ماأريق من مداد وما سود من صحف فى الكلام عن هذه الملكة أكثر من مثله مما يمكن لأية آلهة أو ملكة أخرى أن تفخر به .

وكان حظ كليوباطرة أن ولدت بالاسكندرية فى عصر بلغ فيه نجم روما غاية سموه ، وبدأت مصر فيه دور الترف الذى يسبق الانحلال . وكانت الاسكندرية فى ذلك الحين عاصمة الدنيا ومستقر كل ما فى الحياة من متاع ونعمة . فكان الناس يتكلمون فيها كل

اللغات المعروفة ، كما كانت الفلسفة فيها ناضرة مستقرة بكل نظرياتها المتضاربة استقرار جوار حسن ليس فيه شيء من الكفاح أو القسوة . فالى جانب الأبيقورية الناظرة للحياة نظرة سرور بها وحرص عليها واستمتاع بكل ما فيها ، المبتسمة سخرا منها وازدراء لها واشفاقا على أهلها ، كان الرواقيون ينادون بالزهد فى الحياة والأخذ بأسباب التقشف واحتقار عرض الدنيا الزائل ، وبلغ بعضهم من ذلك حد الدعوة الى تعذيب الجسد لطهارة الروح . والى جانب مكتبة الاسكندرية العامرة الحاوية ثمانمائة ألف مجلد فيها ما شئت من ألوان الحكمة والعلم والتفكير والفن ، كانت تقوم المراقص والملاهى يهرع الناس اليها لينسوا أنفسهم فى لهوها وليتمكوا فى ملذاتها وليمتعوا أبصارهم بجمال ساحراتها الراقصات والمغنيات .

وكانت هذه الحياة المتفجرة بينابيع الحكمة واللهو جميعا تموج فى محيط بلغ كمال العمارة التى قامت خلال ثلاثمائة سنة كانت منذ انشأ الاسكندر الأكبر المدينة عام ثلاثين وثلاثمائة قبل الميلاد سنى نشاط وعظمة لمصر وفلسفتها وعمارتها . فقد اتصل مابين هذا الثغر البديع الموقع فى امتداده على شاطىء بحر الروم وجزيرة فاروس القائمة وسط البحر ترقب غدواته وروحاته بجسر هفتا البالغ غاية العظمة والجمال والذى انتهى بالجزيرة الى أن أصبحت جزءا من المدينة . واتصل بالنيل بقناة كانوب ( ترعة المحمودية الحاضرة ) التى لم تكن مجرد مجرى للماء والتجارة ، بل كانت كذلك مجرى للمسرة والنعيم بما أحاط بها على مدى طولها من حدائق وأعناب ونخيل قامت أثناءها منازل اللهو ودور المتاع تحيط بها جنات فيحاء جمعت كل أسباب النعمة من زهر عطر وفاكهة نضرة . فأما أهل هذه

المدينة فكانوا أهل ذكاء وظرف وكانوا حراصا على المتاع بكل مافى حياة مدينتهم الزاهرة متاعا عريضا ، يتهالكون فى ذلك على اللهو وعلى المسرة فى مختلف صورها وألوانهما . فكما كانت فرعنتها تفتن فى الترف بما يعجز خيال كل مترف فى عصرنا الحاضر كان الشعب ، رجالا ونساء ، منغمسا فى جمأة اللذائذ الدنيا مسلما نفسه اليها ما استطاع الى ذلك سبيلا . لكنهم كانوا مع ذلك أميل للاستخفاف بالحياة وما فيها ولو بلغوا على الحياة أعظم مكان . وأى استخفاف أشد من استخفافهم بالفراعنة الالهة حتى لقد دعوا جد كليوباطرة البطين ودعوا أباها بطليموس أوليتا أى العازف بالناى .

وكانت كليوباطرة شديدة الولع منذ صباها بالتجول فى أنحاء الاسكندرية والوقوف على كل مافى هذا العالم العامر بكل مافى العالم من حياة وحضارة . وفى تجوالها هذا عرفت وتعلمت كثيرا . عرفت كل ما وقعت عليه عيناها الواسعتان الجذاب دعجها الساحر وكل ما أحاط به ذهنها الحاد . وتعلمت اللغات والآداب وطرائق التعبير العزيزة على مدرسة الاسكندرية يومئذ والتى تمتاز بالتورية والرقة والقوة . وكان لها بالكتب ولع وغرام ليس مثلهما ولع ولا غرام . وكانت أميل للشعر وأشد لذلك تفصيلا للأوديسى على التوراة وعلى كثير من كتب الحكمة .

وفى هذا الصبا الناعم عرفت وارثة عرش بطليموس الثانى عشر من ألوان الترف وتذوقت من صوره مالم يعرفه ولم يتذوقه غيرها ممن لم يؤت ذكاءها ولا علمها باللغات والآداب . فقد كان أبوها الفرعون العازف بالناى المستغرق فى ملاذ الحياة بما استحق معه لقب اله الخمر ديونيزوس يدللها بكل ما يلهمه ملك مترف معجب بابنة

ليس لها فى بنات حواء مثال . فكان يطوف واياها مدائن مصر ويركب واياها النيل من الاسكندرية الى طيبة ذات الأبواب المائة يقفان عندما يحلو لهما الوقوف عنده من المدائن العامرة بآثار مصر القديمة . فاذا تركا طيبة الى أنس الوجود أقاما فيه من الحفلات ما يجل عن الوصف . وما ليس له مثال الا فيما أقامته كليوباطرة من المآدب لأنطونيو حين غرامه بها ودلها عليه .

على أن الصبية لم تبق فى هذا النعيم الملكى طويلا ، وان كانت لم تحرم منه الا لتعود اليه فتكون به أكثر متاعا . ذلك أن أباها طرد من مصر فالتجأ الى سوريا حتى عاد مع جند الرومان الذين أوفدهم بومبي . وكان أنطونيو على رأس فرقة من هذا الجند تحت قيادة جاليوس . فذهب مع بطليموس الطريد حتى دخل واياه الاسكندرية دخول الظافر .

وكانت كليوباطرة يومئذ فى الرابعة عشرة من عمرها . فلما أيقنت بانتصار أبيها وبعودته الى مدينة النعيم اجترأت على اختلاس شارة الملك من برنيس زوج اركايلوس خصم أبيها وجلست مع خديناتها فى شرفة القصر وقد ارتدت ثوبا رقيقا أبيض بدا فيه جمالها الساحر أشد سحرا رغم أن كان فى بدأ ترعرعه . ولما أقبل أبوها بعد دخول أنطونيو على رأس الجند الى القصر أمامه شقت هى وسط الجميع طريقا واندفعت تعانق أباها باكية من شدة التأثر . وكانت هذه أول مرة رأت فيها عين الرومانى الفاتح الطويل القامة العريض الأكتاف الشره الى كل لهو ومسرة تلك الفتاة الطفلة ما تزال ، والتى برعت برغم ذلك كل قريناتها من فتيات القصر ونسائه . ولم تنس كليوباطرة فى دهاوتيها أن توجه اليه نظرة حلوة

فيها أكثر من معنى الاعتراف بالجميل لرده أباها اليها والى ملكه .

وعاد أنطونيو الى روما وعاد بطليموس الى الحكم والى اللهو يستمرىء مرعاه ويمعن فيه بعـدما حرم زمنا منه . وكانت ابنته تطوف واياه أنحاء البلاد ينزلان فى المدائن العامرة ويقيمان فيها من أسباب اللذة مالا يباح لفتاة أن تعرفه . وظلا على ذلك ثلاث سنوات تباعا انتهت بموت الأب بعد ما أوصى بالملك لكليوباطرة ولأخيها بطليموس الطفل الذى لم يكن يزيد يومئذ على اثنى عشرة سنة على شريطة أن يتزوج من أخته . وكان زواج الأخ من أخته متعارفا فى الأسرات الملكية يومئذ لحرصها على أن لا يختلط دمها الفرعونى المستمد من الشمس كبيرة الالهة بدم الرعايا . واذ كان هذا الأخ قاصرا عين له قوام ثلاثة اشتركت الملكة معهم فى الحكم وان استأثرت به دونهم الى حد عظيم .

وقد ملكت قلب المصريين فى الفترة الأولى من فترات حكمها بما كانت تغدقه عليهم من صنوف المتاع وبسحرها اياهم بفتنة جمالها حتى دعيت اذ ذاك حبيبة الشعب وملكة كل نعيم . لكن عهدها بذلك لم يطل . فقد بعث منيلوس يطلب اليها ارجاع الجند الرومان الذين ظلوا عنـدها . واذ كان هؤلاء الجنـد قـد استوطنوا الاسكندرية وتزوجوا فيها ومتعوا بنعيمها فقد أبوا مغادرة مصر واستغاثوا بالشعب . ثم جاء من بعد ذلك ابن بومبى لنفس القصد . وكان لأبيه على أبيها فضل اعادته الى ملكه مما أجلسها هى على العرش بعده . لذلك رأت واجبا عليها أن تحسن وفادته . وقابلته فرأت فيه غير أخيها الطفل الذى فرضه الملك زوجا لها ، فقبلته ضيفا فى قصرها وأجابته الى ما طلب أن كان أبوه يومئذ فى حرب مع قيصر . وقد

غاظ ذلك أخاها منها فانضم الى المؤتمرين بها وعاون على انتقاض الشعب عليها ومحاولته قتلها . واذ كانت لا تملك الفرار من طريق البحر فرت فى (ذهبية) الى الصعيد كسيرة القلب ان لم يفعل جمالها فى أولئك السكندريين فعله . ونزلت طيبة على صورة لم تعهدها أيام زيارتها المدينة الخالدة مع أبيها المترف المتلاف . وبدلا من أن تجعل مقامها فى طيبة الاحياء جعلت مقابر الملوك موضع نجواها كأنما كانت تريد أن ترقد بينهم تنتظر البعث واياهم آملة فى الآخرة ملكا أكثر من ملك مصر ثباتا . لكن أصواتا انبعثت اليها من جوف مقابر هؤلاء الفراعنة العظام تناجيها : أن لا ملك بغير اقدام ولا جلالة من غير كبرياء ولا حكم لمن لم تملك نفسه شهوة الفتح . وأيأستها دعة المصريين من أن تجد منهم أى عون أو مدد . ففرت الى سوريا وهى فى مقدرتها على سحر أهلها أكبر أملا وفى فتنتهم بجمالها أشد ثقة . ولم يخنها حدسها . فما كادت تستقر فى ربوع الشام حتى سحرت أهلها بجمالها وبلاغتها واقدامها فالتفوا حولها واجتمع منهم جيش سارت هى على رأسه ممتطية جوادها . لكن المصريين بعثوا هم الآخرين بجيوشهم ورابطوا على حدود ما بين مصر والشام ووقف الجيشان وجها لوجه لا يلتقيان .

وفى هذه الأثناء هزم قيصر بومبى فى موقعة فرسالا وفر المنهزم الى مصر ، عله يجد موئلا فى بلد له عليه وعلى القائم على عرشه فضل سابق . لكن أوصياء بطليموس الطفل علموا أن قيصر يطارد غريمه ، وخشوا ان هم حموا هذا الغريم أو ألجأوه أن يصب عليهم قيصر جام غضبه ، فقتلوا اللائذ بهم . فلما نزل قيصر عليهم وعلم ما فعلوا ركبه الهم وحزن غاية الحزن وأمر أن تقام لبومبى أفخر طقوس الجنازة .

وعرفت كليوباطرة أمر ذلك كله . وعرفت أكثر منه أن قيصر لما علم بما بينها وبين أخيها من حرب نصب نفسه حكما بينهما عملا بوصية أبيها أن تحمى روما ملك ابنائه من الشتات والدمار . هنالك فكرت فى أن تلجأ الى هذا الحكم ترفع اليه ظلامتها غير جاهلة ما قد يحمله لها من ضغن أن حمت ابن خصمه وأن مدت بومبى بالرجال والذخيرة . لكنها كانت واثقة من سحرها مطمئنة الى مقدرتها وفتنتها مؤمنة بأن لا نجاح من غير اقدام . وزادها طمأنينة ما كان من بكاء قيصر حين علم بقتل بومبى . فتركت الجند واستصحبت مؤدبها الأمين أبو لوردور ، واجتازا طريق البحر حتى وصلا أمام الاسكندرية . بقى أن تدبر الوسيلة للمثول فى حضرة قيصر . وكليوباطرة نحيفة القوام بضة لينة الملمس . فليس يعجز أبو لوردور أن يحملها وان يزعم أنها بعض المتاع وأنه من رجال روما يريد ايصال ما يحمله لقيصر . فالتفت الصبية الفاتنة فى بعض أسمال وأردية من غير أن تبدل شيئا من زينتها الملكية وعطرها ، وحملها مؤدبها على كتفه وزعم حين سأله الحراس عن غايته أنه موصل ما يحمل الى بعض ضباط قيصر . واجتاز معسكر الرومان حتى أنزل حمله فى رفق أمام الظافر على عاهل روما ، الباكى عليه حين وفاته .

وكانت هذه هى الساعة التاريخية التى اتجه فيها الزمن غير وجهته . الساعة التى وقف ازاءها القصاص والمؤرخون أذهلهم البهر وسحرتهم الفتنة كما أذهلا قيصر وسحراه . نضت الملكة الصبية ما التفت به من أطمار وأسمال وبدت فى زينة الملكة وعطرها وجلالها . أكانت طويلة أم قصيرة ؟ أكان أنفها كبيرا أم صغيرا ؟

لم يعرف قيصر فى هذه اللحظة من ذلك شيئا . واختلف المؤرخون فيه خلافا كبيرا . وكأنما كان لجمال هذه الفاتنة من الروعة ما لأشعة الشمس من قوة تحول دون التحديق بها . وكأنما بقى هذا الجمال فى قوة سحره بعدما مر على صاحبته من عصور وقرون فكل يختلف فى صورته وفى قسماته . على أن كليوباطرة لم تحاول فتنة قيصر بجمالها . بل ارتمت عند قدميه ضارعة مستغفرة . وجعلت تتكلم وتشكو وتستعطف . وكان صوتها أفعل سحرا من جمالها . وكانت عبارتها أنفذ الى القلب من صوتها الى شغاف الفؤاد ومن جمالها الذاهب باللب . جعلت تتكلم وتشكو وجعل قيصر ينصت ويصغى ، ثم صار لا يسمع دفاعا ولا شكوى بل ألغاما دونها صوت البلبل وعزف الناى . وانتهى بكليوباطرة وبه الأمر أن وقفت وجثا هو على قدميها ضارعا مستغفرا ثم حملها على كتفه كما حملها اليه أبو لوردور وذهب بها الى مضجعه .

وكان قيصر رغم تجاوزه الخامسة والخمسين محبا للنساء . كما كان مثار اعجابهن بقوامه ونظرته وبروحه المهذب الرقيق وعزمته الصادقة القوية . لذلك اتصل بينه وبين كليوباطرة منذ هذه المقابلة الأولى بما سحره عن كثير مما كان اعتزم لمجده ومجد روما . وجلست هى الى جانبه فى قصرها المنيف تعجب به وتثير اعجابه . وملكته حتى لم تبق فى شك من حكومته بينها وبين أخيها . ودعا هو أخاها الطفل ليصلح بينهما ، فلما دخل عليهما قرأ فى عيونهما ماهاج الدم فى عروقه الضعيفة ، وما دعاه ليلقى التاج عن رأسه وليخرج صائحا فى الشعب وفى جند روما داعيا الى الثورة على أخته وعلى قيصر لعهر كليوباطرة وخيانة صاحبها . ولم يرد قيصر

أن يقاتل لقلة جنده ولحرصه على استبقاء هذا الطفل مغمضا عينه على ما يفعل الحبيبان ، فاسترضاه وصالحه على تنفيذ وصية أبيه باشراف روما . ورضى الغلام آملا أن يطمئن له الأمر فيصير ملكا وفرعونا وإلها . وظل هو وكليوباطرة يرتشفان من كأس الحب وينهلان أعذب موارد الهوى بما يتفق وروحيهما المهذبين . ولقد كانا بذلك سعيدين كل السعادة . ولم يكن ورد سعادتهما قاصرا على اتصال الغرام بين ابنة الملك العازف اللدنة القوام ، الموسيقية الصوت والنفس ، الرطبة الخلق ، الندية النظرة ، الرشيقة رشاقة الراقصة ، وبين قيصر الساحر الحلو الحديث . بل كان ورد سعادتهما الحق هو الحب . كبل كل واحد منهما صاحبه بأغلال هذه العاطفة القاسية السامية فى قسوتها فسعد كل باغلاله . وكانت كليوباطرة أكثر سعادة لأنها استردت مع هذا الحب ملك مصر ووضعت يدها على تاج روما وصرفت قاهر السكون والجرمان وسائر دول أوربا عن حروبه فى سبيل الجمهورية ليحارب فى سبيلها وليقهر أوصياء أخيها وليثبت لها أركان عرشها بعدما ثبتت فى قلبه وظل كذلك ستة أشهر لا يعرف من أمر روما شيئا ولا يبعث الى روما بخبر ، وان عرفت روما من أمره مع ملكة مصر كثيراً . وزادت به ارتباطا وازداد لها عبادة حين حملت منه . اذ ذاك لجأ فى أسباب المسرة يلتمسانها فى كل مكان ويرتجيان النعمة من كل الآلهة . فأقاما أعيادا عند الأهرام وأبى الهول ، وفى ابيدوس عند قبر ايزيس وأوزوريس ، وفى دندرة حيث معبد هاتور آلهة النسل الخصب وفى طيبة ذات الأبواب المائة ، وفى أنس الوجود ، وفى كل معبد وعند كل إله .

ووضعت كليوباطرة غلاما دعته قيصرون وخلعت عليه كل ألقاب الفراعنة آلهة مصر وعواهل روما وحكامها • ثم أبحر قيصر الى روما ولحقت هى به فى أبهة الملك وجلاله . وفى حاشية ليس للرومان بها عهد • وقيصر ظافر والشعوب عباد من ظفر • وقد أقام لمناسبة عودته أعيادا أسرف خلالها فيما خلعه على الشعب من أعطيات ونعم زادت الشعب له عبادة وأنسته ما كان من انصراف قيصر عنه الى كليوباطرة عاما كاملا • لكن هذا الشعب لم يعجب من كليوباطرة بجمالها الرائع المترفع . لأن زعماءه وقادته جعلوا يستعطفونه على كالبورينا زوجة قيصر •

ولم يعن قيصر من ذلك بشىء • بل أقام لابنة بطليموس قصرا على نهر التبر جمع فيه من ألوان النعيم ما أبدعه خيال الملكة . وجعل يزورها فيه فتقيم له من المراقص وصنوف اللهو ما ينسيه كل هموم الحكم ومتاعبه • ثم جعل يستقبل أصحابه فى قصر التبر . ولا يخفى عليهم من صلته بكليوباطرة شيئا • وبالغ فى الحفاوة بها حتى أقام لها هيكلا نصب فيه تمثالها على صورة الزهرة إلهة الجمال والحب • ودار فى خاطره أن يتزوج منها رغم وجود كالبورينا زوجته وبطليموس الطفل زوجها • ومع أن مجلس الشيوخ لم يكن ينظر الى هذا الزواج بعين الرضا فقد فكر فى أن يعدل قوانين روما بما يبيح للرجل أن يعدد زوجاته ما دام لاعقب له • ولقد كان فاعلا وكاد قيصرون يصبح يومئذ وارثه على عرش روما ويتغير وجه التاريخ وتبقى مصر مقرا للحضارة كما كانت لولا أن دبرت المؤامرة لقيصر ، وأن قتله أصحاب يوم أعياد المريخ فى العام الرابع والاربعين قبل الميلاد •

بكته كليوباطرة ثم عادت الى مصر مع حاشيتها وأبنائها وتركت أخاها الملك زوجها فنسيه التاريخ ولم يعرف أحد عنه بعد ذلك خبرا ، وأقامت بالاسكندرية متوجسة خيفة أن يوقع بها خصوم قيصر وقتلته . لكن الحروب التى قامت بين أصدقائه وقتلته انتهت بانتصار أنطونيو وأصحابه فى موقعة فيليب . ولم يزل ذلك وجلها وظلت فى خشية من أن ينزل أكتاف ابن أخت قيصر مصر وهو لابنها من قيصر ألد عدو . لكن نجمها كان ما يزال نجم سعادة . فتقاسم المنتصرون ملك روما ووقع الشرق لأنطونيو . وأنطونيو صديق قيصر ومحبه . وأنطونيو رجل شهوة لا صبر له أمام امرأة . وأنطونيو معجب بجمال كليوباطرة منذ سنين ، عابد اياها مذ كان يزور قيصر فى قصر التبر . مع ذلك لم تر كليوباطرة أن تبعث اليه وفودا تهنئه بالملك كما بعثت سائر ممالك الشرق التى وقعت فى حكمه . وهى لم تعده فى حروبه مع قتلة قيصر بعدد من مال أو رجال . فغاظ ذلك أنطونيو وبعث اليها رسولا أن تحضر بنفسها لتدافع عن ذنوبها . وظل الرسول فى قصرها أياما عاد بعدها مسحورا بها آخذا نفسه بالدفاع عنها حتى تحضر اجابة لطلب سيده . وبقيت هى زمنا تعتذر عن عدم مسارعتها لاجتياز البحر بشتى الاعذار . وبقى رسول أنطونيو خلال ذلك يحدثه عن فتنتها بما أذهب صبره . ثم بعثت هى أنها آتية اليه فى تارسيس ، وذكرت موعد وصولها . فخف الحاكم الى المدينة ينتظرها وأقبل أسطولها يشق عباب البحر حول سفينها السابح تدفعه أشرعة من خز ، ويحمل مقدمه الرفيع تمثال آلهة البحر ، وتبدو فى وسطه مقاصير زينت بأفخر الرياش . وقد

ذهب بالشعب لما رأى كل هذا الجمال والجلال فصاح : « هـذه أفروديت ، بل هذه الزهرة أتت تزور إلهٰ لهونا المحبوب ! » .

وبعث أنطونيو برسوله يدعوها بالعشاء عنده . فاعتذرت بأنها متعبة ودعته الى سفينها . فلم يغضب ولم يتردد بل طار اليها وقضى شطرا من الليل فى حضرتها نسى فيه الذنوب ونسى العقاب ونسى كل شىء غيرها . ثم دعته فى الليلة التالية الى وليمة عشاء فى قصرها ودعت معه جمعا من الامراء وأرباب الدولة . وما كان أشد بهرهم حينما رأوا الليل ينقلب فى ذلك القصر نهارا ورأوا فيه من التماثيل والآنية والطنافس والخدم وألوان الطعام يتناولونها وتطربهم أنغام الموسيقى تطير فى الجو مع ريح العطر والزهر وتمتزج مع أنغام أجسام الراقصات اللدنة بما لم يحط به خيال أحد منهم من قبل . وكليوباطرة وسط هذا الجمال الساحر أروع فتنة وأشد سحرا . وأبدى أنطونيو دهشته متى نظمت الملكة هذا القصر وما فيه . فابتسمت قائلة : انه رسولها الذى بعثت به من أسابيع ثلاثة هو الذى صنع هذا بأمرها .

ودعاها أنطونيو الى قصره ودعا معها الامراء وحاول أن يجاريها فى البذخ والنعمة ثم ابتسم آخر الوليمة أن رأى محاولته عبثا . ودعته وأمراءه الى وليمة ثانية قالت انها تكلفها ثلاثة ملايين درهم . فأنكر أنطونيو ذلك عليها ، وراهنته انها فاعلة . وكلف هو أحد الامراء أن يحصى التكاليف . ولما رأى ان لم تزد الملكة شيئا على ما فعلت فى الوليمة الأولى أبدى لها أنه قمرها . فاستمهلته وخلعت من اذنها قرطا فيه جوهرة منقطعة النظير كان الاسكندر أهداها لبعض أسلافها وألقت بها فى كوب به خل فذابت وشربت

هى الكوب وما فيه وقمرت أنطونيو • وظلت فعلتها هذه يقصها المؤرخون على انها بعض العجائب •

وأسرع أنطونيو بالنظـر فيما لديه من شـئون الملك وعاد وكليوباطرة الى مصر واندفعا فى سـبيل الغرام تهيج سماء مصر فى نفسيهما ما انطوتا عليه من حب اللذات واستباحة كل ألوانها والافتنان فيها • على أن أنطونيو لم يكن مهذبا كقيصر ، بل كان جنديا خشنا فج الذهن لايعرف الرقة ولا يحيط من الأدب أو اللغات بشىء • وانما حببه الى الجند ورفعه الى مقام قيصر سهولة فى العبارة التى كان يخطبهم بها ونزول منه الى مشاركتهم فى تذوق اللذات الدنيئة السـافلة التى كانوا يتذوقونها • فلم يكن حى من أحياء الدعارة فى روما أو بغى من بغاياها لا يعرفه • وكان من أسباب فخره أن أعقب من الاولاد حيثما ذهب مالا عدد له • ولقد أحب كليوباطرة بهذه الروح الحيوانية الملتهبة المتأججة الضرام ، فألفت فيه حياة بهيمية قوية لم تكن فى قيصر ، ولكنها لم تجد فيه حياة العاطفة الانسانية التى تغذى القلب وان قصرت عن الهاب الدماء • على أن هذا الخلاف بينهما اضطر انطونيو الى أن يتعلم ويحضر من الدروس ما يخفف من شعوره بأنه دون كليوباطرة ، ودفعها هى لتنزل عن التفنن فى رقة المتاع الى هذه البهيمية الثائرة • وقد أنفت ذلك فى بادىء الأمر حـين كان حرصها على انطونيو راجعا الى حاجتها السياسية له • لكنها تذوقته بعد ذلك وبلغت من تذوقه ان لم تكن تطيق مفارقة صاحبها حين جولاته فى أحياء الدعارة واللهو ، ولم تأنف أن تدفع بكتفيها أيا من رجال تلك الأحياء ونسائها على طريقتهم • وبقيا غارقين فى نعمتهما حتى حملت • وخيـل اليها أن

سيربط الحمل بينها وبين صاحبها كما ربط بينها وبين يوليوس من قبل • لكنه رآها ثقلت حركتها وخمد شعاع روحها . فعاد يفكر فيما كان غافلا عنه من شؤون الدولة . ورأى أن لا مفر له من العودة الى روما ليصالح أكتاف بعد ما حزبت عليه فلفيا زوج أنطونيو وهبت لمحاربته . وليستعديه على أهل فنيقيا والشام الذين انتقضوا على روما وخلعوا نيرها • ولم تجد توسلات كليوباطرة اليه كى يبقى ولو الى حين وضعها • فلما قابل فلفيا فى اليونان أنزل عليها من سخطه ما كسر قلبها . وغادرها الى روما فماتت قبل وصوله اليها • وأصـــلح موتها بينه وبين أكتاف وتزوج من أخته أكتافيا برضى مجلس الشيوخ ، وكانت أكتافيا عـــدل كليوباطرة فى سنها وجمالها ، وكانت أم طفلين من زواجها الأول محبة لحياة العائلة ونظامها بما يسر لها أن تسير زوجها وفق رأيها • فأنطونيو ككل رجل له مثل هذه الطبيعة الحيوانية يهون على كل امرأة أن تقوده • ولقد ذهبت معه الى اليونان وظلت معه زهاء ثلاثة أعوام أعقبت له أثناءها ابنين شغلت بهما وبأولادها الآخرين وبأولاد أنطونيو من فلفيا • فأحرج ذلك صـــدر أنطونيو منها وجعل يراها أما لايعنيها منه الا ابوته لأبنائها ، من غير أن تعير مجده ولا عظمته اهتماما كالذى كانت تبديه كليوباطرة اذ كانت تدعوه انطونيو الأكبر • وبلغ من حرج صدره أن اتهمها بأنها أحن على اخوتها لأكتاف منها على زوجيتها له ، ثم بعث بها الى روما وانطلق هو الى سوريا يجنى ثمار النصر الذى أحرزه بعض قواده •

فى هذه السنوات الثلاث كانت كليوباطرة تعانى من الهم والألم أشدهما تبريحا ولذعا • علمت بما كان من زواج انطونيو واكتافيا

على أثر وضعها توأمين دعت أحدهما الشمس والاخرى القمر ، فاضطربت للخبر وما كانت من قبل تضطرب من خشية امرأة • وزاد فى مخاوفها ما قد يؤدى هـذا الزواج اليه من القضاء على آمالها فى قيام قيصرون مقام ابيه • هنالك غادرت الاسكندرية الى دندرة وشغلت نفسها بأن أقامت لهاتور معبدا • ثم انقبضت نفسها لهذه الوحدة التى أحاطت بها فعادت الى عاصمتها وشغلت نفسها من جـديد ببناء قبرها • وكان أكبر جهادها أن تنسى أنطونيو باستدامة العود الى تذكر قيصر • ونجحت فى ذلك نجاحا سرها • لكن هذه الذكرى وذلك الاشتغال بما بعد الموت لم يكونا ليتفقا مع ما يتحرك به الشباب فى جسد اعتاد ملذات النعيم ثم قسر على عفة قاسية • فعادت الى مثل ما عودها أنطونيو من المرح فى الانحاء التى يلهو الشعب فيها • لكن ذلك لم يطفىء من رغباتها ماكان كامنا •

ولما عاد أنطونيو الى الشام بعث اليها رسولا يستقدمها اليه بأنطاكية • ويل له من جرىء ! أيظن أن ملكة الملوك تطـير اليه بعد أن نسيته ، بل بعد أن أبغضته وبعد أن هجرها الى أحضان امرأة غيرها قضى معها أكثر مما قضى مع كليوباطرة ؟ لكن لا ! تضاءل ذلك كله أمام دعوته اياها فطارت تعد عدتها للسفر واجتازت البحر اليه لائمة عاتبة • وكفاها أن أقسم لها أن قلبه لم يعرف غيرها ولم يتعلق بسواها لتعود واياه سيرتها الأولى : وأنطاكية كانت ثالثة مدائن بحر الروم بعد روما والاسـكندرية فكان لهما فيها من مسارح اللهو ما يسد كل شهواتهما • ولكى تؤمن بحبه اياها عقد عليها زواجه منها وخلع عليها ثلاث ولايات بدل ثلاث السنوات التى غابها عنها •

وبعد زمن نهلا فيه ما طاب لهما من ورد النعيم جهز لمحاربة خصوم روما فيما وراء الفرات . ورفض مشيئتها أن تصحبه لما فى ذلك عليها من مشقة . لكنه عاد الى سوريا محطما جيشه . فجاءت اليه من خير مصر مالا ورجالا بما أنساه هزيمته . وأقامت معه فانسته فتنتها كل متاعبه . ثم تلقى رسالة من زوجه اكتافيا أنها آتية اليه من روما فى عدة وعديد . فتأثر حين رآها تقابل صده لها وجفوته اياها بهذا الكرم والاخلاص والحب . لكن كليوباطرة وقفت فى سبيل ما أتت أكتافيا . ورفض أنطونيو أن يرى أخت عاهل روما أو أن يقبل منها مددا فعادت الى المدينة الخالدة ذات التلال السبعة مقهورة آسفة .

وعد الرومانيون هذه الفعلة على أنطونيو . فلما استرد قواه عاد فحارب خصوم روما وانتصر عليهم . لكنه بدلا من أن يحتفل بانتصاره فى روما ذهب يحتفل به فى الاسكندرية ويعتبرها عاصمة تعادل روما . وذلك مالا طاقة للرومانيين باحتماله . فأثار أكتاف الرومان عليه . وابتهجت كليوباطرة لذلك وجهزت أسطول مصر الضخم وسارت وأنطونيو الى أثينا فى انتظار ما ستتمخض عنه الحوادث راجية الانتصار على أكتاف حتى تجلس قيصرون على عرش أبيه . لكن نجمها كان قد بدأ ينحدر نحو المغيب فقد التقى الاسطولان فى ( أكسيم ) وكانت الملكة فى سفينتها ( ألانطونياد ) فى مؤخرة الاسطول المصرى ترقبه . وبدأت المعركة يحمى وطيسها وشعرت الملكة بأن حلمها أن تحكم روما وأن تقيم ابن قيصر مقام أبيه على عرش الغاصب أكتاف يتلاشى . عند ذلك طار صوابها وتولاها الذهول . فلما أفاقت ألفت الريح تهب نحو مصر فأمرت

رجالها بالعودة وما يزال الأمل فى النصر مضطربا بين العسكرين • والتقطت أنطونيو من سفينته وأخذته معها فى « الانطونياد » وعاد الى مصر وقد تولاه الأسى أن رأى نجمه يأفل وعظمته تذوى وتذبل •

فأما كليوباطرة فلم تفل الهزيمة من غرب عزمتها ، بل نقلت أسطولها براء من البحر الأبيض الى البحر الأحمر راجية أن تغزو الهند على نحو ما كانت تفكر مع قيصر • لكن هيرود عدوها فى سوريا لم يمهلها أن قتل رجالها وأحرق سفنها • هنالك تحطمت كل آمالها الامبراطورية واضطرت أن تقف كل حياتها ونشاطها على الدفاع عن مصر •

وأسلم أنطونيو نفسه للشراب ليله ونهاره آملا أن ينسيه الشراب هم انكساره • وظل فى شرابه حتى علم أن اكتاف آت من طريق سوريا لغزو مصر وأكبر همه أن يطفىء حياة ابن قيصر ، وكانت مشابهته لأبيه أكبر شهيد على اغتصاب ابن عمه عرش روما •وأخذ أنطونيو قيادة جيوش مصر • لكن الحظ اذا عثر لج به العثار • فانهزم أنطونيو فعاد الى قصر كليوباطرة وأمر أحد عبيده أن يقتله • فأمسك العبد الخنجر وتظاهر بطعن سيده ثم طعن نفسه فهوى • فأصغر ذلك أنطونيو فى عين نفسه فقضى عليها بأن ألقى بنفسه على النصل وذهب يعالج آلام الاحتضار يسلكها سبيلا لراحة الموت ، وقضى بين ذراعى محبوبته الفاتنة فبكته أحر بكاء ثم دفنته فى القبر الذى شادته حين هجرها وبالغت فى الحزن عليه لما أحست من سوء ما أعد لها القدر من مصير بعده •

ودخل أكتاف الاسكندرية ظافرا وكل همه أن يقضى على ابن

عمه الذى فر من وجهه • وحاولت كليوباطرة أن تلعب به كما لعبت من قبله بقيصر وبأنطونيو • وفى سبيل أبنائها وفى سبيل ملك قيصرون لم تكن لتعنى بشىء أو تتورع عن شىء • وبرغم حزنها على أنطونيو وجزعها على مصيرها ومصير أبنائها ولزومها القبر تقضى فيه وقتها باكية مكتئبة فقد ظفر أكتاف منها بساعات حديث شهى • وكان كل همه أن يأخذها الى روما وأن تسير فى حفلات نصره ليرضى بذلك شهوة انتقامه وانتقام أخته منها وليقدم للشعب الرومانى منظرا تبتهج له قلوب الشعوب : منظر ذل العزيز !! وعرفت هى هذا فثارت فى عروقها كل دماء البطالسة فراعنة مصر الأعظمين لكنها لم تكن قادرة الا على نفسها • وكانت قدرت هذا المصير ووطنت عليه نفسها وأوصت خادما من أتباعها أن يحضر لها ثعبانا فى فاكهة طعامها يوم تشير له الى جبينها • وأشارت الى هذا الجبين المصقول يوم أيقنت أن أكتاف غريمها يريد أن يذلها • ونزعت التين واحدة بعد واحدة ثم أمسكت الثعبان فوضعت فمه فى ثديها ليبعث اليها الموت من خلاله . وكم بعث هذا الثدى الحياة الى أبنائها والى الذين انعمت عليهم الالهة بالمتاع بها •

وكان معها خادمتاها ايراس وشارميون فشاركتاها مصيرها بعد ماحلتاها بكل حلى ملكها الذى تحطم ، والذى حاربت حتى المقادير فى سبيل عزه ورفعته منذ مولدها الى مماتها ( من سنة ٦٩ الى سنة ٣٠ قبل الميلاد ) •

ويومئذ ذهبت الى بارئها أرواح كثيرين من عشاق فاتنة التاريخ • ويومئذ انطفأ نجم كان منيرا فى سماء الجمال والذكاء والقوة والنشاط وانطفأ معه سراج أسرة البطالسة كما انطفأ من مجد مصر حظ عظيم •

# الخديوى الأول اسماعيل باشا

لئن صح أن كان لولاية محمد على حكم مصر أثر مباشر فى تاريخها الحديث ، وصح أن كان لشق قناة السويس أثر مباشر كذلك فى توجيه هذا التاريخ وجهة خاصة ، فالذى لا ريب فيه أن أكبر الأثر الذى خضعت وما تزال تخضع له مصر حتى الآن انما ترتب على حكم اسماعيل باشا . فأكبر مظاهر الحضارة التى تراها اليوم فى مصر يرجع اليه : اليه يرجع فضل انشاء السكك الحديدية وتنظيم البريد ، وله الفضل الأول فى النظام القضائى القائم فى مصر حتى اليوم ، وله أكثر من ذلك كله الفضل الأكبر فى شعور الأمة المصرية بقوميتها وبكيانها . ثم ان عليه تبعة الارتباك السياسى الذى لا تزال مصر تجاهد بكل قواها للخروج منه وتبعه الاضطراب المالى الذى شل حركة البلاد سنوات طويلة وهو ما يزال الى اليوم باقى الأثر ، وعليه أكثر من ذلك كله تبعة تسليم البلاد ماليا واقتصاديا وسياسيا الى أيدى الأجانب . فهذه الستة عشر عاما التى رأته على عرش مصر ( من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٧٩ ) والتى شهدت من مظاهر النشاط المعمر ، ومن فضائح الظلم المخرب ، ومن البذخ والاسراف اللذين لا يعرف التاريخ ولا تعرف الأقاصيص لهما نظيرا ، والتى انتهت بسقوط عاهل مصر العظيم بعد أن جاهد أمته فأجهدها ، وبعد أن جاهد أوربا فأخضعته لها ، وبعد أن جاهد القدر فهوى به عن عرشه وأخرجه من مصر حسيرا ينظر الى

شواطئها تبتعد عنه بعين دامعة وقلب كسير . هذه الستة عشر عاما التى جرت الى مصر مظاهر الحضارة الأوربية وهى التى جرت على مصر الخراب ، وهى التى أيقظت فى شعب مصر الروح الاستقلالية التى لم ينسها يوما من الأيام . وهى التى أججت فى نفوس المصريين نيران كراهية الاستعباد والظلم والحرص على الحرية والعدل .

ولم يكن عجيبا أن تترك هذه الأعوام الستة عشر فى مصر كل هذا الأثر واسماعيل باشا كان حاكم مصر المطلق . فقد كان بشخصه بطلا من أبطال الأقاصيص . وكانت أيام حكمه أسطورة لا يسلم العقل بها لو رواها التاريخ عن عصر قديم . كان اسماعيل ساحرا أعظم السحر ذكيا أشد الذكاء وسيم الطلعة حاد النظرة ماضى العزيمة جذابا لكل من اتصل به . وكان مع ذلك قصير النظر شرها فى كل مطامعه وشهواته مغامرا فى سبيلها مجازفا مجازفة لا يهون منها أى حذر . وكان فيه من دم محمد على اقدام لا يعرف التردد وبطش لا هوادة فيه وقسوة لا يتسرب اليها أمل فى رحمة . وكانت هذه الصفات كلها بالغة منه فوق ماتبلغه من أذكياء الناس والباطشين منهم . ثم انه كان مولعا أشد ولع بالمظاهر الاجتماعية للحضارة الأوربية وان غاب عنه الجانب المعنوى منها ، وهو الجانب الذى يحركها ويمدها بكل ما فيهـا من قوة . لذلك سخر ذكاءه واقدامه ليجعل لعرش مصر مظاهر العروش الأوربية وليكون قصره كقصر لويس الرابع عشر ان لم يكن أبهى منه وأزهر ، وليقول عن مصر انها أصبحت قطعة من أوربا . وفى سبيل ذلك انشأ كثيرا وخرب كثيرا وأثقل كاهل مصر بدين ماتزال تنوء الى اليوم به

وما تزال تحتمل بسببه نقصا فى سيادتها وذبولا فى استقلالها وعزتها .

ولد اسماعيل بن ابراهيم بن محمد على بمصر فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٣٠ وتربى فى المدرسة التى انشأها جده محمد على باشا بالقصر العالى ثم أوفده جده لما بلغ السادسة عشرة من عمره مع طائفة من الشبان الى باريس حيث التحق فيها بمدرسة أركان حرب L'école de l'état major ثم عاد الى مصر بعد أن أتم بها دراسته .

وكان عباس الأول والى مصر يومئذ . وقد حدث خلاف بينه وبين أفراد العائلة ومن بينهم سعيد باشا على اقتسام التركة . فذهبوا الى الاستانة يحتكمون الى جلالة السلطان . وفض جلالته النزاع بأن أوفد اثنين من رجاله الى مصر سويا الخلاف . وعاد أفراد العائلة العلوية خلا اسماعيل الذى ظل بالآستانة وعين فيها عضوا بمجلس أحكام الدولة العلية .

وفى سنة ١٨٥٤ تولى سعيد باشا أريكة مصر خلفا لعباس الأول . فاستقدم اسماعيل وجعله على رياسة مجلس أحكام مصر فى مثل وظيفته التى كان يشغلها بالاستانة . ولم يكن اسماعيل يومئذ وليا للعهد أن كان أخوه أحمد أكبر رجال العائلة وكان بذلك صاحب عرشها بعد سعيد . لكن أحمد توفى وآلت ولاية العهد لاسماعيل . من يومئذ جعل سعيد يخشى وجوده على مقربة منه فجعل يوفده فى مهمات خاصة الى البابا والى نابليون الثالث والى الباب العالى بالآستانة . وفى سنة ١٨٦١ نشبت فتنة بالسودان فبعث به على رأس أربعة عشر ألف مقاتل لقمعها . ونجح اسماعيل فى ذلك وعاد وله فى

أعين الشعب مقام كريم . ولما توفى أخوه أحمد وآلت اليه ولاية العهد ساءت العلاقة بينه وبين عمه الوالى الى حد أنه لما توفى سعيد باشا فى ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ ونودى به واليا مكانه حدد للتشريفات بالقاهرة نفس الساعة التى كانت محددة لسير جنازة سعيد بالاسكندرية . فلم يحتفل بالدفن احتفالا رسميا ولم يحفل بالمشهد أحد .

وقد انتعشت النفوس بأكبر الآمال لأول ولاية اسماعيل باشا الحكم ، أن كان الناس فى سعة بسبب انتظام جباية الضرائب أيام سعيد وارتفاع أسعار القطن ارتفاعا عظيما ترتب على حروب الانفصال بين شمال الولايات المتحدة وجنوبها ، وأن أبدى اسماعيل من الحرص على حضارة مصر واصلاحها ما جعل الرجاء فى المستقبل عظيما . وكان أول ماصنعه اسماعيل مما استراحت له النفوس أن نشر فى الناس على أثر ارتقائه العرش برنامجا خلابا كله المبادىء الحرة والوعود المغرية بخير الأمل والاصلاحات الواسعة على أحدث النظم الأوربية . وفى هذا البرنامج وعد بالغاء السخرة والرقيق والاتجار به وباصدار قوانين خاصة بالتعليم وبتحديد مخصصات والى مصر . وتوقع الناس أن ينفذ هذا البرنامج وأن تخطو مصر الخطى الواسعة التى تترتب حتما على تنفيذه لما بدا على اسماعيل بعد عوده من دراسته بأوربا ومن سياحاته الكثيرة فيها من الحرص على تنمية ثروته الخاصة . وزاد الناس رجاء فى ذلك ماكانت عليه حال البلاد اجمالا من الانتظام والطمأنينة .

لكن اسماعيل حرص ، الى جانب نشر هذا البرنامج ، على نشر

حالة الخزانة المالية وبخاصة فيما يتعلق بالديون التى خلفها سلفه سعيد باشا . ومع أن هذه الديون لم تكن تزيد فى التقديرات الرسمية التى عرفت الى حين موت سعيد على أربعة ملايين من الجنيهات فقد ظهرت فى البيان الذى نشرته حكومة اسماعيل باشا أحد عشر مليونا ومائة وستين ألفا من الجنيهات . والسبب فى نشر هذا البيان ليس مجرد الحرص على تحديد ما للدولة وما عليها ، فمثل هذا الحرص لم يكن معروفا فى ذلك الوقت . وانما السبب أن اسماعيل باشا كان يرى مايقتضيه تنفيذ برنامجه العظيم من طائل النفقات مما لاسبيل الى الحصول عليه من غير طريق الاقتراض . لذلك أراد أن يبين للناس وللأوربيين خاصة أن سلفه الذى لم يصنع شيئا لحضارة مصر أكثر من هذا الجيش الذى اختاره من طوال القامات ، الذى كان يصحبه أنى ذهب ، هو الذى بدأ سنة الاقتراض وهو الذى اقترض هذا المبلغ العظيم من غير فائدة للبلاد .

والواقع أن مطامع اسماعيل كانت عظيمة تنوء بها موارد مصر . فقد أراد أن يصل الى مارمى اليه جده محمد على من استقلال البلاد . لكنه كان يعلم أن تحقيق ذلك بالسيف غير ميسور ، وانه على كل حال عرضة لأن يصطدم من معارضة أوربا بما اصطدمت به انتصارات مصر أيام جده . وكان يعلم كذلك ما للرشوة من أثر فى وزراء الباب العالى ، فاذا هو سخا بيده استطاع أن يحصل على هذا الاستقلال شيئا فشيئا . ثم انه رأى من جهة ثالثة أن لا سبيل للحصول على المال اللازم لهذه الغاية ولسداد أطماعه وشهواته الا أن يظهر أمام أوربا حاكما غربيا يريد الاصلاح بالفعل . فنشر البرنامج

المشار اليه ونشر قائمة بديون سعيد وأبدى من مظاهر العطف الانسانى على رعاياه ما جلب اليه أنظار أوربا . من ذلك أنه لم يوافق على الاستمرار فى تنفيذ اتفاقية قناة السويس التى عقدت فى عهد سلفه سعيد باشا بينه وبين المسيو فرديناند دلسبس لأنه رأى شروطها قاسية بالنسبة لمصر وبالنسبة للعمال المصريين الذين كانوا يرهقون فى حفر القناة أشد ارهاق . يسامون الخسف ويضربون بالكرابيج ويطعمون الزقوم ويكادون لايقتضون عن عملهم أجرا . ولما استحر الخلاف بين اسماعيل وشركة القنال ارتضى الطرفان تحكيم نابليون الثالث . ولسنا نستطيع أن نفهم هذا التحكيم الا على أنه نوع من الكبرياء والغرور . فنابليون الثالث امبراطور فرنسا ، وشركة القنال على صفتها الدولية كانت ماتزال فى كل مظاهرها شركة فرنسية تعنى امبراطور فرنسا حمايتها . فتحكيمه مع ذلك نوع من الكبرياء والغرور معناه انه لا يجوز لغير رأس من أكبر الرؤوس المتوجة أن تنظر فى خلاف بين اسماعيل والشركة الدولية العالمية . وانتهى التحكيم بالزام مصر بأن تدفع للشركة تعويضا من عدم تنفيذ شروط الاتفاق أربعة وثمانين مليونا من الفرنكات ، أى ثلاثة ملايين وثلاثمائة وستين ألفا من الجنيهات . فاذا أضيفت نفقات الدعوى وما قامت به الحكومة المصرية من أعمال النشر والاذاعة وما كان يتقاضاه القائمون بهذه الأعمال من باهظ النفقات لم يكن غلوا تقدير ما خسرته مصر فى هذه الحركة بأربعة ملايين من الجنيهات .

وبعد زمن وجيز من ولايته الحكم جاء جلالة السلطان عبد العزيز

الى مصر ومعه الصدر الأعظم فؤاد باشا . فكانت هذه أول فرصة عرضت لاسماعيل كى ينفذ ماجال بخاطره كوسيلة لبلوغ الغاية التى صبا اليها من قبل جده محمد على . ولم يكفه ما أقامه لجلالة السلطان من أعياد فاقت فى الفخامة كل ما يتصوره خيال السلطان الشرقى . بل نفح الصدر الأعظم بمبلغ زهيد مقابل الخدم التى أداها أو يمكن أن يؤديها لبقاء علاقات المودة والصفاء بين والى مصر وجلالة السلطان . هذا المبلغ الزهيد هو ستون ألفا من الجنيهات .

على أن تباشير الخير التى جعلت المصريين يستقبلون ارتقاء اسماعيل الى العرش بالبشر والتهليل لم تدم طويلا . فقد انتهت حرب الانفصال بين شمال الولايات المتحدة وجنوبها وعادت أسعار القطن فانحدرت من ستة عشر جنيها للقنطار الى ثلاثة جنيهات أو ثلاثة جنيهات ونصف الجنيه . وفتكت بالزراعة المصرية آفات أنقصت من دخل الضريبة العقارية واضطرت الحكومة معها لشراء الماشية والغلال لتموين الأهالى مما خسرت معه مايزيد على مائة وعشرين ألفا من الجنيهات . ثم ان اسماعيل كان مغرما أشد الغرام بتلك الأطيان حتى لقد بلغت مساحة « دوائر » العائلة المالكة فى سنة ١٨٦٥ مايزيد على خمس الأطيان المنزرعة فى مصر الوسطى وفى الوجه البحرى .

ذلك كله مضافا الى حاجات الميزانية العادية وما احتاجت اليه الاصلاحات العامة التى بدأ اسماعيل باشا بالقيام بها تنفيذا لبرنامجه جعل الالتجاء الى الاقتراض أمرا لا مفر منه . وقد بدأ اسماعيل فعلا بالاقتراض منذ ولى الحكم . فلما انقضت على ولايته سنة وبعض السنة كان الالتجاء الى المرابين فى مصر غير كاف لحاجاته ، وكان لابد

من الاقتراض من بيوتات مالية كبيرة فى أوربا . ولم يجد اسماعيل عنتا فى استصدار تصريح بالاقتراض من الآستانة . وبذلك استطاع فى ٨ سبتمبر سنة ١٨٦٤ عقد أول قروضه وقدره ٥,٧٠٤,٠٠٠ جنيه .

كيف صور اسماعيل لنفسه برامج الاصلاحات العامة . وماهى الطريقة التى أراد أن ينقل بها مصر من بلد شرقى بعيد عن مظاهر الحضارة الأوربية الا القليل الذى جاء مع نابليون والبعثة الفرنسية والذى دخل الى مصر سدا لحاجات محمد على الحربية ؟؟ هى صورة غاية فى البساطة ؛ يجب أن نقيم مدنا أوربية النظام فى طرقها وفى عمارتها وفى بساتينها فما يلبث المقيمون بها أن يصطبغوا بالحضارة الأوربية . ويجب أن ندخل أحدث المخترعات والنظم كالسكك الحديدية والبريد والتلغراف فما يلبث الناس أن يفهموا هذه الاختراعات والنظم وأن يصيروا كأصحابها . ويجب أن نعلم جماعة من النشء ليكونوا واسطة احتفاظ بمظاهر الحضارة هذه . أما الشعب فلم يكن اسماعيل يأبه له كثيرا لأنه كان كغيره من الحكام الشرقيين الى يومئذ ، وككثير من الحكام الغربيين الى زمن غير بعيد قبله ، يعتبر مصر كما اعتبرها جده من قبل مزرعة له ، مركز الشعب فيها مركز العبد أو الخادم . وقد أراد اسماعيل أن يصل لتحقيق فكرته من الحضارة والاصلاح فى سنوات مما لم تصل أوربا لتحقيقه الا فى قرون . فبدأ تنظيم القاهرة على نظام باريس وغيرباريس من مدائن أوربا الكبرى يخطط فيها الشوارع ويقيم القصور وينشىء الدواوين ودور الحكومة

ويفرس البساتين ، وجعل من جانبه يعيش عيشة بذخ لم يتهيأ لخيال شاعر ولا قصاص من قبل . وطبيعى أن اقتضى القيام بذلك كله من النفقات ما تلاشى معه قرض سنة ١٨٦٤ أسرع التلاشى ، وما كثرت معه الديون السائرة التى كان يقترضها من المرابين الأجانب المقيمين بمصر كثرة اضطرته للتفكير من جديد فى الالتجاء الى أوربا كى يعقد قرضا آخر .

ولم يكفه قرض واحد ، بل كان وزيره نوبار باشا يتفاوض له مع كل البيوتات المالية وعقد له فى ثلاث سنوات ثلاثة قروض : قرض سنة ١٨٦٥ وقدره ٣,٣٨٧,٠٠٠ جنيه وقرض سنة ١٨٦٦ قدره ثلاثة ملايين من الجنيهات ، وقرض سنة ١٨٦٧ وقدره ٢٫٠٨٠٫٠٠٠ جنيه . لكن هذه الملايين كلها لم تكن شيئا مذكورا الى جانب النفقات الباهظة التى كان يقوم بها اسماعيل باشا .

وماذا تريد من رجل أقل أطماعه أن يصل ليكون ملكا على بلاد مستقلة استقلالا داخليا على الأقل ! وكم كلفه ذلك من باهظ الرشوة يدفعها للكثيرين من رجال الباب العالى بالآستانة ! ولقد كانت أول خطوة خطاها فى هذا السبيل أن حصل فى سنة ١٨٦٦ على فرمان من جلالة السلطان بجعل الوراثة فى أبنائه بدلا من جعلها فى أكبر العائلة كما كانت من قبل . ثم حصل كذلك على ضم سواكن ومصوع لمصر بعد ما سلخا عنها من بعد حكم محمد على .

ثم انه من بعد أن حكم نابليون الثالث امبراطور فرنسا فى الخلاف بينه وبين شركة قناة السويس أصبح صديقا حميما للشركة وأصبح ينتظر اليوم الذى يعلن فيه افتتاح القناة ليدعو العالم كله

كى يشهد هذا التحوير البديع لنظام الطبيعة تحويرا من شأنه أن يغير سير الوجود الاقتصادى والتجارى تغييرا خطيرا . وكانت سنة ١٨٦٩ هى السنة التى حددت لهذا الافتتاح . وكانت قروض السنوات الثلاث السالفة الذكر قد نفدت كلها وتزايد الدين السائر مع ذلك تزايدا جعل اسماعيل يفكر فى الحصول على المال للظهور بالمظهر اللازم فى حفلة الافتتاح تفكيرا جديا استغرق كل مواهبه وكل ذكائه .

وفى هذا السبيل سافر فى سنة ١٨٦٧ الى أوربا وزار باريس ولندره واستضافه نابليون الثالث والملكة فكتوريا . وكان معه فى هذه السياحة وزيره نوبار باشا المطلع على دخائل مفاوضات البيوتات المالية والقدير بدهائه وخبثه على القيام بأعمال فى السياسة جسام . وفى هذه الزيارة بدىء الحديث فى مسألة تعديل نظام الامتيازات الأجنبية . فقد كان الى يومئذ كما كان الى يوم الغائه فى تركيا قائما على القاعدة القانونية التى تقرر أن المدعى يقاضى المدعى عليه أمام قضاته . وكان من أثر ذلك أن شعر الأجانب أنفسهم بالارتباك فى مقاضاة بعضهم بعضا . فاستقر رأى اسماعيل ووزيره على اقامة نظام المحاكم المختلطة القائم اليوم فى مصر ، على أن يشمل اختصاص هذه المحاكم الشؤون الجنائية كذلك . ومنذ هذه الزيارة التى قام بها اسماعيل لأوربا فى سنة ١٨٦٧ فتحت مسألة تعديل النظام القضائى فى شأن الأجانب ، وظلت المفاوضات فيها مستمرة بعد ذلك ثمانى سنوات حتى كللت بالنجاح فى سنة ١٨٧٥ . لكن هذه المسألة لم تكن الجوهرية يومئذ . انما المسألة الجوهرية كانت

الحصول على المال لسداد الديون السائرة فيما أعلنه اسماعيل باشا المفتش وزير مالية اسماعيل ولتحضير حفلة افتتاح القناة فى رأى المستر كيف الذى حقق أسباب ديون اسماعيل فى سنة ١٨٧٠ كما سنرى ، وقد نجح اسماعيل فى عقد قرض تم توقيعه سنة ١٨٦٨ قيمته الاسمية مبلغ ١١ر٨٩٠ر٠٠٠ جنيه والمتحصل الحقيقى منه مبلغ ٧ر١٩٣ر٣٣٤ جنيه . وقد قبل اسماعيل ضمن شروط هذا القرض أن يمتنع عن الاستدانة لمدة خمس سنوات مقبلة مما يدل على انه كان فى أشد الحاجة الى المال . وكان افتتاح القناة فى ذلك الظرف هو شاغل اسماعيل الأكبر .

فلقد حرص على أن يدعو الى هذه الحفلة كل الرؤوس المتوجة فى أوربا وأكبر عدد من ذوى المقام والمكانة فى العالم . وكان أكبر همه من هذا أن يشهد هؤلاء جميعا كيف نقل مصر من بلاد شرقية أفريقية فجعل منها بلادا غربية متحضرة . وفى الحق انه أعد لهذا المظهر خير عدته . فقد بنى فى القاهرة قصورا تضارع أفخم قصور المدائن الأوربية العظمى . بنى قصر الجيزة الذى انقلب فى العهد الأخير حديقة للحيوانات ووصل بينه وبين القاهرة بكوبرى قصر النيل . وبنى قصر الجزيرة الذى آل أخيرا الى الأمراء آل لطف الله . وبنى غير هذين من القصور الشاهقة ومن دواوين الحكومة ما تعتز به مدائن أوربا . ثم أعد مسرح الأوبرا وكلف الموسيقار الايطالى الكبير فردى فوضع أوبرا عائدة لتمثل أثناء حفلات الافتتاح . وأنشأ حديقة الأزبكية فى وسط القاهرة أسوة بالحدائق العامة فى العواصم الكبرى ، وليتيسر للزائرين وبخاصة

الامبراطورة أوجيني زوج نابليون الثالث زيارة آثار الفراعنة اختط طريق الأهرام فى أشهر معدودة . هذا الى ما مد من خطوط السكة الحديدية . والى ما شيد من مدينة الاسماعيلية على ضفة القناة ، كما أنه كان قد انشأ فى مختلف أنحاء القاهرة كثيرا من المدارس الجديدة . كما أعاد المدارس التى كانت قد أنشئت فى عهد جده محمد على باشا واضمحلت من بعده . فأنشأ مدارس المبتديان والتجهيزية والمهندسخانة والمساحة والألسن والعمليات والادارة واللسان القديم والتجارة ومدرسة للبنات ومدارس كثيرة أخرى فى القاهرة والاسكندرية والأرياف . وكذلك كان من حقه أن يفخر بهذه المنشآت العظيمة وان يريها لملوك أوربا ليعلموا أنه أكثر حضارة من متبوعه الأعظم سلطان تركيا ، وانه اذا طلب يوما أن يستقل بحكم مصر فطلبه لاشىء من المبالغة فيه .

وسافر من جديد الى أوربا سنة ١٨٦٩ وعاد بعدما دعا كل الرؤوس المتوجة الى حضور الاحتفال بافتتاح القناة . وقد أجاب الدعوة منهم عدد غير قليل . ثم تم افتتاح القناة فى خمسة أيام . ففى ١٦ نوفمبر سنة ١٨٦٩ ركب المدعوون بواخرهم وعددها ثمان وستون ترفرف فوقها أعلام مختلفة ويتقدمها ( النسر ) سفين الامبراطورة أوجيني زوج نابليون الثالث التى جاءت بالنيابة عن زوجها وقطعوا المسافة من بور سعيد الى الاسماعيلية فى ذلك اليوم . وبعد أن أقيمت فى الاسماعيلية أعياد استمرت يومى ١٧و١٨ نوفمبر ركب المدعوون من جديد بواخرهم يوم ١٩ وبلغوا السويس يوم ٢٠ نوفمبر . ولم يكتف اسماعيل بهذا بل طاف بضيوفه العظام

أنحاء مصر يظهرهم على ما جدد فيها من حضارة تضارع حضارة أوربا . وقد كلفته هذه الأعياد الباهرة ، حسب التقديرات الرسمية ، أربعة ملايين من الجنيهات .

وانتهت الأعياد وأضواؤها الباهرة وابتساماتها الخلابة وأجال اسماعيل بصره يريد متابعة أعماله فاذا خزانة الدولة قفر ، واذا هو فى أشد الحاجة الى المال . ولم يكن يستطيع أن يقترض وهو مقيد فى عقد سنة ١٨٦٨ بأن لا يعقد قرضا جديدا قبل مضى سنوات خمس . فلجأ الى المرابين من جديد ولجأ الى وسيلة تشبه ما يسميه الفلاحون اليوم : البيع على الوجه . فكان يبيع آلاف الأرادب من الغلال قبل زرعها ويقبض ثمنها ، فاذا جاء موعد التسليم أعطى ما يجبى من الضرائب غلالا ثم اشترى الباقى بأسعار أعلى بكثير من الأسعار التى باع بها . ولجأ الى غير ذلك من الوسائل المخربة حتى اضطر جلالة سلطان تركيا رغم ما أصاب وزراؤه من أموال اسماعيل أن يبعث له يحظر عليه الاقتراض بغير تصريح سابق منه .

لكن ذلك كله لم يوهن من عزيمة اسماعيل الصلب ولم يثن من ارادته . يجب أن يوجد المال للقيام بمشروعاته ولمضاعفة هذا البذخ الذى كان يعيش فيه والذى اضطره لنثر الذهب من الأبواب والنوافذ نثرا . وهل تراه يرضى أن يقول لرجل من أتباعه الذين يتولون تسليته أو لجارية من مئات الجوارى اللاتى كانت تترنم بأصواتهن قصوره : أن سيدكم قدعرف أخيرا كلمة المستحيل . كلا ! ليس هذا من خلق اسماعيل . فليعقد اذن قرضا ترهن أملاكه الخاصة لسداده .

وعقد بالفعل قرضا خاصا فى سنة ١٨٧٠ قيمته الاسمية ٧,١٤٢,٨٦٠ جنيها والمبلغ المتحصل منه بالفعل خمسة ملايين من الجنيهات .

ومن سنة ١٨٧٠ بدأ يرمى بنظره الى التوسع الاستعمارى . ولقد أصاب من ذلك حظا من النجاح غير قليل . ففيما بين هذه السنة وسنة ١٨٧٥ استصفى لمصر كل الشواطىء الشرقية من السويس الى رأس غردفوى وحاصر بربر وزيلع . وفى سنة ١٨٧٤ ضم دارفور الى مصر واحتل هرر . وقد أدى احتلال هرر الى حروب مع الحبشة قتل فيها ابنه . ولم يكن النصر فيها حليف جيوشه . على أن ذلك لم يصدها عن التوغل جنوبا الى حدود الأوغندة . وكان من أكبر رجال اسماعيل المسؤولين فى السودان صمويل بيكر والكولونيل جوردون . ولعل ذلك أول ما دعا انكلترا لتفكر فى هذا القطر النائى ، وكان السبب فى السياسة التى رسمتها لنفسها فيه والتى أدت الى مركز السودان الحاضر .

وكانت هذه الأعمال ، وكان اسراف الحكومة فى مصر ، وكانت نفقات اسماعيل ومن حوله ، تجعل كل مبلغ ضئيلا لا يقوى على سدادها . لكن اسماعيل باشا بدأ يرى هول الديون التى استدانها وبدأ يشعر بأن من الواجب التفكير فى السعى للتخلص منها . ولعله كان مخلصا فى سعيه وان كانت كل الوسائل التى ابتدعت لجلب المال لم تنجح فى أكثر من أن زادت الخديوى مطامع وسرفا . وأول ما أبدع من الوسائل قانون المقابلة . وخلاصته : ان ديون مصر الى يومئذ كانت تبلغ ستة أمثال الضريبة العقارية . فاذا دفع الملاك ضعف الضريبة ست سنوات أمكن سداد الدين . ومقابل هذه

الضريبة المضاعفة يعفى الملاك أبدا من نصف الضريبة التى عليهم . وقد دفع كثير من كبار الملاك والباشوات الضريبة المضاعفة بطلب ولى الأمر . وبدأت الحكومة فعلا توفى الدين السائر . ولكنها لم تمض عليها سنة واحدة حتى كانت قد استدانت من جديد بسندات أصدرتهـا مكفولة بضريبة المقابلة ما قيمته اثنا عشر مليونا من الجنيهات .

ولما كان موعد الخمس السنوات المحددة فى عقد قرض سنة ١٨٦٨ قارب الانتهاء ، رأى اسماعيل أن يستأذن الباب العالى فى قرض جديد يوحد به ديونه . واتفق فعلا مع بيت أوبنهيم الذى أصدر قرض سنة ١٨٦٨ على أن يصدر قرضا جديدا قيمته اثنان وثلاثون مليونا من الجنيهات لهذا التوحيد . على أن كل ماحصلته الحكومة المصرية من هذا المبلغ كان ٢٠,٨٤٠,٠٧٧ جنيها . وكان الدين السائر وحده قد بلغ يومئذ ثمانية وعشرين مليونا .

ثم ان الخديو كان قد اضطر الى انفاق مبلغ ضخم فى الآستانة للحصول على فرمان سنة ١٨٧٣ الذى وطد الوراثة فى بكر الأبناء على نحو ماصدر به فرمان سنة ١٨٦٦ والذى أتم لمصر استقلالها الداخلى حتى لم يبق لتركيا الا أن تسك العملة باسم سلطانها وتتقاضى الجزية آخر كل سنة . وزاد هذا المبلغ فى مقدار الديون السائرة زيادة جعلتها تجاوز مقدار القرض الجديد بما يوازى نصفه . لذلك لم يفلح القرض فى سداد الدين السائر . واستمر اسماعيل على طريقته يصدر سندات جديدة أسماها فى هذه المرة سندات الرزنامة . وقد حصلت الحكومة من هذه السندات ٣,٣٣٧,٢١٠ جنيه فلم تكف

هى الأخرى مضافة الى الدين الجديد لسداد الديون السائرة ولم يبق أمام اسماعيل الا بيع أسهم الحكومة فى قنال السويس . ولقد عرضها للبيع فى السوق العالمى . لكن انكلترا جعلت المسألة ماسة بسياستها ووقفت فى وجه فرنسا واشترت الأسهم من اسماعيل بمبلغ أربعة ملايين من الجنيهات وتمت الصفقة فى سنة ١٨٧٥ .

وفى هذا العام الذى أطل فيه الخراب محدقا بعينيه البشعتين فى وجه اسماعيل تم تنظيم المحاكم المختلطة بعد معارضة غير قليلة من جانب فرنسا ، وافتتحها اسماعيل وهو ما يزال يأمل فى أن أعمال الحضارة التى قام ويقوم بها فى مصر تسمح له أبدا بأن يجد من الدائنين من يثق به ، ناسيا أنه كان قد رهن كل ايرادات الدولة وكل أملاكه الخاصة وأن الثقة به تزعزعت فى كل مكان . لذلك ما بزغت شمس سنة ١٨٧٦ حتى كان وقت الحساب قد آن ، وحتى أطفئت أنوار هذه الأعياد الدائمة وهذا النشاط العجيب الذى نشره اسماعيل لا فى مصر وحدها بل فى أرجاء كثيرة قريبة من مصر ونائية عنها — فى السودان وفى تركيا وفى فرنسا وفى انكلترا وفى كل بلد حلت به رحاله أو كان له دائنون فيه .

سنة ١٧٨٦ ! نعم هى السنة العصيبة فى حياة اسماعيل لأنها السنة التى بدأ فيها الصراع العنيف بينه وبين أوربا مجتمعة . والعجيب أنه واصل هذا الصراع وما يزال واثقا من نفسه ومن حيلته . لذلك كان اذا اضطر الى الاذعان يوما لم يكن ذلك منه حرصا على الوفاء ولكن انتظارا لفرصة النكث والأخذ بالثأر . لكن خصومه كانوا أقوى منه أضعافا برغم أنه كان فى داره . وعلى الرغم من كل

الوسائل التى لجأ اليها فقد انتهى آخر الأمر فاسلم نفسه للمقادير التى قضت بخلعه وابعاده عن بلاده بقية حياته .

ومن عجيب سخر القدر من الناس أن اسماعيل هو الذى ألقى لأوربا بأول فكرة للتدخل فى شئونه وشئون مصر تدخلا ينتهى فى أمره هو الى الخلع ، وفى أمر مصر الى الخضوع لنير أوربا أولا وانكلترا أخيرا . ذلك بأنه لما ثقل حمله وأيقن أن لا وسيلة الى الاقتراض من جديد الا أن تثق به أوربا أجال نظره صوب صديقته الصدوق فرنسا فألفاها ما تزال مهيضة الجناح من أثر هزيمتها سنة ١٨٧٠ . عند ذلك فكر فى مصادقة انكلترا وانتهز فرصة مرور ولى عهدها بمصر فطلب اليه أن يعين انكليزى مستشارا للمالية المصرية . وكان جواب ولى العهد أن ذلك من شأن القنصل الانكليزى . فبعث القنصل بخطاب الى حكومته كطلب اسماعيل . وأهملت انكلترا الخطاب حتى اشترت أسهم القناة . يومئذ ذكرت الخطاب من جديد فأرسلت الى مصر ببعثة لفحص شئونها المالية وعلى رأسها المستر ستيفن كيف .

ولم يترك اسماعيل باشا وسيلة لاسترضاء المستر كيف ولجنته الا بذلها . وقدمت اللجنة تقريرها الى الحكومة الانجليزية فامتنعت عن نشره بحجة أن النشر يزيد مركز الخديوى حرجا . ولقد نشر التقرير من بعد فتبين أنه لا يزيد المركز سواء وأنه على العكس من ذلك يبين للناس أن ما اقترضته مصر انما أنفق أكثره فى أعمال مثمرة ان لم تظهر نتائجها بعد فهى على كل حال ضمان يمكن أن يعتمد الدائنون عليه . على أن التقرير استظهر دقة حال مصر وأشار بأن

لابد من توحيد ديونها على قاعدة جعل الفائدة لها جميعا ٧ فى المائة . ولم يعجب اسماعيل هذا الرأى وأراد المقاومة بتأجيل الدفع ولو كان من نتيجة ذلك اشهار افلاسه أسوة بمتبوعه الأعظم سلطان تركيا . لكن سرعان ما أدرك خطر ماندفع اليه فتلافاه بأن أصدر قانونا فى ٢ و ٧ مايو سنة ١٨٧٦ بتوحيد الدين وبانشاء صندوق خاص بعملياته . وصندوق الدين تعين الحكومة المصرية أعضاءه من الأجانب بالاتفاق مع دولهم . وهذه أول خطوة من خطى التسليم والخضوع لأوربا ولتدخلها فى شئون مصر الداخلية .

على أن الدائنين لم يرتضوا القواعد التى بنى عليها توحيد الديون فضجوا بالشكوى وطلبوا تعيين لجنة جديدة لفحص حالة مصر المالية . فذهب المستر جوشن والمستر جوبير مندوبين عن الدائنين لاجراء هذا الفحص . وكان من أثر فحصهم أن صدر دكريتو ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ يفرق بين ديون الحكومة المصرية وديون اسماعيل الخاصة ويزيد فى اختصاص صندوق الدين وينشىء منصبى المراقبين العامين أحدهما انكليزى والآخر فرنسى يراقب أحدهما كل ايرادات الدولة ويراقب الآخر كل مصروفاتها . وينشىء كذلك ادارة للسكة الحديدية مكونة من انكليزيين ومصريين وفرنسى واحد ، على أن يكون الرئيس انكليزيا . وبهذا الدكريتو أصبحت الحكومة المصرية فى يد صندوق الدين والمراقبين الأجانب وأصبح اسماعيل صورة لا يطلب منها الا أن تكف عن الأذى . وبدأت هذه النظم الجديدة بالعمل وبدأ اسماعيل يشعر بتلاشيه وانحدار سلطانه المطلق الى هاوية الفناء .

أين كان الشعب المصرى فى أثناء ذلك كله ؟ لم يكن فى نظر اسماعيل شيئا الا أنه العبد المطيع الذى يفعل ما يؤمر به والبقرة الحلوب التى تدر الضرائب لاقامة الميزانية . ولم تكن للحكومة ميزانية معروفة وانما كانت ميزانيتها ماتتطلبه شهوات عاهلها الذكى القاسى . ولتحصيل هذه الميزانية غير المحدودة كان يكفى أن يقول اسماعيل : « أريد » لتتحرك كل الحكومة كى تنفذ ارادته . والناس على دين ملوكهم . فكان كل موظف فى الحكومة كاسماعيل شهوة وقسوة . وكان ما يطلبه اسماعيل يجبى من الناس أضعافا مضاعفة سدا لشهواته وشهوات هؤلاء الجباة الجناة . والناس يجب أن يدفعوا أو يكوى الكرباج والسوط جلودهم ويدمغ جباههم . ويجب أن يدفعوا أو يلقى بهم فى غيابات السجن يذوقون فيها أشد العذاب ، ولم لا ؟ أليس عزيز مصر وولى أمرها يريد . ( وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ) . فمن عصى فعليه اللعنة وله العذاب . وأى عذاب وأية لعنة ! كان رجال الحكم يومئذ من غير المصريين الا قليلا . فلم تكن بينهم وبين مصر وشيجة رحم أو عاطفة مودة أو قربى تحرك فى نفوسهم بازاء المصريين المساكين معنى من الرحمة أو الانسانية ، بل كانوا من الأكراد والجركس والأرمن والألبانيين . وكانوا قساة القلوب غلاظ الأكباد على عقولهم أقفالها ، لا يعصون اسماعيل ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون .

لذلك كان طبيعيا أن لا يتحرك الشعب لتدخل الأجنبى فى شئونه . ولماذا يتحرك ؟ أليس حكامها هؤلاء أجانب عنه كالذين تدخلوا فى شأن الحكم سواء بسواء ؟ واختلاف العقيدة لا يكفى ليقوم

شعب هذه الظلم وأضعف نفسه لينصر ظالمه على مخالفه فى العقيدة . وبخاصة اذا انتظر من هذا المخالف رفع الحيف ووقف الظلم والأذى .

وبدأ اسماعيل يشعر بهذا ويحسه فى أعماق نفسه . جلس حسيرا فى قصره مغلولة يده يشهد بعينى رأسه ماجر اليه بذخه واسرافه من خراب وسمح لأذنه أن تسمع لأول مرة مايضج به الناس من ألم وشكوى . وماذا يعنى الناس من قصور تشاد وحدائق تغرس وجسور تمد فوق النهر وألحان تعزفها الحسان اذا كان ذلك كله يشاد من دمائهم ويمد على أكتافهم ؟ وزاد اسماعيل شعورا بالكارثة ان استنفدت أقساط الدين كل الضرائب التى جمعت على النحو الذى كانت تجمع به من قبل من وسائل الارهاق . ولم يبق منها شىء يدفع للموظفين ولا للجيش .

ورأى الدائنون بأعينهم هذه الحال البشعة فاتفق الرأى على تعيين لجنة جديدة لفحص جديد . وفى سنة ١٨٧٨ تعينت لجنة الفحص العليا أنشأها دكريتو ٢٧ يناير من تلك السنة . وفى ٣٠ مارس صدر دكريتو آخر يجعل للجنة أوسع السلطة . وتشكلت من مسيو دلسبس رئيسا ومن مستر ريفرس ولسن نائب رئيس . ومن أعضاء صندوق الدين الأربعة . وبدأت اللجنة فحصها تحركها فكرة أساسية هى وضع قرار اتهام اسماعيل . وبعد انتهائها من الفحص قدمت تقريرا مبدئيا كانت الفكرة السائدة فيه وجوب تحديد سلطة الخديو واعتباره مسؤولا عن حرج مركز مصر ، واقترحت لذلك اجراء اصلاحات فى التشريع المالى بالنسبة

للضرائب وأن تخصص ايرادات أملاك الخديو كلها ومساحتها ٩١٧,٠٠٠ فدان لسداد ما يكون من عجز فى الميزانية .

تردد اسماعيل بادىء الرأى فى قبول هذه المطالبة ، لكنه رأى ترددة لا يفيد شيئا بعد أن أصبح الأمر كله للمراقبين ولصندوق الدين ، وانه اذا قبل ما اقترح عليه فقد يفتح ذلك أمامه بابا جديدا للاقتراض من جهة ، ويترك له الوقت من الجهة الأخرى فى تدبير وسيلة للخلاص من هذه المراقبة التى غلت يده . وتحت ضغط نوبار باشا أعلن الى المستر ريفرس ولسن فى يوم ٢٣ أغسطس سنة ١٨٧٨ قبوله اقتراحات اللجنة . وفى ٢٨ أغسطس أصدر الأمر العالى المشهور بانشاء وزارة ( يحكم هومعها وبوساطتها وتكون متضامنة فى مسؤوليتها ) وشكل نوبار باشا هذه الوزارة واستعان فيها بالمستر ريفرس ولسن .

ومنذ طلب نوبار باشا الى المستر ريفرس ولسن معاونته فى الوزارة قام الأخير بالمفاوضة لعقد قرض جديد تسد منه الديون السائرة ويسد عجز الميزانية . وقبل أن يوقع عقد القرض أصدر اسماعيل دكريتو ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٧٨ تنزل أعضاء العائلة الخديوية للحكومة بموجبه عن أملاكهم العقارية وقدرها ٤٢٥,٧٢٩ فدانا خلا العقارات ، واعتبرت هذه الأملاك ضامنة للقرض الجديد الذى دعى باسم قرض الدومين أو قرض روتشيلد .

وفى شهر أكتوبر أصبح المستر ولسن وزيرا للمالية والمسيو دبلنبيير وزيرا للأشغال العمومية وألغيت بذلك المراقبة الثنائية على ايرادات الدولة ومصروفاتها على أن تعود اذا عزل هذان الوزيران

الأوربيان من منصبيهما من غير موافقة انكلترا وفرنسا . وجعلت هذه الوزارة المختلطة جل همها أن توفى الديون وأن تتلافى عجز الميزانيـــة . والواقع أن الديون السائرة بلغت مبلغا ضاق دونه القرض الجديد على الرغم من أنه بلغ ثمانية ملايين . وكذلك وقفت الوزارة المختلطة بعـــد ثلاث سنوات من المراقبة المالية موقف الحكومات التى سبقتها وعجزت أن تواجه حرج المركز بخير مما واجهته غيرها من قبل ولجأت الى الضغط والاضطهاد اللذين لجأت اليهما أشد الحـــكومات عسفا واستبدادا . وزاد الموقف حرجا أن رأى وزير المالية الانكليزى الاستغناء عن ألفين وخمسمائة ضابط من غير أن يدفع لهم متأخرات رواتبهم لأكثر من سنة كاملة . هنالك هاجوا وقاموا ، ومن بينهم أحمد عرابى ، فى ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ بمظاهرة خطيرة وأحاطوا بنوبار وولسن وأهانوهما وأوسعوهما ضربا . ولما نمى الخبر الى اسماعيل جاء بنفسه . فلما رآه الضباط وأمرهم بالانصراف لم يعص أمره منهم أحد مما دل على أن له فى تدبير هذه الفتنة يدا . وقد ثبت بعد ذلك أنه كان المدبر لها بالفعل بأن أوعز الى أكثر الضباط اقداما وجرأة بالقيام بها .

وكان من الضباط الذين قاموا بهذه المظاهرة ومن الذين استغنى عنهم ريفرس ولسون عدد غير قليل من المصريين الصميمين . ولعل ذلك هو الذى أدى الى استمرار الحركة فى المستقبل والذى كان نواة الثورة العرابيـــة . فان الموظفين والضباط من الشركس والأتراك والأرمن وغيرهم — ممن كان بيدهم الأمر فكانوا يسومون المصريين الخسف وسوء العذاب — شعروا بفشلهم وبعجزهم

اذا بقيت الخصومة بينهم وبين المصريين قائمة . ثم ان ريفرس ولسن تقدم بسبب آخر أدى الى تحرك العناصر القومية الصميمة فى البلاد . فقد طلب الى الحكومة أن تعلن أن مصر مفلسة كى تعامل معاملة المفلس فى شأن ديونها . هنالك اجتمع نواب البلاد وأعيانها وكبراؤها وموظفوها الدينيون والمدنيون والحربيون وقدموا للخديو برنامجا ماليا يخالف برنامج ولسن محتجين على القول بافلاس مصر . ولم تكن يد اسماعيل بعيدة عن وضع هذا البرنامج . ثم لم يكتف النواب ببرنامجهم الذى تقدموا به ، بل تقدموا كذلك بعرض للخديو يبينون فيه استياءهم من الوزارة لعدم اكتراثها بآرائهم . وانضم الخديو لهذه الحركة وعضدها ، لأنه رأى فيها الوسيلة الوحيدة لعود بعض سلطته اليه بعد أن تقلص ظلها وانتقلت الى أيدى الأجانب . وبلغ من تعضيده اياها أن رفض النواب الارفضاض لما جاء رياض باشا وزير الداخلية يعلن اليهم انتهاء الدورة . وكذلك أصبح هذا المجلس الذى خلقه اسماعيل فى سنة ١٨٨٦ على صورة يوهم بها الدول الأوربية أن مصر أصبحت بالفعل جزءا من أوربا وقد شعر بوجوده وقدر مكانته . فقد احتج فى ٢٩ مارس سنة ١٨٧٥ على الوزارة المختلطة لأنها لم تكن تعترف بوجوده وبمسئوليتها أمامه . وفى ٥ ابريل طلب الى الخديو تعديل قانون الانتخاب واعلان مسئولية الحكومة أمام مجلس النواب . ولم يقف عند ذلك بل احتج على بقاء الوزارة المختلطة وبالتالى على وجود ولسن ودبلنيير فيها . ولم يلبث اسماعيل أن أبلغ هذا الاحتجاج حتى عزل الوزارة وعهد الى شريف باشا بتأليف

الوزارة الجديدة . وفى الشهور الثلاثة التى انقضت بين توليها وخلع اسماعيل بدأت بوضع قانون للانتخاب . كما نشرت فى ٤ يونية لائحة مجلس شورى النواب الأساسية وفيها تقرر الحصانة البرلمانية وتحدد عدد النواب وتنص على المسئولية الوزارية . ومع أن هذه الوزارة كانت جادة فى عملها ومع أنها سبقت هذا التشريع النيابى بتشريع مالى صدر به دكريتو بتاريخ ٢٢ ابريل سنة ١٨٧٩ يكفل للأجانب حقوقهم ويقر المراقبة الثنائية وصندوق الدين فى اختصاصها الواسع فان أوربا بدأت تشعر بأن مصر على وشك انتقال خطير ليس من العسير تقدير مدى نتائجه . وأن خيرا للمصالح الأوربية الوقوف فى سبيله . فبدأت ألمانيا والنمسا بالاحتجاج فى ١٨ مايو على دكريتو ٢٢ ابريل بدعوى أنه مخالف لتعهدات مصر الدولية وألقتا مسئولية هذه المخالفة على الخديو . وفى ٨ يونية احتذت وزارتا باريس ولندرة مثال ألمانيا والنمسا . وقد حاول اسماعيل القضاء على هذه الحركة الدولية فطلب موافقة الدول على الدكريتو ، لكن حركته هذه لم تنجح .

وكانت الدول قد سئمت هذا الصراع الطويل مع اسماعيل . ولعلها كذلك خشيت بعد انضمامه للأمة واظهاره العطف كل العطف على مطالبها ، أن تقوى الحركة القومية المصرية وأن يصبح اسماعيل مثلما كان جده محمد على مكانة وقوة سلطان . لذلك رأت أفضل السياسات أن ينزل عن العرش . لكن اسماعيل لم ينظر الى المسألة هذه النظرة وأراد أن يلجأ الى جلالة سلطان تركيا آملا أن يكون لما قدمه له من طائل الأموال وعظيم التضحيات بعض الأثر . وهنا

خاب فأله ، فقد بعث الباب العالى فى ٢٦ يونيو تلغرافا بعزل اسماعيل عن العرش وبرفع ولده توفيق مكانه . وعلى أثر ذلك أقلع اسماعيل من الاسكندرية قاصدا ايطاليا وقلبه خافق وعيونه هامية بالدمع . وأقام فى ايطاليا زمنا ثم انتقل الى الاستانة اذ أقام بهـا فى قصر « أمر جيان » على شواطىء البوسفور حتى جاء أجله فى ٢ مارس سنة ١٨٩٥ .

* * *

وكم دار بخاطره فى هذه السنوات الأربع عشرة التى انقضت بين عزله وأجله أن يعود الى نضال يسترد به عرشه . وكان أول ما صنع من ذلك أن بعث الى السلطان بالآستانة على أثر وصوله الى نابولى رسالة حارة يذكر له فيها ما أجرى من عظيم الاصلاح فى وادى النيل وما قام به من فتح السودان الى خط الاستواء حيث خفقت الراية العثمانية من تلك الانحاء فى ربوع لم تخفق من قبل قط عليها . لكن السلطان لم يعبأ بخطابه ولا أجابه عنه . بل نسى كل ماضى اسماعيل وما أغدقه على الآستانة ورجالها من مال وأنعم . وما باله يعبأ به وقد أصبح لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا يملك لمتبوعه العظيم رشوة ولا هدية . وأصحاب العروش لا يعنون الا بصاحب القوة ما داموا يهابون قوته ويطعمون فى خيره ومعونته . ونال ذلك من نفس اسماعيل ولكنه حملها على الصبر حتى كانت الثورة العرابية فى مصر . هنالك حز الألم فى نفسه وأذكر أنه لم يفكر فى مقاومة كالتى قاومها اليوم هؤلاء المصريون الأبطال . ولو أنه قاوم فربما كان له من الأقدار عون يستبقى نجمه عاليا .

أما ولم يفعل فليس له أن يرجو من الأقدار مددا وهى لاتمد الضعيف أو الخائف وانما تحارب فى صف الشجاع المقدام .

ومنذ دخل الانكليز مصر محتلين خيم اليأس على كل آماله فى استعادة ملكه . فظل فى ايطاليا حتى انتقل الى الآستانة ليلقى فيها منيته وليكون فيها أسير عطف الأتراك الذين طالما تمتعوا بما أغدقه عليهم من مدد ومال أيام ولايته .

# الخديوى توفيق باشا

ثلاثة عشر عاما تولى فيها توفيق أمر مصر كان خلالها فى زهرة شبابه بين السابعة والعشرين والأربعين . لكنه كان فيها كذلك بين عوامل لا يستطيع مدافعتها والتغلب عليها الا نابغة محنك . كان فيها بين تركيا الناقمة لضعف سلطانها فى مصر . وانكلترا الطامحة الى بسط نفوذها نهائيا على وادى النيل ، وفرنسا المكتئبة لتقلص مكانتها رويدا رويدا من أرض الفراعنة ، والأمة المصرية المثقلة بديون اسماعيل باشا وظلم حكامها والمتأججة نفوس أهلها بالثورة طمعا فى الاستقلال والدستور . وهو بين هذه العوامل رجل يشعر بضعة أمومته ويحقد أهله عليه ، ويود لو أنه كان فى مكانة أبيه بطشا وسلطانا ، ويخضع للأقدار التى لم تهبه من سعة الذكاء ماوهبت غيره ،ولتربيته الشرقية البحتة التى اقتضت أن لايغادر مصر وأن لايتصل بالمدنية الأوربية اتصال اخوته ، وللظروف التى جعلت تتقاذفه منذ ارتقى عرش أبيه فتصدمه بكل واحد من العوامل المحيطة به ، لينتهى به الأمر الى أن يكون فى تاريخ مصر صورة غير محبوبة ، ولا ممقوتة ، صورة مرت فى هذا التاريخ فكان أثرها فيه سلبيا ، هو أثر العاجز عن أن يقوم لبلاده أو لنفسه بخير . وليودع العالم فى الأربعين من عمره فيلقى بمصائر مصر بين يدىّ ولى عهده الفتى عباس وما يزال فى الثامنة عشرة من عمره .

* * *

ولد توفيق باشا فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٥٢ ثمرة لبرهة هوى من اسماعيل مع احدى جواريه التى لم تنل منه الا حظوة قصيرة ولم تكن له زوجا . ولم يكن اسماعيل يومئذ وارثا لعرش سعيد أن كان أحمد أكبر الأسرة ما يزال حيا . لذلك لم يلفت مولد توفيق نظر أحد الا ما كان من زراية أميرات العائلة المالكة لأمه . فلما حصل اسماعيل على فرمان وراثة العرش للولد الأكبر انقلبت الزراية للأم حقدا على الابن . وشارك اسماعيل أهله فى عدم عطفهم على توفيق وان لم يبلغ ذلك من نفسه مبلغ حقده على حليم باشا وارث عرشه على النظام القديم . وثبت عدم عطفه على توفيق وعدم رعايته اياه فى عزمه على أن يكون عرشه لحسين من بعده . وقد كان يستطيع ذلك اعتمادا على أمومة توفيق أو بالتخلص منه كما كان يفعل ملوك ذلك العصر فى تركيا . لكنه لم يكن يتعجل النظر فى أمر لم يكن فى حسبانه وقوعه قبل زمان طويل . وكفاه وجود توفيق بمعزل عنه فى قصر له مقتصرا على ادارة أراضيه .

على أن عزلة توفيق وعدم اغداق أبيه أسباب الرضا عليه جعلته ينظر الى ما صنع أبوه من استدانة ومن ارهاق للمزارعين والفلاحين ومن بطش بالناس جميعا نظرة مصرى لا نظرة ولى عهد . لذلك اتصل بطائفة من الناقمين على الحال التى آلت مصر اليها ، أمثال السيد جمال الدين الافغانى واللقانى والشيخ محمد عبده ومن كان يلوذ بهم من أمثال عرابى ، وانخرط فى سلك الماسونية الذى انخرطوا فيه . فلما اضطر اسماعيل تحت ضغط الدائنين الى أن يعين نوبار باشا رئيسا للوزارة المسئولة الأولى وأن يضم اليه مستر ريفرس

ولسن ومسيو دبلنيير ، الأول وزيرا للمالية والثانى وزيرا للأشغال، ثم لما رأى أن الحال المالية فى البلاد تزداد كل يوم سوءا برغم ما تنزل عنه من سلطته ومن أملاكه ، ورأى الشعور العام ضد التدخل الأجنبى يزداد فى البلاد كلها ، خلع نوبار من الوزارة واتفق مع فرنسا وانجلترا على تعيين ولى عهده توفيق باشا رئيسا للحكومة . على أن ولى العهد كان يعلم دقة الموقف كما يعلم بنوع خاص تهيج الشعور العام بازاء ما كان يعتزمه السير ريفرس ولسن كعضو فى لجنة التحقيق الدولية من اعلان افلاس مصر . لذلك لم يجد الوزيران الاوربيان من رئيس الوزارة الجديدة مؤيدا قويا لهما . وعلى أثر اعلان وزير المالية تأجيل دفع الفوائد المستحقة للدائنين فى شهر ابريل تقدمت عريضة من العلماء والوجهاء والنواب ورجال الجيش يحتج فيها مقدموها على هذا التصرف ويطلبون الى الخديو أن يلجأ الى نوابه للخروج من المأزق ، وعلى ذلك استقالت وزارة توفيق من غير أن تفعل شيئا . وكلف اسماعيل شريف باشا بتأليف وزارة تكون مسئولة حقيقة أمام برلمان تنظم حقوقه وطرق الانتخاب له بحيث يستطيع أن يقوم بما تقتضيه الاحوال وأن يحقق الأمانى القومية .

وكان ذلك هو الانقلاب الحكومى الذى أريد به القضاء على سلطة المراقبين وعلى تدخل الاجانب فى الادارة المصرية ، والذى انتهى بتركيا الى عزل اسماعيل باشا فى ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ والى ارسال برقية فى اليوم نفسه الى توفيق باشا تعلن فيها اسناد منصب الخديوية المصرية الى جنابه ويختتمها وزير تركيا بقوله « والأمر والفرمان فى كل حال لمن له الأمر أفندم » .

كانت هذه الضربة الحاسمة غير المنتظرة من جانب تركيا منبهة لكل من يعنيهم أمر مصر وكل من لهم مصالح فيها لكى يقفوا على حذر • ومع أن توفيق باشا فوجىء بالخبر وفزع له حتى لقد قابل موظف قصره الذى أبلغه اليه أسوأ مقابلة بأن صفعه . فانه شعر من ذلك الحين بأن التركة التى آلت اليه أعباؤها تركة مبهظة مخوفة • ترى ماذا عساه يصنع بازاء أبيه . وبازاء تركيا . وبازاء الدول وتدخلها فى شؤون مصر . وبازاء الامة المصرية المتوثبة للحركة بل للثورة ؟ •

أما اسماعيل فأيقن أن لا مفر له من الانحناء لعاصفة لم يكن يستطيع مواجهتها وان لم ينقطع رجاؤه فى العود يوما ما الى هذا العرش الذى انتزع منه اغتصابا • لذلك قابل الصدمة بكل ما يستطيع رجل فى عظمته وفى قوته أن يواجهها به . وأظهر من العطف على ولى عهده ما لم يكن له من قبل به عهد • وفى الأيام التى انقضت ما بين نبوؤ توفيق عرش أبيه وسفر اسماعيل من بلاد عزيزة عليه كانت عواطف الابوة والبنوة بينهما كخير ما يمكن أن تكون فى مثل هذا الظرف العصيب •

اطمأن توفيق اذن من هذه الناحية • ولقد أظهر من عواطف البنوة ما دفعه للتنزل عن عشرين ألف جنيه من مرتباته السنوية لأبيه كى تبلغ مرتباته خمسين ألف جنيه • ولمناسبة رفع مرتبات البيت الخديو اليه أراد فى نفس الوقت أن يظهر للأمة حرصه على مصلحتها ومشاركتها اياها فى متاعبها المالية فأمر بالغاء الراتب المعين لوالدته وحرمه وقدرهما خمسة وخمسون ألف جنيه •

بعد ارتقاء توفيق العرش جعلت تركيا تفكر فى الاستفادة

من الانقلاب بأن تسترد ما كسبته مصر بفرمان سنة ١٨٧٣ الذى جعلها مستقلة استقلالا داخليا تاما فيما عدا سك العملة ودفع الجزية • وقد أثار هذا الخبر فى مصر قلقا غير قليل • على أن فرنسا وانجلترا عارضتا الباب العالى فيما أظهره من عزمه وأنبأتا ممثليهما فى مصر بأنهما معتزمتان فيما اذا لم يقرر السلطان أحكام فرمان سنة ١٨٧٣ فى الفرمان الذى يوجهه الى الخديو توفيق أن تطلبا الاستقلال التام لمصر • وقد اختلف فى الأسباب التى دعت تركيا الى هذا التصرف : أهى كانت تريد بالفعل الغاء الحقوق والامتيازات التى حصلت عليها مصر أثناء ولاية اسماعيل باشا ؟ أم هى كانت تتذرع بالمطل والتسويف للحصول على مبلغ من المال بدليل أنها قطعت فى ذلك الوقت حوالة على مصر أبت الحكومة المصرية قبولها بسبب ارتباكها المالى؟ على أن هذا التسويف طوع لفرنسا ولانكلترا أن تتدخلا وأن تطالبا الباب العالى بابلاغهما فرمان تولية الخديو كوثيقة دولية وأن تثبتا بذلك حقوقهما فى التدخل فى شؤون مصر للمحافظة على حقوقها بازاء تركيا استنادا على ما كان من تدخلهما للمحافظة على مصالح رعاياهما الدائنين للحكومة المصرية • وكان من أثر ذلك أن شعر توفيق بما للدولتين من فضل عليه بسبب محافظتهما على حقوقه وحقوق البلاد التى ولى عرشها •

ولم يصل الفرمان بتولية الخديو الجديد الا بعد شهرين من ارتقائه عرش أبيه • أى فى ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ •

خلال هذين الشهرين كانت خطة توفيق غامضة ما تزال • فهو حين ارتقى العرش كان فى زمرة الماسون الذين يناصرون الحرية والعدالة • لذلك وجه خطابه الى شريف باشا لتشكيل الوزارة

الأولى فى عهـــده مقدرا للأمـــة معتمدا عليها ذاكرا « انى عظيم الميل لبلادى شديد الرغبة فى تحقيق آمال الأمة التى أظهرت السرور بولايتى عازم عزما أكيدا على التماس أحسن الوســائل لازالة الاختلال المفسد لكثير من المصالح ... الا أن ادراكى لهذه الغاية التى هى موضوع آمالى يتوقف على مساعدة الأمة بجملتها » . وتحقيقا لهذه السياسة تألفت لجان من الاوربيين غايتها تقـديم العرائض الى قناصلهم يلتمسون بها من دولهم منع تدخل الاجانب فى أحوال مصر وقصر النظر فيها على الوطنيين . ثم أن توفيق باشا تحدث فى ذلك الظرف الى مكاتب التيمس فأشار بادىء ذى بدء الى أنه لا يبرح مقيد اليد فى العمل حتى يرد الفرمان بتعيينه . لكنه مع ذلك صرح للمكاتب بأنه لا يريد الرجوع الى تعيين وزراء أوربيين بل ينبغى أن تكون الوزارة مصرية وطنية يصـــح أن يعاونها رجال من الاوربيين فى الادارات على أن يكونوا موظفين مصريين لا أكثر . أما سير ريفرس ولسن ومسيو دبلنيير شخصيا فقد صرح توفيق بأنه يعارض أشد المعارضة فى رجوعهما أيا كانت صفتهما ، لأن رجوعهما يكون مخالفا لمصلحة مصر على خـط مستقيم . وطلب الخديو الى الدول فى حديثه هذا أن تمهله بضعة أعوام « فنحن فى مقام الامتحان فلا يحسن بأوربا أن تمسك على وعلى مصر طريق النجاح » .

وكان من أثر هذه الخطة وتلك التصريحات أن هدأت أعصاب المصريين التى كانت متوترة فى الأيام الأخيرة من عهد اسماعيل . فعلى الرغم من عزل الحكومة عشرة آلاف من الجنـــد المجتمعين تحت الســـلاح وانقاص الجيش العامل الى اثنى عشر ألفا وتأخير

صرف مرتبات الكثيرين ، أمسك الرجاء بالنـاس عن أن يلجأوا للهياج • لكن نيات توفيق باشا الديمقراطية لم تلبث الى أكثر من وصول الفرمان بتثبيته على عرشه • ففى مساء اليوم الذى عاد فيه مندوب السلطان الذى كان يحمل هذا الفرمان قافلا الى تركيا بعد حفـلة تلاوته أقيلت وزارة شريف باشا وألف توفيق باشا وزارة تحت رياسته مباشرة • والحجة التى روجت تسويغا لهذا التصرف انما هى ارادة الخديو تعجيل الاصـلاح • أما الحقيقة فعدم رضا توفيق عن ميول شريف باشا الدستورية • ففى الخطاب الذى أرسل به الخديو الى كل من وزرائه الجدد معنى قصده العودة الى حكومة الفرد • فيه تكليف لكل من النظار أن يحضر أوراق شؤون وزارته ومعلوماتها عند حضوره الى المجلس لعرضها • على أن توفيق كان يشعر بأن الأمة لا يمكن أن ترضى عن هذه الحال • لذلك بعث بتلغراف الى رياض باشا الذى كان متغيبا هو ونوبار باشا، أوقل منفيين فى أوربا ، يستقدمه اليه لعلمه بعدم ميل هذا الوزير الى حياة الشورى • فلما حضر فى أوائل سبتمبر عهد اليه بتشكيل الوزارة وقطـع على نفسه العهـد باحترام ارادة ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٩ التى قررت مبدأ مسئولية الوزارة وتضامنها • وبعد ثلاثة أشهر من استقرار هذه الوزارة فى مناصبها زار توفيق ، جريا على سنة أسلافه ، أنحاء ملكه فى الوجهين القبلى والبحرى وقضى فيهما أشهرا وعاد منهما فى أوائل مايو سنة ١٨٨٠ •

وكان الهدوء شاملا أنحاء مصر فى هـذه الفترة • لكنه كان هدوء تربص وانتظار • ذلك بأن المسألة الشائكة التى انتهت بعزل اسماعيل كانت تحت البحث منذ أول ولاية توفيق وكانت لاتؤذن

بخير كثير • فعلى الرغم مما أعلنه الخديو لمكاتب التيمس من المعارضة في دعوة ولسن ودبلنيير بعد فشل سياستهما المالية في مصر لم تر الحكومة الفرنسية بعد اتفاقها مع حكومة مصر على اعادة المراقبين أن يعين أحد غير مسيو دبلنيير • أما الحكومة البريطانية فأشارت بتعيين السير بارنج ( لورد كرومر ) • وتم تعيين المراقبين في ٩ سبتمبر سنة ١٨٧٩ وباشرا عمليهما وانتهيا بتقديم تقرير الى الخديو في أواخر عام تعيينهما يقترحان فيه تعيين لجنة تصفية للدين المصرى كله • وبعد محادثات بين الدول صاحبات الشأن تعينت اللجنة في ٣١ مارس برياسة السير ريفرس ولسن وتعهدت الدول بقبول قراراتها • واذن فقد رأى توفيق نفسه بازاء حالة كان يراها أول جلوسه على العرش مخالفة لمصلحة مصر على خط مستقيم من غير أن يستطيع لها نقضا •

وقدمت لجنة التصفية تقريرها في ١٧ يوليو سنة ١٨٨٠ فأصدره الخديو فورا وأطلق عليه اسم قانون التصفية • وعلى موجب هذا القانون بلغ دين مصر ٩٨,٧٤٨,٩٣٠ جنيها • وقد روعيت في هذا القانون ، كما روعيت في كل تصرفات ممثلى الدول الأجنبية مصالح الدائنين الأجانب على حساب نظام الحكم في مصر • وبالرغم مما كان يعلمه المراقبون وغير المراقبين من أن أكثر من نصف هذا الدين لم يدفع الى مصر لم يفكر أحد في الزام الدائنين بالتنزل عن شيء من الديون الاسمية التي كانوا يقتضونها من مال المصريين ومن دمائهم • ولما كان تدخل الأجانب مثيرا لعواطف المصريين في عهد اسماعيل فقد بدأت هذه العواطف تثور من جديد بعد هدأة التربص وبدأت العاصفة تتكور في الجو لتؤذن بالانفجار عما قريب •

وبدأت نذر الانفجار بما كان من تبرم رجال الجيش تبرما سببه امتهان العنصر المصرى فيه لمصلحة الأجانب من الأتراك والجراكسة • فلما سرح اسماعيل باشا فى أواخر أيامه ألفين وخمسمائة من الضباط أكثرهم مصريون كان اخوانهم يشعرون بالألم من أجلهم ويخشون أن يصيبهم مثل نصيبهم • على أن ارتقاء توفيق الى العرش استيزاره شريف باشا هدأ الحالة زمنا • فقد ظن الناس أنهم حاصلون على هيئة نيابية خير من شورى النواب القديم تراقب الحكومة وتمنع تدخل الأجانب وتعيد العدل الى نصابه • فلما عين رياض باشا وعين معه فى وزارة الحربية شركسى قح هو عثمان رفقى ، يمقت المصريين ويمتهنهم ، ولما تكشفت نيات الخديو ووزارته عن العدول عن الحكم النيابى بل عن شورى النواب نفسه ، ثم لما بدىء بتنفيذ قانون التصفية وتبين أن حال مصر المالية لم تفد منه خيرا — لما حدث ذلك كله كان المدنيون وكان رجال الجيش تغلى فى صدورهم مراجل الحقد وتتأجج نفوسهم بنيران الثورة •

وعجيب أن يحدث ذلك كله بأعين توفيق فلا يراه ولا يقدر مداه ، بل يندفع فى التيار العجيب الذى اندفع فيه مخالفا بذلك كل ما أظهره من الميول أو جلوسه على عرش أبيه • فهذا الميل الشديد لتحقيق آمال الأمة وهذا الاعتماد على معاونتها قد انقلب فجأة عقب وصول الفرمان الى اعادة حكومة الفرد ثم الى اسناد الوزارة لنصير قوى من أنصار النظام المطلق • وهذا الحرص على معارضة عودة ولسن ودبلنيير وعلى أن تكون الوزارة مصرية وطنية وهذه الدعوى لانتظار أوربا نجاح السياسة الوطنية الجديدة

قد انقلب فجأة الى قبول هذين الشخصين وغيرهما من الأشخاص والى ترك التدخل الأجنبى يتوغل فى ادارة البلاد • وهذه السياسة المالية التى أخفقت على يد ولسن انقلبت فجأة سياسة الحكومة المصرية ليصدر على موجبها قانون التصفية • وهذه الانقلابات كلها قبلها توفيق راضى النفس مطمئنا • على أن لهذا العجيب فى نظرنا تفسيره الواضح : فتوفيق الضعيف قد رأى ما حل بأبيه حين عارض انكلترا وفرنسا فيجب ألا يعارضها • وانكلترا وفرنسا تريدان هذا النظام فيجب أن يريده • ليتمخض ذلك كله عن انفجار أو عن ثورة أو عما يمكن أن يتمخض عنه . فليس توفيق الضعيف هو الذى يطالب بالتفكير فى هذا • ويكفيه أن يعتمد فى بقائه فى عرشه على سند الدولتين اللتين استخلصتا له من تركيا فرمان توليته •

وكان يسيرا أن يرى توفيق نذر الانفجار آتية من ناحية رجال الجيش • ذلك بأنه فضلا عن تسريح ألوف من الجند ومئات من الضباط فى آخر عهد اسماعيل وبالرغم من تسريح عشرة آلاف جندى أول ولايته ، فان تنفيذ قانون التصفية أسفر عن عجز الميزانية اللازمة لنفقات الدولة فى سنة ١٨٨١ عجزا بلغ مقداره ١٦١٠٠٠ جنيه بينما كان متوفرا فى صندوق الدين بعد دفع الفوائد مبلغ ٨١٣٠٠٠ جنيه أنفقت فى استهلاك السندات بدلا من أن يسدد منها ذلك العجز • وقد ترتب على هذا أن بقى كثيرون من الموظفين ، ومن بينهم رجال الجيش ، لايتقاضون مرتباتهم • أضف الى هذا أن رفقى باشا ناظر الحربية أصدر لائحة مقتضاها عدم ترقية المصريين الى الدرجات التى يستحقونها ، بينما يرقى الجراكسة

الى أكثر مما يستحقون . ولما كان للضباط المصريين جماعة سرية بين أعضائها أحمد عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى وكانوا قد قدموا لرياض باشا طلبات بالاصلاح منذ شهر مايو سنة ١٨٨١ لم تنظر الحكومة فيها ، فقد قرر هؤلاء دفع آلايات الجيش للاحتجاج على تصرفات رفقى باشا وعلى المطالبة بعزله . ورفعت بالفعل عريضة للخديو متضمنة هذا الاحتجاج .

وكان محمود باشا سامى البارودى وزير الأوقاف فى وزارة رياض على اتصال بهؤلاء الضباط . لذلك تيسر لهم أن علموا بعد احتجاج الجيش أن الحكومة تريد محاكمة الثلاثة الذين ذكرنا أسماءهم وانها أمرتهم بالذهاب الى قشلاقات قصر النيل فى أول فبراير سنة ١٨٨١ لتقبض بعد ذلك عليهم . فما كادوا يذهبون وما كاد يقبض عليهم ويجردون من رتبهم ويسجنون حتى كانت آلاياتهم قد حضرت وأنقذتهم من سجنهم بقوة السلاح .

وسار الضباط الثلاثة على رأس آلاياتهم من قصر النيل الى عابدين وهناك وقف عرابى بين الجند خطيبا فشكرهم على اخلاصهم له وانقاذهم اياه . ثم تقدم الى الخديو يطلب العفو عنه وعن زملائه ، وخلع عثمان رفقى من نظارة الحربية ، وأردف عبارته هذه بقوله : أنهم لايبرحون الا بنيل بغيتهم . ولما كان توفيق قد رأى كل الأوامر التى أصدرها الى ضباط الجند لاتنفذ ورأى نفسه فى مأزق لا يعرف سبيلا الى النجاة منه سارع الى اجابة طلب العصاة وأقال عثمان رفقى من الحربية وعين مكانه صديق الضباط المنتقضين محمود سامى البارودى .

ولو أن توفيقا كانت له سياسة معينة يومئذ لما وقع حادث قصر

النيل . لكنه كان مضطرب الرأى والسياسة جميعا لأنه كان يشعر ، كما قدمنا ، بأن سنده الأخير ليس تركيا وليس الأمة المصرية مادام حليم باشا وارث العرش على النظام القديم مقيما فى الآستانة يدس لالغاء وراثة الابن ويعاونه أنصار من الساسة والأميرات . وما دام هو لايريد أن يعتمد على الأمـة أو ينيلها شيئا من الحقوق التى تشعرها بكيانها . على أن حادث قصر النيل لم يكف توفيقا درسا فى وجوب تحديد سياسة يسير عليها لكيلا يكون دائما معرضا للتصادم مع القوى المختلفة المحيطة به . فمع شـعوره بأن أباه اضطر للاستعانة بالأمة ولو استعانة صـورية ممثلة فى مجلس شورى النواب فقد ظل حفيظا على مبدأ الحكومة المطلقة . ثم أنه الى جانب هذا كان قد بدأ يتخوف رياضا لقوته وشدة سلطانه على الرغم من مشاركة رياض اياه فى تأييد النظام المطلق . لذلك بدأت الوزارة تضعف شيئا فشيئا على حـين بدأ المتمردون من رجال الجيش يزدادون قوة على أثر انتصار يوم قصر النيل وينضم اليهم كثيرون من غير العسـكريين ويجاهرون جميعا بضرورة تشكيل مجلس النواب . وكان سامى البارودى من أصحاب هذا الرأى ومن أقـوى المحركين لعرابى ومن معـه ، بل كان هو روح الحركة ومحورها .

وبرغم ضعف الوزارة وشعور الخديو بمعارضة عنصر قوى فى البلاد لها فانه أراد أن يقاوم هذه المعارضة بالشدة . لذلك عمد الى عزل سامى البارودى من وزارة الحربية والى تعيين صهره داود باشا يكن مكانه . وأراد داود باشا قمع الحركة فأمر بمنع اجتماع الضباط وبث عليهم الأرصاد والعيون . ولما عاد الخديو

من الاسكندرية أمر الوزير الجديد باجراء تنقلات بين الآلايات شعر معها عرابى وأصحابه بأن المراد تشتيتهم للتنكيل بهم بعد ذلك ، فرفضوا تنفيذ الأمر وأبلغوا الخديو بأن الجيش سيحضر بتمامه الى عابدين لابداء اقتراحات تتعلق بنظام الحكم فى البلاد وبشؤون الجيش وتحسين حاله .

ترى ماذا يفعل توفيق بازاء هذه الحركة وهى حركة تمرد عسكرى صريح ؟ أتراه يترك الأمر لوزارته فيصرح أن عليها حفظ النظام والأمن ؟ أتراه يدعو اليه كبار رجال الدولة وأعيانها فى مجلس عام لينظر فى الأمر ؟ أتراه يأمر بتجريد المتمردين من رتبهم وألقابهم لكيلا يكون لوزارته ولا لغيرها من رجال البلاد عليه فضل ويقف صلبا ينتظر النتائج كائنة ما تكون ؟ كلا ! فهذه كلها حلول تحتاج الى عزيمة والى قوة جنان والى شعور بالمسئولية واستعداد لمجابهة الخطر وجها لوجه . وتوفيق الضعيف لايملك شيئا من هذا . لذلك عمد الى وسيلة عجيبة لايعمد اليها سياسى : أخذ وزراءه وتوجه بهم الى حيث تعسكر الآلايات المتمردين يحقق معهم ويستعطفهم . ثم ذهب بنفسه الى القلعة حيث آلاى عرابى ليرجوه أن لا يفعل ما اعتزم فعله . لكنه وجد عرابى قد سبقه الى عابدين فعاد هو الآخر أدراجه اليها .

وهناك فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ قام عرابى على رأس الجيش ممتطيا جواده مستلا سيفه ووقف توفيق فى شرفة عابدين يحيط به وزراؤه وقناصل الدول .

وبأمر توفيق أغمد عرابى سيفه وتقدم بمطالبه ، وهى اسقاط الوزارة وتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد الجيش والتصديق على

قانون العسكرية الجديد وعزل شيخ الاسلام • وربما كان التصديق على قانون العسكرية أهم مطالب الجند • وربما اكتفوا به لو أن الخديو أجابهم فورا اليه وأمرهم بالانصراف لكى تنظر حكومته فيما عدا ذلك من المطالب • لكن الخديو اضطرب لساعته ورفض الطلبات جميعا مواجها خطر النداء بعزله واعلان الجمهورية فى مصر على نحو ما كان يدور برأس عرابى وأصحابه • لكن وزراءه وقناصل الدول أشاروا على الخديو بالعود الى داخل السراى خشية أن تعجل مواجهة ما بين الرجلين الحوادث • وصار مستر كولفن القائم بعمل المراقب الانكليزى وقنصلا انجلترا والنمسا رسلا بين الخديو وعرابى • وتصلب عرابى التصلب كله وأشار بعض الحاضرين على الخديو ، ومن بينهم مستر كلفن ، أن يتشبث بالرفض • مؤكدين أن لن يصل رجال الجيش الى أكثر من المظاهرة التى قاموا بها • لكن الخديو أوصله ضعفه وعدم احتياطه الى التسليم فسقطت وزارة رياض لساعتها ووعد الخديو بتنفيذ باقى المطالب بالتدريج ، ودعا اليه شريف باشا كى يشكل الوزارة الجديدة • ورفض شريف بسبب ما أمامه من المصاعب وأخصها تمرد الجيش وعدم طاعته الأوامر • فلما أظهر عرابى استعداده ورجاله للامتثال وللطاعة ، ولما جاء عمد البلاد فكفلوا عرابى فيما قاله ، ثم لما استشار شريف حكومة تركيا وحكومات انجلترا وفرنسا وكفل معاونتهم جميعا ، بعد كل هذا شكل الوزارة وأمر الضباط الثلاثة بأن يتفرقوا فى أنحاء مختلفة من القطر وبعث بعرابى الى رأس الوادى وباشر الحكم فى حزم واناة كانت البلاد يومئذ بحاجة أشد الحاجة اليهما •

وآنس توفيق نفسه فى عزلة بعد ما أذعن الى الاستعانة بشريف الذى كان قد أقصاه عن الحكم يوم طمع فى الحكم المطلق على أثر وصول الفرمان بتثبيته فى عرشه . وأحسبه هذه المرة كان يود أن تطول عزلته وأن تظل الحكومة عاملة والأمن مستتبا وأن تجرى الأشياء فى نصابها فلا تزعجه العسكرية ولا غير العسكرية مرة أخرى . لكنه لم يلبث الا قليلا حتى علم أن الباب العالى أرسل وفدا برياسة على نظامى باشا . ترى ماهى مهمة الوفد ؟ الخديو لا يعلم ، وفرنسا وانجلترا لا تعلمان ، والوزارة العثمانية نفسها لا تعلم . لقد أرسله أمير المؤمنين بارادة شاهانية ، فماذا عسى أن تكون هذه الارادة ؟ ونزل الوفد مصر فى ١٠ اكتوبر سنة ١٨٨١ بعد ما احتجت انجلترا وفرنسا على تركيا لارسالها اياه من غير اتفاق معهما ولا مجرد اخطار لهما . وجاء الوفد واحتفل الخديو به وأقام بمصر سبعة عشر يوما وعاد ادراجه ، وكان كل ما فعل أن أكد للخديو ثقة المتبوع الأعظم به وأن أكد للجيش المصرى فى حديث دار بين نظامى باشا وطلبة عصمت بمسمع من الجند أن حكومة الباب العالى لا تلوم الجند على ما فعلوا وانها ترى مصر فى طمأنينة وسكينة .

بازاء تصرف الوفد شعر توفيق كأن الدسائس التى كانت تحاك له خيوطها على ضفاف البسفور بمعرفة حليم باشا تعاونه الاميرات قد آتت ثمراتها . وانه لولا تأييد انكلترا وفرنسا اياه لكان معرضا الحقوق المكسوبة لمصر . فليزدد توفيق اذن اعتمادا على فرنسا وعلى انكلترا ، وليخش فى نفس الوقت تدخلهما ، وليضطرب لمثل ما تعرض له أبوه من قبل . ومن يدرى ؟ فقد يكون حليم باشا قبل أن تسترد تركيا فى فرمان توليته ما شاءت أن تسترده من

لذلك بين مختلف العوامل ، وليترك وزارته تجاهد وحدها للخلاص من حرج الموقف .

ودعت الوزارة لانتخاب مجلس شورى النواب كى تعرض عليه القانون النظامى لمجلس النواب . وافتتحه توفيق بخطاب عرش ألقى فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ ورد عليه سلطان باشا رئيس المجلس ، وعرضت الوزارة القانون النظامى فاختلف المجلس معها فى أمر نظر الميزانية . ذلك أن الحكومة كانت ترى احتراما للاتفاقات التى تمت بين الحكومة المصرية والدول الأجنبية أن يكون الأمر الأخير فى الميزانية للوزارة مع مراعاة ارادة النواب قدر المستطاع فى حدود هذه الاتفاقات . أما النواب فكانوا يريدون أن يكون رأيهم الأخير أو يسار على القاعدة الدستورية من حل المجلس أو سقوط الوزارة . ولم يمكن التوفيق بين الرأيين ، فكان ذلك سببا فى استقالة وزارة شريف باشا بتاريخ ٤ فبراير سنة ١٨٨٢ وحلول وزارة محمود باشا سامى البارودى محلها مع تعيين عرابى باشا وزيرا للحربية فيها .

وفى أثناء قيام الخلاف بين وزارة شريف باشا ومجلس شورى النواب أرسلت الحكومتان الفرنسية والانكليزية مذكرة مشتركة الى الخديو توفيق باشا تؤيدانه فيها فى الخديوية وفقا للفرمانات وتعدان سكينة مصر مما يعنيهما لمصلحة رعاياهما وتعلنان استعدادهما لدفع ما يطرأ على الحكومة الخديوية من الأخطار . وكان منتظرا أن تحدث هذه المذكرة من الأثر ما يضعف تمرد المتمردين . على ان تركيا احتجت على الدولتين لتخطيهما اياها ومخاطبتهما الخديو مباشرة ، كما علم العرابيون ان انكلترا أبلغت فرنسا أنها برغم هذه المذكرة تعتبر نفسها حرة فى الخطة التى تتخذها تنفيذا لمقاصدها .

وقوى ذلك من ساعدهم وجعلهم أقل اكتراثا للحوادث وتقديرا لنتائجها • والواقع أن فكرة الثورة التى بدأها الجيش كانت قد انتشرت فى أنحاء البلاد جميعا وان قمع تيار هذه الروح كان قد اصبح متعذرا • وبخاصة مع وجود رئيس للدولة ضعيف ضعف توفيق •

واستمر مجلس النواب ينعقد الى ٢٦ مارس سنة ١٨٨٢ حين صدر الأمر بانفضاض دوره العادى •

وفى أعقاب انفضاض المجلس نظر عرابى الى ما حوله موجسا خيفة مما يدبر خصومه له • ولم تك الا أيام حتى صدرت أوامر الحكومة بالقبض على عشرات الجراكسة ومن بينهم عثمان باشا رفقى بتهمة ائتمارهم به وبزملائه وبالنظام الذى أقاموه ومحاكمتهم أمام مجلس حربى والحكم عليهم بالنفى الى أقاصى السودان • وكان عرابى ومن معه مقتنعين بأن الخديو هو المحرض على هذه المؤامرة • وزادهم اقتناعا رفض الخديو التصديق على حكم المجلس الحربى • وعلى ذلك استعر الخلاف بين الخديو والوزارة • يصر الوزراء على تنفيذ حكم المجلس ويعترضه رئيس الدولة • وأدى ذلك الى تخوف فرنسا وانجلترا على الرعايا الأجانب فى مصر ، فقرروا ارسال بوارج الى المياه المصرية للمحافظة على حياتهم ومصالحهم • وأعلنت فرنسا وانجلترا جميعا حرصهما على تأييد الخديو فى مركزه وفى ذلك اشارة الى ما كانتا تتوقعانه من وصول عرابى وأصحابه الى استصدار قرار من النواب بعزله •

ولما اشتد الخلاف بين الوزارة والخديو دعت الوزارة الهيئة النيابية للاجتماع وتوسط سلطان باشا رئيس المجلس وجماعة من كبار النواب معه يريدون الوصول الى حل لهذا الخلاف • وكان

من الحلول التى قبلها الخديو أن يقال سامى البارودى من رياسة الوزارة وأن يحل محله مصطفى باشا فهمى • لكن مصطفى باشا أبى • وبينما الحادثات دائرة بين النواب والخديو والوزارة كانت البوارج الانكليزية والفرنسية قد وصلت الى المياه المصرية وأعقبتها الدولتان ببلاغ وجهه قنصلاهما فى ٢٥ مايو الى الخديو يطلبان فيه سقوط الوزارة بتمامها وخروج عرابى من القطر المصرى مع ضمان الدولتين رتبه ومرتباته ونياشينه واقامة على فهمى وعبد العال حلمى فى الأرياف واصدار الخديو بعد ذلك عفوا عاما عن جميع من كانت لهم يد فى المسألة •

وأبلغ الخديو وزراءه هذا الانذار ، فرفضوه بحجة أن ليس للدول شأن فى مخابرة مصر الا عن طريق الاستانة • على أن الخديو أظهر رضاه عن الانذار فاستقالت الوزارة محتجة وقبل الخديو استقالتها ودعا شريف باشا لتشكيل وزارة جديدة • لكن شريف باشا رأى الموقف لا يطاق فاعتذر كما اعتذر عمر باشا لطفى • وفى هذه الأثناء أوفد الباب العالى درويش باشا معتمدا سلطانيا لينظر فى الخلاف بين الخديو ووزرائه بل والعرابيين جميعا ، فان هؤلاء كانوا قد انتهوا الى ضرورة خلع الخديو وتولية البرنس حليم مكانه • وكانوا يطمعون فى نجاح هذه السياسة لعلمهم أن تركيا تؤيدها •

وفى انتظار حل المشاكل وتعيين وزارة جديدة وطنية تفاقم الخطب واضطرب حبل الأمن فاضطر الخديو الى أن يعين عرابى وحده ناظرا للحربية ليتولى أمر الأمن فى البلاد •

ولم يشعر الخديو من جانب المعتمد السلطانى بما يدل على

استعداد تركيا اذا اقتضت الحال للتدخل المسلح ولتأييده فى مركزه برغم العرابيين • لذلك قبل الموقف كما هو وعين وزارة اسماعيل راغب باشا على أن يظل عرابى وزيرا للحربية • وظل توفيق ووزراؤه فى العاصمة وظلت أساطيل الدول فى مياه الاسكندرية وظل الناس يتحدثون فيما يمكن أن تؤول اليه الامور فى زمن قريب • وكان أعجب المواقف يومئذ موقف تركيا • فقد اقترحت انكلترا وفرنسا أن ينعقد بالاستانة مؤتمر دولى للنظر فى حالة مصر واقرارها على صورة من الصور • لكن تركيا رفضت رفضا باتا بدعوى أن الحالة فى مصر عادية وان النظام القائم لا خوف عليه • وفيما الحديث بين الدول فى أمر المؤتمر وانعقاده دائر وقعت فتنة الاسكندرية فى ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ •

وليس يسيرا معرفة الأسباب الحقيقية التى أدت الى هذه الفتنة : أهى كانت حركة فجائية نتيجة تكدس هذا الثغر بالسكان وتزايد الوافدين عليه بسبب الحال غير الطبيعية التى نشأت عن وجود البوارج فى مياهه ؟ أم هى كانت بتدبير سابق من عرابى وأنصاره كما يزعم بعض الكتاب الانكليز مؤيدين زعمهم بأن الحكومة تباطأت فى قمع الذين أثاروا الفتنة وبكثرة عدد قتلى الأجانب على قتلى المصريين زيادة محسوسة ؟ أم هى كانت على العكس من ذلك مدبرة من جانب الانكليز على ما يذهب اليه عرابى وأنصاره مؤيدين رأيهم بأن أمير الاسطول الانكليزى كان مأمورا بالمحافظة على أرواح الرعايا البريطانيين ومصالحهم على خلاف أمير الاسطول الفرنسى الذى كان مكلفا بالمظاهرة البحرية لتأييد سلطة الخديو • ومهما يكن من هذه الفروض فقد وقعت مذابح ١١ يونيو

وحكومة الخديو بالقاهرة فخف توفيق وعرابى والوزراء فى اليوم نفسه وعقدوا مجلسا عسكريا لتحقيق أسباب الفتنة وجعلوا على رأسه عمر باشا لطفى محافظ الاسكندرية الذى اتهمه الانكليز بالتهاون فى قمعها ، وبلغوا من اتهامه أن انسحب المحامى الانكليزى الذى حضر تحقيق المجلس العسكرى بأمر القنصلية البريطانية .

وبقى الخديو وحكومته بالاسكندرية يريدون اعادة الأمن الى نصابه . وكان توفيق يومئذ فى مركز لا يحسد عليه : فهو لم يكن يأمن جانب تركيا ، وكان يعتقد اعتقادا جازما أنها تعارضه وتؤيد المتمردين عليه رجاء الوصول يوما من الأيام الى خلعه واقامة حليم باشا مكانه ، وهو لم يكن يأمن العرابيين لما كان يعتقده من بغضهم اياه واتفاقهم مع السياسة التركية فى التخلص منه . وهو مع اعتماده على تأييد فرنسا وانكلترا كان يخشى أن لاينخطى أمرهما التأييد المعنوى فاذا فوجئا بالأمر الواقع من عزله لم يقوما بعمل لتثبيته فى عرشه . ثم هو لم يكن يثق حتى بالجراكسة من وزرائه ، لأنه شعر بالقوة المصرية تتغلب على كل شىء فى البلاد وتبتلعه .

وتجسم الشعور بهذه القوة القومية فى رأس عرابى وأعوانه حتى دفعهم الى تقوية حصون الاسكندرية استعدادا لدفع الغارة البحرية عليها . ومع أن الدول كانت قد تخطت معارضة تركيا فى عقد مؤتمر الاستانة لحل المسألة المصرية وانعقد المؤتمر فى العاصمة التركية فعلا برياسة لورد فرين سفير انكلترا لدى الباب العالى وكان طبيعيا أن يكف الجميع عن تعقيد المسائل فى مصر حتى يصدر المؤتمر قراره فان تحصين قلاع الاسكندرية استمر ، كما أن الاميرال سيمور الانكليزى أبلغ الخديو بأنه مضطر اذا لم تقف

التحصينات الى ضرب قلاع الاسكندرية بالمدافع . وعلى الرغم من احتجاج ممثلى الدول على بلاغ الاميرال ومن انكار طلبة عصمت الاستمرار فى التحصينات ومن أن تسوية المسألة كانت ممكنة لو أن فرنسا شاركت فى الضغط المعنوى على الحكومة المصرية كى تنتظر قرار مؤتمر الاستانة فان الاميرال سيمور أصر على قراره وقررت وزارة فريسنيه انسحاب الأسطول الفرنسى الى بور سعيد .

ماذا يفعل توفيق ومقامه بسراى رأس التين يجعله معرضا لقنابل مدافع البوارج ؟ لقد طلب اليه المستر كلفن أن ينتقل الى بارجة أمير البحر الانكليزى لأن غرض الأسطول الانكليزى تأييد ملكه . لكن توفيق كان يعلم أن التجاءه وهو أمير هذه البلاد التى تطلق النار عليها الى أساطيل مهاجميها يعرضه لعزل تنفرد انكلترا بالاعتراض عليه بينا تشترك فرنسا والدول الأخرى مع تركيا فى تأييده لما كان لفرنسا من ضلع ظاهر مع العرابيين ومع حليم باشا . لذلك رأى الاستسلام للمقادير وقال لمستر كلفن ما مؤداه :

« انى لا أبرح مكانى ولو وقعت الواقعة وأطلقت المدافع على الاسكندرية ، فان لى من رعيتى قوما أمناء لم يخونونى بل خدمونى بأمانة وصداقة فلا يصح أن أتركهم أوان الشدة لأنجو بنفسى ، ولا يليق بى كذلك أن أترك البلاد فى وقت الحرب فان فى ذلك عارا عظيما » واكتفى بالانتقال هو ودرويش باشا الى قصر الرمل بعيدا عن مرمى المدافع .

وفى صباح ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ أطلقت البوارج الانكليزية مدافعها على حصون الأسكندرية فجاوبت الحصون باطلاق مدافعها على أن الموقعة لم تدم لأكثر من الساعة الحادية عشرة قبل الظهر

اذ صمتت نيران الحصون ودك بعضها دكا وشعر العرابيون بأن ما توهموه من قوتهم على مقاومة البوارج الانكليزية لم يكن الا وهما • على أن ذلك لم يفت فى عضدهم ولم يوهن من عزيمتهم اذ اعتقدوا أنهم يستطيعون أن يعسكروا فى كفر الدوار ليعودوا بعد زمن الى مهاجمة الاسكندرية • وعلى ذلك قرر عرابى ومن معه الانسحاب من الثغر بعد أن أيقنوا من أن الخديو الذى رفض الالتجاء الى بوارج الانكليز قد سر لانتصارهم وأنه لذلك قد صار خصما ظاهرا للثائرين عليهم • وفيما كانت المدينة تحترق بفعل الجماهير الثائرة والعساكر المقيمة مع عرابى عاد الخديو من سراى الرمل حيث كان سجينا تحت أمر رجال عرابى الى سراى رأس التين حيث استقبله الجند الانكليز على بابها وحيث استقبله الأميرال سيمور وعدد من رجاله داخلها •

وكان فى الوقت متسع ما يزال لاخماد نار الفتنة فى مصر لو أن تركيا لم تكن متأثرة بسياسة فرنسا حريصة على تأييد الثائرين • فقد طلب اليها لورد دفرين ، بناء على تعليمات حكومته ، أن تعلن أن عرابى عاص وتؤيد سلطة الخديوى واستعدادها لارسال قوة لقمع العصيان واعادة النظام • لكن تركيا أبت أن تخطو هـذه الخطوة • وطلبت انكلترا الى فرنسا أن تشترك معها فى الدفاع عن قناة السويس ، فأعلن الساسة الفرنسيون أن قناة السويس بمأمن من أن يهدده مهدد • والواقع أن عرابى ومن معه لم يفكر أحد منهم فى تحصين بناحية القنال اعتمادا منهم على حيدته وعلى تأكيد المسيو دلسبس بأن أية قوة محاربة لن تستطيع خرق حياده • ورأت انكلترا بازاء ذلك كله أن الفرصة سانحة لأن تخطو خطوة جديدة

فى وادى النيل بعد خطوتها الأولى التى أتمها دزرائيلى فى سنة ١٨٧٥ بمشترى أسهم القناة التى كانت مملوكة لاسماعيل فقررت التدخل المسلح منفردة • ولم تعبأ بحيدة القناة بل ذهبت أساطيلها المقلة للجيش الذاهب الى مصر قاصدة بور سعيد والاسماعيلية فاحتلتهما من غير أية مقاومة ولا أى احتجاج • وعسكرت القوة الانكليزية يوم ٢٢ أغسطس فى الاسماعيلية • وفى هذا الظرف وبعد فوات الفرصة أعلنت تركيا عصيان عرابى وأيدت توفيقا فى عرشه • لكن توفيقا كان قد انضم الى السياسة الانكليزية وعزل عرابى من نظارة الحربية واعتبره ثائرا • وقامت فى مصر اذ ذاك حكومتان : حكومة توفيق يؤيدها فريق من المصريين وتؤيدها انكلترا ، وحكومة الثورة تخضع لها البلاد كلها • لكن هذه الحكومة الثانية لم يطل أمرها • فقد انهزم عرابى وجنده فى موقعة التل الكبير يوم ١٢ سبتمبر ودخل الانكليز القاهرة فى الخامس عشر من هذا الشهر نفسه •

وعاد توفيق الى عاصمة ملكه فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ يصحبه الدوق أوف كنوت والجنرال ولسلى والسيرادورت مالت • وكان توفيق يظن أن قضاء انكلترا على الثورة باسم تأييد مركزه معناه عوده للحكم وتولى أمور البلاد على ما تجيزه الفرمانات • ولعله لم يخطر بباله أن انتصار انكلترا فى التل الكبير ودخول الجيوش الانكليزية الى عاصمة ملكه قد قدر له أن يكون معناه القضاء على سلطته ، بنقلها من يده الى يد هؤلاء الذين ثبتوه فى عرشه • ولعله لم يخطر بباله أن عوده الى مقر سلطانه محاطا بالأمير وبالقائد وبقنصل انكلترا سينتهى لاريب الى أن تكون الحوادث

العرابية آخر ما خبأ القدر لتوفيق من نشاط . ولئن كان عرابى سيحاكم وسينفى الى سيلان فان ولى عرش مصر لن يكون أعظم من عرابى سلطانا برغم مقامه فى قصوره وسط عاصمة ملكه .

فبرغم تبليغ اللورد دوفرين الباب العالى عقب موقعة التل الكبير أن الحكومة البريطانية تفكر فى سحب جنودها من مصر ما دام النظام قد استتب فيها فان حكومة جلالة الملكة رأت عقب انتصارها على الثوار أن يكون مصير الثوار بيدها لا بيد حكومة الخديو . أليست هى التى تغلبت عليهم وقهرتهم ؟ واذا كان الخديو وأنصاره يرون طبيعيا أن يقضى على عرابى وكل من معه بالاعدام جزاء اخفاقهم فى ثورتهم . فان انكلترا تنظر للأمر نظرة أخرى . ولذلك أبلغ القنصل الانكليزى الخديو أن لا يتصرف فى أمر الثائرين قبل حضور اللورد دوفرين الى مصر . وكانت حكومته قد انتدبته « لينصح الى حكومة الخديو بالوسائل الواجب اتباعها لاعادة سلطة سموه » . وكان أول ما صنعه لورد دوفرين أن طلب الافراج عن المئات الذين اكتظت بهم السجون باعتبارهم ثائرين عدا خمسة هم : عرابى وطلبه ومحمود سامى ومحمود فهمى وعلى فهمى . ومع أن القوانين التركية للمجالس العسكرية لم تكن تبيح حضور محام عن المتهمين فقد جاء محاميان انكليزيان هما مستر نابير ومستر برودلى . وبعد صدور الحكم بالاعدام استبدله الخديو عملا بنصيحة قنصل انكلترا — ونصيحته عند توفيق أمر محترم — بالنفى المؤبد .

وكان لابد لانسحاب الجنود الانكليزية من أن تستريح انكلترا الى انتظام الجيش المصرى انتظاما تطمئن معه الى عدم تهديد الأمن

مرة أخرى ، وأن تطمئن الى شيء آخر هو أن لاتتعرض مصر لغزو دولة أخرى اياها غزوا يعرض قناة السويس الى الخطر .

وغير مرة أعلنت انكلترا استعدادها للجلاء عن مصر وسحب جنودها منها متى اطمأنت الى هذه الغايات . وهذه ثمان وأربعون سنة مضت منذ الاحتلال ولما تهتد الحكومة البريطانية — على الأقل — الى ما يطمئنها على أن لا تغزو مصر دولة أخرى أو أن تتعرض قناة السويس الدولية للخطر .

على أنها رأت فى ذلك التاريخ وبعد مشورة اللورد دفرين أن تنظيم الحكم فى البلاد على قاعدة العدل هو أقرب الوسائل لتحقيق الأغراض التى تريد أن تتحقق لتجلو عن وادى النيل . فأمرت ، استغفر الله ، فنصحت أن يلغى توفيق قانون مجلس النواب ويستبدل به قانون مجلس الشورى والجمعية العمومية وأخذت بيدها مقاليد مالية البلاد ونحت فرنسا قدر المستطاع عنها ودعت الى عقد مؤتمر لاستبدال نظام التصفية بنظام آخر ، وجعلت تتغلغل فى شؤون الحكم شيئا فشيئا حتى وضعت يدها على كل شيء وعلى توفيق من بين ما وضعت يدها عليه .

وسر توفيق بهذه الحال الجديدة واطمأن أشد الاطمئنان لها . بل لقد بلغ من اخلاصه لانكلترا أن كان لا يكتم على ممثلها سرا من أسرار وزارته . روى أحد الذين حضروا ذلك العصر أن رياض باشا اتفق مع زملائه مرة على أن يعقدوا مجلس وزارة لا يحضره المراقب الانكليزى كلما أرادوا النظر فى شؤون تعنى مصر وحدها . وأبلغ رئيس الوزارة توفيقا هذا الخبر . وما كان أشد دهشة رياض حتى نبهه قنصل انكلترا العام الى أنه كان

يعتقد فيه الصراحة . وروى له ما أخبر هو به الخديو من قبل .

ولم يكن يدور بخاطر توفيق شيء من أمر جلاء الجنود البريطانية عن مصر برغم الحاح السياسة الفرنسية فيه بعد اذ رأت نفوذها فى وادى النيل يتقلص . وكيف تريد توفيقا أن يؤيد السياسة الفرنسية وقد كانت منضمة للعرابيين ضده فى ظروف كثيرة ، وكانت تعطف على فكرة تعيين حليم باشا فى منصب الخديوية ؟ ! واذن فليصنع الانكليز لتنظيم أمر البلاد ما يشاؤون . ليقرروا ثلاثة ملايين من الجنيهات تعويضا لمن أصابهم ضرر من جراء فتنة الاسكندرية ، وليوطدوا نظام الحكم الذى يرون توطيده فى مصر ، وليوفدوا الى السودان ما يشاؤون من الجيوش لقمع ثورة المهدى ، وليقرروا الانسحاب من السودان واخلاءه فيأبى رئيس وزارته شريف باشا ويقبل نوبار الوزارة والانسحاب — ليصنعوا بمصر ما شاءوا وليعينوا من الوزراء من شاءوا فلن ينسى توفيق لهم فضل تثبيته على عرشه ولن يكون لهم الا أخلص المخلصين .

ولعل ما كتبه لورد كرومر عن توفيق وخلقه خير ما يوضح لنا مبلغ اطمئنان توفيق للحالة الجديدة ، حالة الاحتلال الانكليزى .

قال اللورد ما مؤداه :

« ما أحسب خير أصدقاء توفيق يذهبون الى أنه كان رجلا عظيما أو خديويا مثلا . فالواقع انه لم يكن من العظمة فى شيء . ولقد كان مكتفيا بزوج واحدة فضرب بذلك مثلا صالحا لأهل بلاده . وكان أبا صالحا نشيطا معنيا بحسن تربية أولاده . وقد اشتهر بالتقوى ولكنه كان خلوا من أية ظاهرة للتعصب مما يصطبغ

به أتقياء « المسلمين » • ووصلت تقواه بينه وبين رعاياه المسلمين وكانت لذلك عاملا سياسيا له بعض الخطر • وكان بالقياس الى من حوله مستقيما وفيا • وكان كأكثر أهل بلاده يخاف المسؤولية ويجتهد ما استطاع ليلقى كل ما يقدر على القائه منها على أكتاف الآخرين • فكان يشكو من كثرة عدد الاوربيين فى الحكومة المصرية فاذا قصد اليه أوربى يلتمس منصبا أجابه بأنه يكون سعيدا لاجابة الطلب ولكن سلطة بريطانية تمنعه من السير بما يمليه عليه قلبه وكان عديم النشاط يعوزه الابتكار ، ولكنه كان اذا اضطر الى أن يقر قرارا أبدى فى غير قليل من الأحيان ما يدل على الكرامة وحسن التقدير وبعد النظر • وكان طيب القلب حتى يكاد فى بعض الاحايين يبدى من الاعتراف بالجميل عما قدم اليه من خدمة ما يندر أن يكون من صفات حاكم شرقى • وكان يظهر أعمق المقت لكل أنواع التحكم والارهاق والقسوة • ولم يكن أبدا مسئولا شخصيا عن عمل من هذه الأعمال ، وان كان تباطؤه واهماله قد أتاح ارتكاب كثير من الظلامات باسمه • ولم يكن متعلما تعليما عاليا • وقل أن قرأ كتابا • ولكنه كان يطلع على الصحف ويتحدث مع رجال من كل طراز ومكانة • وكان متوسطا فى ادراك الحوادث التى تلقى اليه وفى تتبع المناقشة التى تحدث أمامه • أما من حيث حدة الذكاء فربما كان فوق متوسط أهل بلاده •

« واذا لم يكن عظيما فى الرجال فهو لم يكن خديويا مثلا • فلو انه كان رجلا قوى الارادة سامى الخلق حاد الذكاء لوضع نفسه على رأس حركة الاصلاح فى مصر ، ولظهرت سلطته ، ولما توقد غيرة من الانكليز الذين كانوا موظفين فى حكومته •

على أنه مع ذلك كانت له الفضيلة السلبية أنه لم يكن ملوثا برذائل الحاكم الشرقى • وهو اذا لم يكن قد قام بالفعل بشىء فى حركة اصلاح فكفاه انه كان مغتبطا لقيام آخرين بدله بهذه الحركة • وهو اذا لم يكن قد ساق غيره فى سبيل الخير فكفاه انه اتبع الغير فى هذا السبيل • وأشهد انى اقتنعت برأيه فى أحيان أكثر من التى اقتنع هو فيها برأيى عند وجود خلاف بيننا » •

وهذا الحكم يبين للقارىء السبب فى انا لم نقف بعد حوادث الثورة العرابية عند شىء من حياة توفيق ، فقد كانت حياة عادية لاتتخللها الحوادث لأنه لم يكن له فى الحوادث يد ولا تصريف ، وبقى كذلك الى أن توفى فى سنة ١٨٩٢ غير محمود ولا مذموم •

* * *

والآن فهل على توفيق تبعة فى الحوادث الجسام التى حدثت أول أيام حكمه والتى أدت بمصر الى موقفها الحاضر ؟ هذا ما لا يصعب الجواب عليه • فعلى توفيق التبعة اذا كانت على انسان تبعة ضعف نفسه واضطرابه بين قوى لا سلطان له عليها • انما التبعة أكبر التبعة على الحوادث التى احاطت بتوفيق فكان لضعفه لا يملك تحويرها بما يتفق ومصلحة بلده • انما التبعة على تركيا ، وعلى فرنسا ، وعلى انكلترا ، وعلى عرابى • وماذا يستطيع ضعيف قصير النظر كتوفيق أن يصنع بين هذه القوى جميعا الا أن يترك نفسه يتقاذفه موج الحوادث ليصل بملكه وبلاده الى ما وصلا اليه •

# محمد قدرى باشا

من الكتب ما ينبه ذكره ويعظم أثره بمقدار يجنى على ذكر المؤلف حتى ليكاد يعفى خبره . من هذا الطراز كتب ثلاثة ما يغيب اسم واحد منها عن ذاكرة محام ولا قاض ولا طالب حقوق ولا رجل من رجال الشرع الاسلامى . هذه الكتب الثلاثة هى : مرشد الحيران الى معرفة أحوال الانسان فى المعاملات الشرعية على مذهب الامام الأعظم أبى حنيفة النعمان ، وكتاب الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية ، وكتاب قانون العدل والانصاف للقضاء فى مشكلات الأوقاف . بل ان معرفة هذه الكتب لا تقف عند رجال القانون والشرع ، بل تمتد كذلك الى عدد عظيم من سواد الناس . فقد نظمت ثلاثتها أحكام الشريعة على مذهب أبى حنيفة فى تقنين ذى مواد يفى بحاجة كل من يهمه الوقوف على هذه الأحكام اذ يجدها مبوبة مرتبة مدققة فى اختيار ألفاظها حتى تعنى مدلولاتها على صورة من التحديد الدقيق الذى يقضى به فن الفقه القانونى . وهذه الكتب الثلاثة هى الأولى والأخيرة فى بابها ولذلك نبه ذكرها وعظم أثرها وتناول الناس ما فيها بالدراسة ، فاذا سألت أكثرهم عن واضعها قيل لك هو قدرى باشا . لكن أكثر الناس لا يعلمون من أمر قدرى باشا الا اسمه ، والا أنه واضع هذه الكتب الثلاثة ، وقد يكون ذلك كافيا لتاريخه . فهذه الكتب الثلاثة هى فى الحق أثر كاف لتخليد واضعه . واذا كان نابليون قد جعل من قانونه

المدنى عنوان مجده واعتبر ما الى جانب ذلك من مجد النصر والظفر وحكمه العالم ثانويا ، فكتب قدرى باشا فى تقنين أحكام الشرع فى المعاملات والأوقاف والأحوال الشخصية عنوان مجد باق على الزمان .

لكن ، من كان قدرى باشا ؟ وماذا كان تاريخ حياته ؟ لا بد أنه كان فقيها عظيما من علماء الأزهر معهد دراسة الشريعة الاسلامية وموضع العناية بها . فالرجل الفذ الذى يقنن شريعة من الشرائع يجب أن يكون من أساطين رجال هذه الشريعة . فليس طبيعيا أن يخرج هذا المعهد الألوف من العلماء والفقهاء ثم يكون من يقنن الشرع غيرهم ! غير أن الواقع أن قدرى باشا لم يكن منهم ولم ينخرط فى سلكهم ، ولم ينضم الى زمرتهم . وكتبه الفقهية هذه ليست كل تواليفه وان كانت أبقاها وأخلدها . فقد كانت تربيته ودراسته مدنية بحتة . وكانت الوظائف التى تقلدها بعيدة عن أن تمس الأزهر الشريف أى مساس .

وقد ولد بملوى حوالى سنة ١٨٢١ من أب أناضولى هو قدرى أغا الذى كان من أعيان بلد وزير كوبرلى . وحين جاء الى مصر أقطعه والى مصر بعض العرب بمركز ملوى على طريقة الالتزام التى كانت معروفة يومئذ . فتزوج من مصرية أولدها ولده محمدا وأدخله مدرسة صغيرة بملوى ، حتى اذا أتم الدراسة بها بعث به الى القاهرة فى مدرسة الألسن حيث أتم بها دراسته وعين فيها مترجما مساعدا .

وكانت مدرسة الألسن هى المعهد الذى أسس لبث الثقافة الحديثة فى مصر . فقد أدرك أهل ذلك العصر ادراكا تاما أن

المدنية الغربية قوية التيار جارفته وان الحضارة الاسلامية التى يمثلها الأزهر أصبحت غير قادرة على الوقوف فى وجه هذا التيار ، كما انها كانت قد جمدت على تعاليم لا تقبل أن تطعم بالتعاليم الحديثة فلا يمكن معالجة التوفيق بين المذهبين . وكانت اللغات — أو الألسن على ماكانوا يسمونها يومئذ — هى موضع عناية مدرسة الألسن الكبرى . فكانت تدرس فيها اللغات التركية والفارسية والفرنسية والايطالية والانكليزية . وكانت العناية فيها باللغة العربية عناية فائقة يدل عليها ما وضعه الذين تخرجوا منها وما ترجموه من كتب ومؤلفات كثيرة . قال قدرى باشا صاحب هذه الترجمة فى كتابه ( معلومات جغرافية ) الذى نشر فى سنة ١٨٦٩ : « وقد ترجم تلاميذ هذه المدرسة أكثر من ألفى مجلد » وأتى بأسماء كثير ممن ترجموا والفنون التى ترجموا كتبها الغربية . وكان القصد من تعليم هذه ( الألسن ) والقيام من بعد ذلك بترجمة الكتب فى مختلف الفنون نقل الحضارة الغالبة الى مصر ليتمكن أهلها من السير سيرة أهل أوربا . ولعل أكثر ما ترجم انما ترجم عن اللغة الفرنسية . فقد تأثرت مصر بالثورة الفرنسية الكبرى ، كما تأثرت بها دول أوربا المختلفة . وكان من أثر ذلك أن قام المغفور له محمد على باشا فيها بحركة تشبه الحركة التى قام بها نابليون فى فرنسا ، وكان مرجوا أن تؤتى خير الثمرات لولا أن تألبت أوربا على مصر وحرمتها يومئذ ثمرات الظفر ، كما وقفت بعد ذلك عائقا فى سبيل تقدمها تقدما يرفعها الى الصف الذى يجب أن تشغله بين أرقى أمم الأرض وأقواها .

عين قدرى باشا اذن مترجما مساعدا بمدرسة الألسن على أثر تمام دراسته بها . وكان له ميل خاص لدراسة علوم الفقه ولمقارنة الشريعة الاسلامية بالقوانين الأوربية . فكان لذلك يحضر بعض دروس الفقه بالأزهر وكان مكبا على مطالعة كتب الشرع منذ حداثة سنه . لكن آثاره فى ذلك لم تظهر الا بعد سنين طويلة . وبقيت الترجمة عمله الرسمى الذى كان يتقنه ايما اتقان . ولذلك نقل من مدرسة الألسن الى نظارة المالية مترجما لا مساعد مترجم .

ولما احتل ابراهيم باشا الشـــام عين شريف باشا واليا لها . فأخذ هــذا الأخير قدرى باشا ( وكان ما يزال قدرى أفندى ) سكرتيرا له ، ثم سافرا الى الآستانة وعادا بعد ذلك الى مصر وظلا متلازمين حتى عين قدرى باشا أستاذا للغتين العربيــة والتركية فى مدرسة الأمير مصطفى فاضل باشا . ثم اختاره الخديو مربيا لولى العهد . ثم عين بالمعية فالمعارف فمجلس التجار بالاسكندرية فرئيسا لقلم ترجمة الخارجية .

وأثناء اشتغاله بالتدريس وضع عدة كتب فى موضوعات مختلفة . لكن أكثرها كان فى اللغة العربية وأجروميتها ومفرداتها ، وكان معاجم عربية — فرنسية . من ذلك الدر النفيس فى لغتى العرب والفرنسيس ويقع فى سبعمائة صفحة ، والدر المنتخب من لغات الفرنسيس والعثمانيين والعرب ، وأجرومية فى اللغــة العربية ، ومختصر الأجرومية الفرنساوية مترجمة الى العربية ، والمترادفات باللغة العربية والفرنساوية . هذا عدا بعض كتب فى التاريخ والجغرافيا ككتاب ( معلومات جغرافية مصحوبة ببعض نبذ تاريخية لأهم

مدن مصر جمعت وترجمت بالعربية لفائدة الشبيبة المصرية ) . وهذا الكتاب تم طبعه فى سنة ١٨٦٩ .

يدل كثير من هذه الكتب على مبلغ تضلع قدرى باشا فى اللغتين العربية والفرنسية وعلى مقدرته الفائقة فى الترجمة . لذلك كان طبيعيا أن يدعى للاشتراك فى التمهيد للعمل التشريعى العظيم الذى كانت الحكومة المصرية تفكر فيه والذى كان مقدمة لانتشار المحاكم المختلطة والمحاكم الأهلية . فقد كان القضاء المصرى فى ذلك العهد منوطا بالمجالس الملغاة التى كانت تحكم بالعرف وكانت تجمع من الرجال من قلت درايتهم بقواعد العدالة . واذ كانت مبادىء الثورة الفرنسية قد تسربت الى مصر من طريق الحملة الفرنسية فى سنة ١٧٩٨ ومن طريق الشبان المصريين الذين أوفدوا الى فرنسا ثم عادوا الى مصر ، فقد اتجهت الفكرة الى تعريب القوانين الفرنسية التى وضعت أيام نابليون ، وعهدت الحكومة الى جماعة من أفاضل المترجمين المصريين بهذه المهمة . فعرب القانون المدنى الفرنسى رفاعة بك رافع وعبد الله بك رئيس قلم الترجمة وأحمد أفندى حلمى وعبد السلام أفندى أحمد . أما قانون المرافعات فعربه أبو السعود أفندى وحسن أفندى فهمى أحد مترجمى وزارة الخارجية ، وعرب قدرى باشا قانون العقوبات ، وعرب صالح مجدى بك قانون تحقيق الجنايات . وجمعت هذه القوانين كلها وطبعت بالمطبعة الأميرية فى سنة ١٢٨٣ هـ .

واذ كان ميل قدرى باشا للفقه والتشريع يرجع الى أيام الدراسة ، على ما قدمنا ، فقد صادف ذلك العمل هذا الميل ودفع

بصاحبه الى التفكير فى تقنين أحكام الشريعة الاسلامية . وزاده امعانا فى هذا التفكير أن عهد اليه بالاشتراك فى ترجمة قوانين المحاكم المختلطة الى اللغة العربية مع اللجنة التى أنشئت فى وزارة الحقانية للقيام بهذا العمل تمهيدا لوضع تشريع جديد للمحاكم الأهلية التى أزمع انشاؤها من يومئذ . ولما كان التشريع للمصريين يقتضى التوفيق بين أحكام القانون المختلط الجديد الذى أخذ عن القانون الفرنسى وبين أحكام الشريعة الاسلامية التى كان عليها القضاء الى يومئذ ، فقد اشتغل قدرى باشا بهذه المقارنات . فوضع كتابا لم ينشر بعد وما تزال نسخته المخطوطة فى دار الكتب المصرية عن ( تطبيق ما وجد فى القانون المدنى — الفرنسى — موافقا لمذهب أبى حنيفة ) . وجاء فى مقدمته أنه ( بيان المسائل الشرعية التى وجدت فى القانون المدنى مناسبة وموافقة لمذهب الأمام الأعظم أبى حنيفة النعمان ) .

هذه الترجمة لقانون العقوبات الفرنسى ولقوانين المحاكم المختلطة وهذه البحوث المتصلة فى المقارنات بين أحكام الشرع والقانون المدنى الفرنسى مضافة الى ميله الأصيل ، جعل من قدرى باشا فقيها فى القانون . ولقد نقل من رياسة قلم ترجمة الخارجية مستشارا بمحكمة الاستئناف المختلطة ، وظل فى منصبه هذا الى أن عين وزيرا للحقانية فى أول عهد المغفور له محمد توفيق باشا ، ثم استقال مع الوزارة وعاد بعد ذلك وزيرا للمعارف ، ثم انتقل وزيرا للحقانية من جديد . وعمل فى منصبه هذا على وضع القوانين للمحاكم الأهلية التى أريد انشاؤها ، واشترك بنفسه فى وضع القانون المدنى

وقانون تحقيق الجنايات والقانون التجارى . وفيما كان لا يزال ناظرا للحقانية صدرت لائحة ترتيب المحاكم الأهلية ، ثم أحيل الى المعاش ، وصـــدرت القوانين التى اشـــتغل فى وضعها أيام كان فخرى باشا ناظرا للحقانية .

كان طبيعيا اذا أن ينصرف قدرى باشا فى الشطر التالى من حياته عن الاشتغال بما شغل به فى الشطر الأول — من ترجمة ونحو وصرف — الى العمل فى القانون والتشريع . وكان قدرى باشا من طراز الذين يتوفرون بكل قوتهم على العمل ولا يملونه . ولذلك وجه كل همه الى تقنين مذهب أبى حنيفة بوضع الكتب الثلاثة التى ما يزال اسمه مقرونا بها : مرشد الحيران فى المعاملات ، والأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية ، وقانون العدل والانصاف فى القضاء على مشكلات الأوقاف . وقد ظلت هذه الكتب كلها مخطوطة الى حين وفاته فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨٦ ولم تطبع الا بعد الوفاة بسنوات طويلة . وهى مع ذلك التى خلدت ذكره وما تزال سبب مجده ، هى هذا الجهد العظيم الذى لم يضطلع به من رجال الشرع الاسلامى أحد فاضطلع هو به وأداه على خير وجوهه . واقتران اسمه بها دليل على أنها أثر خالد حقا .

فلقد كان فى أعماله الأخرى ما يكفى ليجعل منه واحدا من رجالات مصر وفى مقدمتهم . كان يكفى اقتران اسمه بلائحة ترتيب المحاكم الأهلية وصدورها . وكان يكفى أنه تقلد الوزارة ثلاث مرات فى حياته . وكانت تكفى كتبه الأخرى . لكن مناصب الحكومة واقتران الذكر بقانون من القوانين أو عمل عام ناب فيه صاحب

الذكر عن الحكومة لا يخلد اسم صاحب المنصب الا على أنه اسم لا أكثر ، اسم من هذه الأسماء التى قد تصل الى المناصب بالرياء أو الخديعة أو غير هذين من الأسباب الكثيرة الوضيعة التى يعتبرها بعض الناس حلية لهم وسلما يرتقون به درجات الحياة . اسم مكون من حروف هجائية لا من أعمال جليلة . اسم جف على نقائض الحياة يلاشيها الموت ولا نصيب له من خير يبقى على الحياة أثره . فأما هذه الكتب الثلاثة التى لم تظهر الا بعد موت مصنفها فقد أعادت اسمه الى الحياة متألقا شديد الاشراق سقطت من حوله حياة المادة وضعفها وبقيت له حياة الروح المتصلة بالكون من أزله الى أبده .

ويقول الذين عرفوا قدرى باشا أيام حياته أنه مع اكبابه على العمل أشد الاكباب لم يكن من المتجهمين للحياة العابسين فى وجهها ، بل كان ظريفا غاية الظرف ، وكان يتقن الضرب على العود . وكان لا يأبى أن يجلس من اخوانه خريجى مدرسة الالسن فى حفلة طرب يسمعهم من ألغام عوده مايهون على النفس أعباء العمل . وانك لتجد أولئك الذين وهبتهم الطبيعة من قدرتها مايجعلهم قوة عاملة ذات أثر خالد فى العالم أحرص الناس على أن ينالوا من جوانب الطبيعة الباسمة حظا يعينهم على أداء الواجب العظيم الذى فرض الوجود عليهم أداءه ، والذى يقتضيهم من الجهد ما ينوءون به لولا هذا الحظ القليل . وما كان لأحد أن يأخذهم بذلك ، وهو ، أيا كان لونه ، ليس الا رياضة لنفوسهم وأعصابهم أن يبهظها الجهد أو يأتى عليها الملال . واذا أبهظ الجهد قوى الأفذاذ الذين يقيمون العالم وحضارته فقد آن للملايين الذين يعيشون فى كنف مواهب هؤلاء

وينعمون بعملهم أن تتحطم سعادتهم وأن تهدم حضارتهم .

وكان من قسوة القدر على قدرى باشا أن كف بصره وأن انطفأ نور عينيه ، وكانتا قبل ذلك ذواتى جمال وحدة . وقد سافر الى النمسا أملا فى معالجة نفسه من هذا المرض ، ولم يمنعه عدم نجاحه فى هذا من متابعة عمله الذى أخرج للناس فى تقنين الفقه الشرعى كتبه الثلاثة .

وتوفى ، فأحدثت وفاته فراغا فى عالم النهضة القومية . ولكن هذه النهضة كانت حين وفاته فى منحدر أدى بها الى وقوف تيار النشاط العظيم الذى قام به هو وزملاؤه . فمن قبل سنة ١٨٨٦ كانت مصر قد أصيبت فى مطامعها فى الحرية بضربة لا تقل قسوة عما أصيبت به على أثر انتصارات محمد على باشا على تركيا . وكانت أوربا هى صاحبة الضربة الأولى وصاحبة الضربة الثانية .

ولن تزال كتب قدرى باشا الثلاثة عنوان مجد لا يقل عظمة عن قانون نابليون . ولئن ينس الناس من حياة قدرى باشا كل شىء فلن ينسوا هذه الكتب الثلاثة وهى كافية لتقيم مجد رجال لا مجد رجل واحد .

# بطرس باشا غالى

لعلك ان طلبت مثلا أعلى بين بلاد العالم لشعب وديع هادىء لا ترى خيرا من مصر محققة لهذا المثل . ثم لعلك ان طلبت مثلا أعلى لشعب طموح لاتفتأ أحشاؤه تضطرب بأسباب الثورة على الحاضر تطلعا الى الكمال والى العظمة والمجد . لا ترى خيرا من شعب مصر محققا لهذا المثل . فقل أن عرفت مصر وسائل العنف فى السعى الى أغراضها . ولم يقع أن ذلت مصر واستكانت ويئست من تحقيق هذه الأغراض . ولهذا الظاهر من التناقض فى صورة الحياة المصرية أثر كبير فى قدر رجال مصر والآخذين بها لتحقيق مطامعها . فهى أبدا فى نضال مع أمم غيرها تريد قهرها واذلالها . وهى أبدا لا تذل لقاهر وان كانت ظروفها وكان تاريخها قد ألجأها الى ستر ثورتها الدائمة تحت ظاهر من الهدوء والسكينة . ولذلك كان حتما بحكم هذه الظروف أن ينشأ فيها الرجل المحرك للعواطف يستنهضها وللهمم يحفزها ، ولنشاط الجماهير يدفعه الى الغاية السامية التى تطمع مصر بحق فيها ، وأن ينشأ الى جانب هذا الرجل رجل آخر هو السياسى الذى يعمل لتلافى الاصطدام بين اندفاعات الشعب وبين القوى الغالبة فى مصر اصطداما عجز الكل حتى اليوم عن تقدير نتائجه : أهو ينتهى الى تحطيم قوة الغالبين وقيام مصر الى جانبهم قوية اليد كما أنها قوية النفس ، أم هو ينتهى الى تحطيم أمل النفس المصرية فى بلوغ المكانة التى تطمع فيها ؟ واذا تحطم أمل أمة فترت أجيالا بعد

أجيال عن بعثه واستعادته ، حتى يكون ظرف جديد يعين على هذا البعث ويدفع الى نفس الأمة الأمل حارا قويا ينبض به قلبها ثم يندفق ثورة قوية تخلع النفس وتحطم القيود .

وكان هذان الرجلان ، رجل الدعوة الى المثل الأعلى ورجل السياسة والسلم ، خصمين فى أكثر الظروف . وكانت الجماهير بطبيعتها نصيرة أبدا للمثل الأعلى لأنه غذاؤها فى الحياة بل هو حياتها بالذات . أما السياسى الذى يزن القوى ويفاضلها ويعمل للوصول الى خير مايمكن أن تصل اليه بلاده بالحوادث اللاحقة هى التى تحكم عليه أو له . ولقد كان بطرس باشا غالى سياسيا ، وكان من أكثر المصريين اتصالا بحوادث عصره من ناحيتها السياسية . فلنجعل للحوادث وحدها الحكم عليه ، ولتكن كلمة التاريخ كلمة حق وانصاف .

* * *

ولد بطرس غالى بالقاهرة فى ١٢ مايو سنة ١٨٤٦ وتلقى دراسته الأولى فى مدرسة حارة السقايين التى أنشأها الأنبا كيرلس الرابع الملقب عند الأقباط بأبى الاصلاح . وبعد ثمانى سنوات أمضاها فى هذه المدرسة انتقل الى مدرسة مصطفى فاضل باشا ، وكان له من الصلة بها أن والده غالى بك نيروز كان يشتغل فى دائرة مصطفى فاضل . فلما تخرج منها اشتغل مدرسا بمدرسة حارة السقايين وظل مع ذلك يتلقى علوم الترجمة التى أنشأها المرحوم رفاعة باشا .

وكان فى أثناء دراسته مثلا للذكاء ولقوة الذاكرة المنقطعة النظير : كان يكفيه أن يقرأ مايدرس له مرتين أو ثلاث مرات ليستظهره استظهارا تاما . ويسرت له قوة ذاكرته العلم باللغات

المختلفة . فقد أتقن العربية والفرنسية والتركية والفارسية . وهاتان اللغتان الأخيرتان أتقنهما على أحد تجار خان الخليلي ، اذ كان يتلقى عليه مقابل دفع ( شبرقته ) له . ثم انه تعلم اللغة القبطية بعد الثلاثين من سنه لمناسبة تدل ، الى جانب قوة الذاكرة ، على قوة فى الارادة امتاز بها . ذلك انه سافر الى انكلترا فقابله أحد العلماء العارفين باللغة القبطية . ولما علم أنه قبطى كلمه بها فلم يجبه ، ولكنه لم يلبث بعد أن عاد الى مصر أن أكب على دراستها . فلم تمض ستة أشهر حتى كتب لصاحبه العالم الانكليزى خطابا بها .

وأعانه فى الحياة الى جانب ذكائه وقوة ذاكرته ومضاء ارادته صحة متينة كان يدل عليها طول قامته وعضله المفتول . كما كان بريق عينيه بريقا عجيبا يدل على ذكائه وحيلته . لذلك لم يكد يتخطى أوليات الشباب حتى عرفه أولو الأمر يومئذ وعهد اليه بأعمال ذات خطر ومسؤولية . فقد دخل فى مسابقة حين كان مدرسا بمدرسة حارة السقايين انتقل بها الى وظيفة كاتب بمجلس تجار الاسكندرية الذى حلت المحكمة المختلطة بعد ذلك محله . وجعل يرتقى من وظيفته هذه حتى صار رئيس كتاب المجلس الذى حكم سنة ١٨٧٣ فى قضية ضد مصلحة أحد المحسوبين على اسماعيل باشا المفتش . واذا كان مجلس التجار تابعا لنظارة الداخلية ، فقد أوصل المفتش الأمر الى ناظرها شريف باشا وأبلغه أن بطرس غالى كان صاحب اليد فى اصدار ذلك الحكم الجائر . فدعا الناظر بطرس اليه فأعجبته مناقشته كما أعجب بمعرفته للغات ، ولذلك نقله من عمله وعينه رئيسا لكتاب

نظارة الحقانية التى كلف شريف بانشائها استعدادا لتطبيق نظام الاصلاح القضائى الجديد .

وكانت سنة ١٨٧٤ سنة نشاط كبير فى الحقانية بسبب التحضير لانشاء المحاكم المختلطة . وكان المغفور له محمد قدرى باشا مشتغلا بترجمة قوانين هذه المحاكم الى اللغة العربية . فانضم اليه بطرس وعنى واياه بتعريب التشريع الذى ما يزال أكثره ساريا فى مصر الى الوقت الحاضر .

وأتاح له الاشتغال فى التحضير للمحاكم المختلطة التعرف الى رئيس النظار نوبار باشا ، فكان اتصاله به ذا أثر كبير فى تكوينه السياسى . وما فتىء هذا الاتصال بينهما وثيقا مستمرا داعيا الى ثقة نوبار بباشكاتب الحقانية ، حتى كان هو أول من اختاره ليكون ناظرا للخارجية فى وزارته التى ألفها سنة ١٨٩٥ بعد أن اختاره رياض باشا قبل ذلك ومنذ سنة ١٨٩٣ ليكون ناظرا للمالية .

ويرجع اختيار رياض باشا اياه لوزارة المالية ، الى سبب خاص : ذلك أنه لما انتهت الحكومة المصرية من انشاء المحاكم المختلطة فى سنة ١٨٧٥ كانت على أبواب الضائقة المالية التى جرتها اليها الاستدانة الفادحة منذ أول حكم المغفور له اسماعيل باشا فى سنة ١٨٦٣ . ففى سنة ١٨٧٦ صدر القانون بتأليف صندوق الدين وبتعيين المراقبين الماليين . لكن هذا القانون لم يخفف من وطأة الديون شيئا ولم يرفع من الضغط على دافعى الضرائب وارهاقهم بأقسى وسائل الارهاق وأبعدها عن كل معانى الانسانية ، ثم استيلاء صندوق الدين على كل ما كان يحصل ، حتى اضطرت الحكومة الى عدم دفع مرتبات

الموظفين بما جعل أحد الانكليز الموظفين فيها يومئذ يكتب فى مذكراته أنه قضى يومين لم يدخل فمه فيهما طعام لاعوازه الى كل ما يسد به رمقه . واذ كان الدائنون الأجانب مع ذلك مصرين على اقتضاء مصر كل تعهدات ولى نعمتها . فقد انتهوا الى الاتفاق على تشكيل لجنة للفحص ثم لتصفية ديون مصر . وعين رياض باشا نائبا عن الحكومة المصرية فى اللجنة المذكورة وعين بطرس بك غالى السكرتير العام لنظارة الحقانية مساعدا ثم عين رياض رئيسا للجنة وعهد الى بطرس بالنيابة عن الحكومة . وفى ذلك الظرف الدقيق اضطر الى أن يدرس من مباحث اللجنة ومن الشؤون المالية ما مكنه من أن يضع تقريرا عن نظام الضرائب فى مصر كان بعد ذلك مرجعا ينقل عنه وحجة يعتمد عليها .

ولما انتهت الحوادث التى تلت تقرير لجنة المالية الى اقصاء المغفور له اسماعيل باشا عن العرش فخلفه توفيق فيه كانت الحكومة قد بدأت تفكر فى الغاء المجالس القضائية القديمة وفى انشاء نظام قضائى جديد هو النظام القائم الآن . واذ كان بطرس ممن عملوا فى التشريع للقضاء المختلط فكان طبيعيا أن يكون على رأس الذين يعملون للتشريع للقضاء الأهلى . لذلك عين فى سنة ١٨٨١ وكيلا للحقانية وألقى عليه عبء تنفيذ النظام القضائى الجديد .

والى يومئذ كانت مناصب الحكم فى أعمال الدولة لا يليها الا المسلمون . فأما الأقباط فكانوا يلون وظائف انجاز أعمال الحكومة . فكانت المناصب الكتابية وما اليها مفتوحة وحدها أمامهم . فأما القضاء وادارة الأعمال العامة فكانت وقفا على أبناء الأغلبية الدينية

فى البلاد . ويسير تفسير هذا التقسيم فى ذلك الظرف الذى كان الحكم فيه للأتراك والذى كان الحاكم فيه تابعا لدولة الخلافة الاسلامية . على أن بطرس غالى رأى فى ذلك منافاة لروح الزمن ، وبخاصة فى عصر بدأت مصر تنقل فيه النظم الأوربية بانشاء المحاكم المختلطة وبخضوع المصريين لقضاء جماعة لا يختلفون عنهم فى الدين فقط ، بل فى الجنسية وفى اللغة أيضا . لهذا عين حين وجوده فى الحقانية عددا من الأقباط فى وظائف القضاء . ولعل هذا التصرف وما اليه من مثله هو مادعا جماعة من الذين خاصموه أثناء حياته لاتهامه بالتحيز لأهل طائفته .

وبقى فى وكالة الحقانية حتى عين ناظرا للمالية فى سنة ١٨٩٣ . على أن أحوال مصر السياسية تغيرت فى هذه الفترة تغيرا كبيرا كان لبطرس بك غالى رأى فيه معروف . ذلك أنه لما حدثت الثورة العرابية وانتهت الى تدخل الانكليز وهزيمة العرابيين فى التل الكبير وتشاورهم فى الأمر كان من رأى بطرس أن يلتمسوا عفو الخديو وأن يركنوا اليه . وقد أوفده القوم يومئذ بعريضة الى الخديو توفيق فيها هذا المعنى . ومع أنه لم يظهر له عمل مباشر فى الثورة ، مما يدل على أنه لم يكن من المطمئنين اليها ، فان التجاء العرابيين اليه يدل على أنه كان موضع عناية الخديو توفيق وعطفه كما يدل من جهة أخرى على أن ذكاءه وفطنته السياسية كانا موضع تقدير الذين التجأوا اليه ورأوا فيه خير وسيط للتفاهم بينهم وبين الحاكم الذى ثاروا عليه .

وحياة بطرس باشا كانت كلها بعد ذلك حياة وساطة سياسية

لم تكن الحاجة اليها ماسة أيام حكم توفيق لما كان بينه وبين الانكليز من تمام التفاهم . ولكنها كانت ضرورية وكانت منتجة أيام حكم الخديو عباس الذى كان يثق به ويطمئن اليه فى حل الخلاف الكثير الحدوث بينه وبين لورد كرومر قنصل انجلترا الجنرال فى مصر .

ولعل الحوادث التى مرت بمصر وشهدها بطرس باشا قبل أن يصل الى منصب الوزارة كانت ذات أثر كبير فى توجيه سياسته وزيرا . فقد حضر نائبا عن الحكومة المصرية فى لجنة التصفية ووقف على ميول الأجانب وعلى أطماعهم . ثم رأى جهود اسماعيل للوقوف فى وجه تدخلهم باسم مصلحة الدائنين تنتهى الى اقصائه عن العرش . ثم انه حضر وشهد تطورات الثورة العرابية وما آلت اليه من تشتيت الثوار والحكم على زعمائهم بالاعدام واستبدال ذلك الحكم بالنفى . وكان بعد ذلك على اتصال بالمؤتمرات والمحادثات التى حصلت بقصد جلاء الجيوش الانجليزية عن مصر . وما كان من وعود الانجليز فى ذلك وتدخلهم برغم هذه الوعود فى الشؤون المصرية ووضعهم يدهم على الادارة المصرية . ثم كانت بعد ذلك حادثة فرمان الخديو عباس ووقوف انجلترا فى وجه تركيا باسم الدفاع عن حقوق مصر ، كما كانت حادثة الحدود واعتذار الخديو عباس رغم اعتزازه بملكه الشاب للقائد كتشنر . وبطرس باشا كان على ذكائه وقوة ارادته وسعة حيلته رجل سلم وعمل مطمئن ، مما جعله بعيدا عن الحركة العرابية الى أن جاء دور السلم والوساطة ، كما كان من طائفة الأقلية الدينية فى وقت كانت النعرة الدينية فيه متغلبة على كل نعرة أخرى . أضف الى هذا كله اتصاله بنوبار وتكوين عقله تكوينا سياسيا

لا تكوين زعامة شعبية مقصور غرضها على الدعوة للمثل الأعلى هذه الظروف كلها تفسر لك سياسته من بعد ارتقائه الى منصب وزارة المالية فى سنة ١٨٩٣ وانتقاله الى وزارة الخارجية بعد ذلك وبقائه فيها حتى مع تقلده رياسة الوزارة فى سنة ١٩٠٨ برغم ما جرت به سنة الوزارات المصرية من تقلد رئيس الوزراء لوزارة الداخلية .

وتشهد ظروف تقلده الوزارة بأنه كان ، برغم ما قدمنا من ميله للسلم وللحيلة ، موضع ثقة الخديو الشاب عباس . فلقد كانت أول وزارة اختير بطرس لها وزارة فخرى باشا التى أحلها عباس محل وزارة مصطفى فهمى فى سنة ١٨٩٣ رغم لورد كرومر والتى لم تبق لذلك فى مناصب الحكم غير يوم واحد . ثم انه حل بعد ذلك محل ثقته أن رأى فيه خير وسيط يحل المشكلات التى كانت كثيرة الحدوث بينه وبين لورد كرومر . على أن عمله فى وزارة المالية وفى وزارة الخارجية ظل عمل موظف أمين كفء حريص على بقاء المساواة فى المعاملة بين المصريين جميعا من غير تمييز بينهم بسبب الجنس أو الدين من غير أن يبرز ليكون محلا لحكم التاريخ حتى كانت سنة ١٨٩٩ اذ وقع مع انكلترا فى ١٩ يناير اتفاقية السودان التى كانت بعض ما حاربه به خصومه فى حياته وبعض ما اتخذه قاتله ابراهيم ناصف الوردانى حجة له فى اقدامه على ارتكاب جريمة القتل السياسى ، والتى ما تزال موضع حنق المصريين عليها ونظر كثيرين منهم لها على أنها عمل من أعمال خيانة الوطن .

وقد نعجب اذ نرى بطرس غالى لم يكن فى سنة ١٨٩٩ الا ناظرا

للخارجية متضامنا مع سائر زملائه النظار فى سياسة الدولة العامة يحمل وحده وزر هذه الاتفاقية . فاخلاء السودان فى سنة ١٨٨٤ بأمر انكلترا واستعادة فتحه بعد ذلك بأمر انكلترا أيضا لم يكن من عمل نظارة الخارجية وحدها . بل كان من عمل مجلس النظارة كله . وقد كان بطرس وزير المالية فى سنة ١٨٩٣ مع فخرى ثم مع رياض باشا الذى ألف الوزارة حلا للاشكال بين الخديو ولورد كرومر ، ثم انتقل وزيرا للخارجية لما شكل نوبار الوزارة فى سنة ١٨٩٤ وظل فى منصبه بعد استقاله نوبار وحين شكل مصطفى باشا فهمى الوزارة من جديد . وفى هـذه الأثناء كانت الأعمال لاستعادة السودان جارية حتى سقطت الخرطوم وأم درمان وتمت استعادة السودان فى سنة ١٨٩٨ ، فهل يسأل وزير الخارجية وحده اذا هو وقع بعد ذلك اتفاقا باسم حكومته !.

كان خصومه يقولون : ولكنه المسئول الأول والمباشر . فهو الذى وقع باسمه وبيده . ثم انه فضلا عن ذلك كان أكثر من كل الوزراء الذين معه مسئولية لأنه كان أقواهم وأذكاهم وأقدرهم . بل لعله هو الذى أقنعهم بالقبول . وماذا تريد من مصطفى فهمى والذين كانوا معه وهم كانوا مثل الاستماتة والضعف . لقد كان بطرس هو العنصر القوى الوحيد فيهم ، فهو لذلك مسئول دونهم . ثم لنقل الحق أيضا : ان بطرس قبطى وكان للأقباط زعيما ، والأقباط كانوا يومئذ وفى نظر دعاة الحركة الوطنية المصرية متهمين بمالأة الانكليز على بلادهم . فبطرس اذن قد وقع اتفاقية السودان ممالأة للانكليز وتفريطا فى حقوق بلاده .

كذلك كان يقول خصوم بطرس . وكذلك ما يزال البعض يحسب ، ولو فى دخيلة نفسه ، حرصا على وحدة الأمة المقدسة فى الأيام الحاضرة . لكن للتاريخ حكما آخر تجب المجاهرة به احقاقا للحق ؛ فمصر يوم اتفاقيـة السودان كانت تابعة لتركيا وكانت لا تستطيع أن تمضى اتفاقا تنقص به من سلطتها أو سيادتها على أى جزء من الأجزاء التابعة لها ، أو التى كانت تابعة لها وعادت اليها . وقد أبلغت الحكومة المصرية حكومة الباب العالى ان انكلترا تريد أن تتفق مع مصر اتفاقا مقصورا على ادارة السودان ، لتتمكن بذلك من الغاء الامتيازات الأجنبية فيه ولتستطيع بما تبيحه لها الشركة فى الادارة أن تسهر على أملاكها الافريقية من غير أن يضر ذلك حقوق مصر فى السودان باعتباره ولاية منها تابعة لحكم الخديو . وبالرغم من تكرار الكتابة فى هذا الأمر الى الحكومة التركية فانها لم تحرك ساكنا ولم تشر بنصيحة ولم تظهر مجرد استعدادها لتعضيد مصر اذا هى وقفت بازاء انكلترا موقفا خاصا . وعلى ذلك ألفت مصر نفسها وحيدة بازاء انكلترا مضطرة أن تحل معها هذه العقدة بعد أن كانت فرنسا قد ضربت قبيل ذلك فى حادثة فاشودة بما قطع كل رجاء فى مداخلتها كما انقطع الرجاء فى مداخلة غيرها من الدول . مع هذا لم يخرج اتفاق يناير سنة ١٨٩٩ السودان من ولاية صاحب عرش مصر ولم يجعل انكلترا شريكة فيه . بل هو اتفاق مقصور على ادارة السودان بنصه وبتفسير لورد كرومر وغير لورد كرومر من كتاب الانكليز وساستهم اياه وبتنفيذه فى المدة التى تلت عقده . فقد كان حاكم السودان العام ، برغم أنه حاكم عسكرى فى بلاد

خاضعة للحكم العرفى . لاينفذ أمرا ولا ينشر قانونا الا بعد أن يبعث به الى مجلس النظار فى القاهرة وبعد أن يرد المجلس اليه الأمر أو القانون أو الارادة السنية كما هى أو منقحة بما تراه الوزارة المصرية . فاذا كان قد حدث بعد ذلك أن استفادت السلطة الانكليزية من ضعف الوزارات التى وليت الحكم فى مصر وأن مدت ادعاءاتها الى أكثر مما يبيحه اتفاق سنة ١٨٩٩ . فليس الذى وقع الاتفاق المذكور فى الظروف التى أشرنا اليها مسئولا عن شىء منها .

هذا هو حكم التاريخ . وهو الحق فى أمر اتفاقية السودان وموقف بطرس باشا غالى منها . على أن ما تلاها من نشاط الحركة الوطنية بزعامة المغفور له مصطفى باشا كامل ومن طعنها على المعاهدة واتخاذها ذريعة للهجوم والمقاومة ، جعل الوزارة المصرية أشد ميلا للتفاهم مع الانكليز تفاهما يخفف من حدة هذه الحركة ان كان ذلك مستطاعا ، ويقف فى وجه طغيانها على النظام وعلى الأمن اذا خشى منها عليهما ، ويعطى لاتفاقية السودان معنى غير معناها الأول يخول انكلترا فيه سلطانا لم يقصد الاتفاق تخويلها اياه .

وكانت الحركة الوطنية فى ذلك الحين متجهة الى الاستفادة من خلاف الدول ، معتمدة على ما يمكن أن يكون لتدخل فرنسا من قيمة فى تحرير مصر . وبرغم فشل مرشان عند فاشودة وانسحابه وتضعضع سلطان فرنسا لهذا السبب ، فقد ظلت أنظار مصطفى كامل ورجال الحزب الوطنى متجهة صوب باريس حتى سنة ١٩٠٤ حين عقد الاتفاق الودى الذى التزمت به فرنسا ألا تعترض انكلترا فى مصر . فلما تم هذا الاتفاق شعر المصريون جميعا بازدياد مركز

انكلترا فى مصر قوة . وكان النظار المصريون المتصلون بالسلطة الانكليزية فى مصر بسبب مراكزهم أكثر من غيرهم شعورا بهذه القوة بل ايمانا بها واستعدادا لتقديم القرابين لتهدئة ثوائر غضبها .

وفى هذه الظروف بلغ سلطان انكلترا فى مصر أوج قوته . فلم يكن أمر ما ، بالغة ما بلغت تفاهته ، يبرم أو ينقض من غير اقرارهم عن طريق موظفيهم الذين احتلوا كل مناصب الدولة الرئيسية والذين كانت لهم الكلمة النافذة على الموظفين المصريين مهما يكن منصب الموظف الانكليزى صغيرا ومنصب الموظف المصرى كبيرا . كان تلغراف جرانفل ، الذى يقرر أن مشورة انكلترا واجبة الاتباع فى مصر ، لا يقف عندما تبديه الدولة المحتلة عن طريق عميدها من رأى ، بل يمتد الى المستشار الانكليزى والى مفتش الداخلية والى ملاحظ الطرق والى كل انكليزى أيا كانت مكانته . وبازاء هـذا السلطان الانكليزى النافذ فى مصر كانت الحركة الوطنية المصرية تنمو وتقوى ، وكانت الثورة النفسية لشعب مصر الوادع الذى لا يقبل مذلة ولا خضوعا قد ملأت النفوس حتى كادت تفيض عنها . وكمظهر لهذا التنافر بين السلطة الحاكمة من ناحية والشعب المصرى من ناحية أخرى ، وقعت حادثة دنشواى باصطدام جماعة من الضباط الانكليز الذين كانوا يصيدون الحمام أثناء ذهابهم من القاهرة الى الاسكندرية مع أهل قرية دنشواى فى يونيو سنة ١٩٠٦ اصطداما انتهى الى موت الكابتن بول الانكليزى ، والى تأليف المحكمة المخصوصة برياسة بطرس باشـا غالى الذى كان وزيرا للحقانية بالنيابة لغياب وزير الحقانية بالأجازة ، والى صدور تنفيذ ذلك الحكم

الجائر الذى يعتبر مثلا من أمثلة البربرية والوحشية فى أشد عصور الانسانية ظلاما . والذى أعدم بموجبه أربعة وجلد ثمانية أمام أنظار أهل دنشواى المفجوعين فى أهلهم وعائليهم . عدا الذين زجوا منهم فى غيابات السجون .

وكانت رياسة بطرس باشا للمحكمة المخصوصة التى أصدرت الحكم مما أخذ به وليم عليه . ولكن دون لومه ومؤاخذته على اتفاقية السودان . ويقول المدافعون عن بطرس باشا فى هذه المسألة : ان حكم دنشواى كان حكما سياسيا أملته السلطة الانكليزية التى أمرت بارسال المشانق قبل أن يصدر . اذ أرادت أن تضرب مثل صرامة وحزم — وانه كان صادرا من أغلبية انكليزية لأعضاء المحكمة . فلم يكن للأقلية الموجودة فيها ، بحكم القانون ، بد من قراره وتوقيعه . وبطرس باشا كان رئيسا للمحكمة المخصوصة بحكم القانون الذى ألقى بهذه الرياسة الى ناظر الحقانية . فكان لا مفر له من الخضوع لرأى أغلبية الهيئة التى يرأسها والتى أصدرت ذلك الحكم الجائر .

وهذا الدفاع على ظاهره من الوجاهة لا ينهض حجة لتبرير عمل بطرس باشا الا اذا كان هو معتقدا عدالة الحكم الذى أصدره وانسانية تنفيذه مما لا يصدق على رجل كان له من عواطف الخير والانسانية ما كان لبطرس . ذلك بأن الرجل الذى يجلس رئيسا لهيئة قضائية يعهد اليها بتطبيق العدل يجب ألا يخضع لصوت غير صوت الضمير ولاعتبار غير اعتبار العدل المجرد من كل هوى . فأما ان كانت المحكمة المخصوصة ليست هيئة قضائية وكانت صورة هزلية لعدل لا وجود له وانما تملى السياسة أحكامه ، فكان حريا برجل له

ما كان لبطرس من دهاء ومقدرة أن يصل من تخفيف الجور الى أقل حدوده وألا يرضى هذا التنفيذ الذى بعث الى قلب الانسانية جمعاء رعشة اشمئزاز وتقزز واستفز فى نفسها أشد المقت لعمل لا يمكن أن يكون من الانسانية المهذبة ولا من الانسانية المتوحشة فى شىء .

وكان حكم دنشواى خاتمة سيئة لحياة سياسى ماهر هو لورد كرومر . فعلى أثر صدوره وتنفيذه بدأت مكانة انكلترا ، كأمة مدنية ونظام ، تتزعزع فى نفوس المصريين على اختلاف طبقاتهم . وبعد أن كانت الوكالة البريطانية معتبرة ملجأ العدالة فى مصر وكانت ألوف العرائض والشكاوى ترفع اليها طلبا للنصفة من ظلم الحكام بل من حيف القضاء ، تراجع المتظلمون مذعورين أن فتحت أشباح المشانق والمشنوقين والمجالد والمجلودين عيونهم على منظر بشع يتردد الانسان فى التحديق به بل يولى منه فرارا ويمتلىء منه رعبا . لذلك لم تطق الوزارة الانجليزية أن تؤيد عميدها فى مصر فاضطر الى الاستقالة فى مارس سنة ١٩٠٧ كما اضطرت الحكومة البريطانية الى الموافقة على العفو ، بفضل جهاد مصطفى كامل ، عن مسجونى الدنشويين .

وخلف السير الدون غورست لورد كرومر كعميد لانكلترا فى مصر ، وأراد أن يسلك فيها سياسة أخرى هى التقرب الى الخديو الذى كان مؤيدا حتى يومئذ لمصطفى كامل وللحركة الوطنية . وربما خيل الى السير غورست يومئذ أن الخديو كان قديرا على توجيه حركة مصطفى كامل وجهة أخرى مادام هو الذى خلق هذه الحركة

وغذاها ، متناسيا أن الزعيم الشعبي مرتبط دائما بالمبادىء والمثل العليا التي نادى بها ولو اعتقد عدم امكان تنفيذها . أو لعله قصد بسياسة الاتفاق مع الخديو الى ما حدث بعدها من انفصال الحزب الوطني عن عباس الثاني ووقوفه منه موقف العداوة الصريحة في بعض الظروف . على كل حال فقد خلقت سياسة جورست في مصر جوا جديدا ووجهت الأنظار الى نواح لم تكن تتجه اليها طويلا من قبل .

ومما اتجهت اليه الأنظار يومئذ اتجاها خاصا المطالبة بالدستور وتقرير سيادة الأمة . فقد تألف حزب الأمة وجعلت الجريدة ، وعلى رأسها الأستاذ لطفي باك السيد ، يدعون الى الدستور بكل ما لديهم من قوة ، ويدللون على فساد نظام مجلس الشورى فسادا بينا . واذ كان حزب الأمة يعبر عن الرأي المعتدل في مصر فلم يكن في مقدور الحكومة ألا تستمع له في هذا الشأن . لكن وزارة مصطفى فهمي كانت قد سلخت في دست الأحكام ثلاث عشرة سنة منفذة لسياسة خاصة لاتتفق مع السياسة الجديدة التي جاء بها السير جورست ولا تتفق مع تطور المطامع المصرية . لذلك استقالت في سنة ١٩٠٨ وعهد الخديو الى بطرس باشا بتشكيل الوزارة الجديدة . فشكلها ، وكانت فاتحة أعماله فيها أن قررت الحكومة علنية جلسات مجلس الشورى وحضور الوزارة المجلس لمناقشة أعماله وللاجابة على ما يوجه اليها من الأسئلة ، وأن عينت البرنس حسين كامل ( المغفور له السلطان حسين ) رئيسا للمجلس زيادة لهيبته واحترامه . لكن هذه الخطوة الأولى كانت دون ما تطلب

الأمة بمراحل ، فلم تخفف لذلك من المطالبة بالدستور بل زادتها قوة واندفاعا . واذ كان بطرس يميل الى تحقيق هذا المطلب فقد سعى سعيه لدى معتمد انكلترا كى يضع نظاما يقرب مصر من الحكم الذاتى .

وكان السير جورست لما يصل أمام الرأى العام البريطانى الى شيء من مثل مكانة لورد كرومر . لذلك رأى أن حركة الصحافة حركة عنيفة فى مصر قد تحول بينه وبين موافقة الحكومة البريطانية على طلب الحكومة المصرية ، كما رأى أن حالة الأمن ليست كذلك مما يؤيده عند وزارة خارجيته . لذلك طلب أن يبعث قانون الصحافة الذى سن فى سنة ١٨٨٢ مبيحا للادارة حق انذار الصحف وتعطيلها ، وأن يوضع قانون النفى الادارى لارهاب الجناة . والظاهر أن حرص بطرس باشا على تحقيق خطوة جديدة فى سبيل الحكم الذاتى كان شديدا . وكثيرا ما يلجأ السياسى الشديد الحرص على تحقيق غاية معينة يراها ذات خطر فى حياة أمته ، الى قبول أشياء لا يقبلها غيره ، ما دام يعتقدها أشياء مؤقتة قليلا ضررها الى جانب الغاية العظيمة المرجوة . لذلك لجأ بطرس بازاء رفض زميليه سعد زغلول ومحمد سعيد لطلب المعتمد البريطانى بعث قانون الصحافة واصدار قانون النفى الادارى ، الى وساطة الخديو عندهما ، فأوفد سموه من رجاله من أقنعوهما . فصدر القانونان فى سنة ١٩٠٩ فأحدث صدورهما فى البلاد دويا هائلا ووقفت الصحافة ووقف الرأى العام يندبان الحرية المضاعة بغير ثمن الا ارضاء المطامع الانكليزية فى حرصها على قهر مصر واذلالها .

وامتدت هذه الضجة الى تناول مسألة كانت تتناول الوقت بعد الوقت فى الصحف . ولكنها تنوولت هذه المرة بحدة لم يسبق لها نظير ، ذلك أن الصحافة القبطية فى مصر كانت تدافع دائما عن بطرس باشا وكانت تتهم الصحافة الاسلامية بالتعصب الدينى فى مهاجمتها اياه . وكانت النعرة الدينية قوية فى ذلك الحين كما قدمنا . لذلك كانت العصبية الدينية تدفع الكتاب الى حدود غير معقولة ولكن لها نظائرها حتى فى أشد الأمم تحضرا . وأقرب هذه النظائر ما لا يزال يبدو الوقت بعد الوقت فى صحافة الأمم المسيحية خاصا باليهود . وكانت بعض الصحف الاسلامية من جانبها لا تنى عن مجاراة الصحف القبطية فى هذا المضمار وسبقها . على أن ما وقفنا عليه من مصادر مختلفة أكثرها اسلامى يقنعنا بأن بطرس باشا لم يكن متعصبا لأبناء طائفته تعصب عداوة لأغلبية البلاد الدينية . يؤيد ذلك أنه لما أنشأ الجمعية الخيرية القبطية فى سنة ١٨٨١ كان من بين الخطباء يوم افتتاحها الأستاذ الشيخ محمد عبده والشيخ محمد النجار وعبد الله نديم وغيرهم ، وأنه كان بعد ذلك عظيم الوفاء لكثير من أصدقائه المسلمين متصل البر بكثير من العائلات الاسلامية . من ذلك أنه كان أول من ذهب الى المغفور له الشيخ سليم البشرى على أثر اقالة الخديو اياه من مشيخة الأزهر يسأله مايستطيع أن يقدمه له من خدمة . وكان كثيرا ما يقضى حاجات أفراد من المسلمين من غير أن تكون له بهم كبير معرفة ، كما كان يصلهم صلة أبناء طائفته . على أن بره بأبناء طائفته أمر طبيعى . وخير ما سمعنا عنه فى هذا أنه كان يتوافى للأقباط جميعا كما كان يتوافى لأفراد من المسلمين ،

وأنه هو الذى صنع الطائفة القبطية فرفعها من مستواها الضعيف الذى كانت فيه الى مستوى أسمى منه بكثير . فالجمعيات القبطية والمدارس القبطية والمنشآت الخيرية القبطية يرجع الفضل فى أكثرها له هو أكثر مما يرجع لأى شخص آخر ، كما يرجع الفضل له فى فتح أبواب الوظائف العامة للأقباط أسوة بالمسلمين .

واستمر يتابع ، بالاتفاق مع المعتمد الانكليزى ، وضع النظام الجديد للهيئة النيابية المصرية . وقبل أن يتمه كى يصدر القانون به طلبت شركة قناة السويس من الحكومة المصرية مد امتيازها أربعين سنة أخرى بعد سنة ١٨٦٩ . وكانت الحكومة المصرية يومئذ مستعدة لقبول الطلب . لكن حركة الرأى العام المصرى فى هذا الشأن كانت قوية اضطر أولو الأمر معها أن يعرضوا المشروع على الجمعية العمومية المصرية وأن يعدوا بأن يكون رأيها فيه قطعيا . وفى أثناء نظر هذا المشروع بالجمعية وفى فرصة هياج الرأى العام وتوتر أعصابه ، فكر ابراهيم ناصف الوردانى فى قتل بطرس معتبرا اياه خائنا لوطنه بسبب توقيعه اتفاقية السودان ورياسته محكمة دنشواى روت « الجريدة » الصادرة فى ٢١ فبراير سنة ١٩١٠ وصفا للحادث ما نصه : « بقى — الباشا — كذلك حتى كان يوم أمس نزل كعادته فى جماعة من الموظفين ، وعند باب نظارة الحقانية صافحهم وانصرف ومعه النائب العمومى ، فما كاد يضع رجله على سلم عربته حتى أصابه الرصاص المتعاقب من غدارة شاب لعب الشباب برأسه وتصور ما تصور وتجسمت فى نفسه الخيالات فلم ترعه هيبة الوزير ولا وقار الشيخ ولا خوف العقاب ... أصابه الرصاص فى العنق والكتف

والبطن فخر صريعا فحمل الى أودة ناظر الحقانية ثم الى مستشفى الدكتور ملتون . وهناك زاره سمو الخديو وجميع الوزراء والسير جورست والأمراء واعيان الأمة وكلهم يرجون له الشفاء العاجل . فلما كانت الساعة السادسة عملت له عملية جراحية لاخراج الرصاصة الباقية ، ولكن كانت . مع الأسف . قد نسفت الأمعاء ونفذت فى صدر المعدة » .

وقضى رحمه الله فى الساعة الثامنة والربع من صبيحة يوم ٢١ فبراير سنة ١٩١٠ ودفن فى اليوم التالى فى مشهد مهيب . واليوم ترقد رفاته فى كنيسته القائمة على جانب شارع الملكة نازلى الذى كان من قبل شارع عباس .

* * *

هذه حياة بطرس غالى . والقارىء يرى كيف كانت حياة سياسى عظيم ومحسن كبير . ولئن كان قد أخطأ التقدير فى بعض مواقفه فهو لم يقصد يوما الى غير خدمة بلاده . ولذلك كانت آخر كلمة فاه بها حين احتضاره « يعلم الله انى ما أردت غير الخير لبلادى » . وكانت كلمة حق .

# مصطفى كامل باشا

فى عصر يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ بينما أنا جالس مع أحد زملائى طلبة مدرسة الحقوق الخديوية اذ ذاك على باب داره ، جاز الطريق أمامنا رجل ممتط جوادا ، فلما كان بأزائنا وقف برهة فحيانا وقال : «أبقى الله حياتكم ، الباشا توفى» . وكان زميلى من المتشيعين للحزب الوطنى المتطرفين فى تشيعهم . فلما سمع قول الناعى سأله فى لهفة : مصطفى باشا كامل ؟ فأجابه الرجل منطلقا جواده : نعم ! ولكم طول البقاء ! . وتركنا أنا وصاحبى واجمين من هول الخبر وان كان حديث الباشا ومرضه والخوف على حياته بعض ما تواتر فى ذلك الحين . وبعد زمن قصير تركت صاحبى عائدا الى بيتى فألفيت على الناس فى الشوارع والحوانيت من أثر الذهول ما يدل على أن نعى الباشا اليهم مس من قلوبهم أدق أوتار الحزن والألم . ولم يستقر بى المقام فى البيت دقائق حتى جاء زميل يبلغنى الخبر ويعلن الى ما قررته المدارس كلها من الاشتراك فى تشييع جنازة الزعيم العظيم : وكان يوم ١١ فبراير يوم حداد عام فى العاصمة وفى مصر كلها لم يشغل الناس شىء فيه غير جنازة الزعيم الشاب . فالمدارس والهيئات الوطنية كلها كانت تفكر فى تنظيم الجنازة ، وأهل الريف كانوا يفدون من أطراف البلاد للاشتراك فيها ، والحكومة كانت تعد وسائل الأمن والنظام ، والأجانب الذين رأوا العاصمة جللت بالسواد ورأوا أهلها اتشحوا بأسباب الحداد كانوا يفكرون فى العمق

الذى تغلغل اليه الروح الوطنى من سويداء نفس هذه الأمة . فلما سار النعش يحمله على أعناقهم أهل دنشواى الذين حكمت المحكمة المخصوصة عليهم ، ثم كان لسعى مصطفى كامل أكبر الأثر فى العفو عنهم ، صمت كل ما فى المدينة ولم يبق بها أثر لحياة الا فى مشهد وداع هذا الراحل رحلة الأبد . قال المرحوم قاسم أمين فى كلماته التى نشرت بعد موته ، أى بعد شهرين اثنين من وفاة مصطفى كامل:

« ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق : المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواى .

« رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلبا مجروحا وزورا مخنوقا ودهشة عصبية بادية فى الأيدى وفى الأصوات . كان الحزن على جميع الوجوه . حزن ساكن مستسلم للقوة ، مختلط بشىء من الدهشة والذهول . ترى الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات متقطعة وهيئة بائسة . منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين فى دار ميت كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف فى كل مكان من المدينة .

« ولكن هذا الاخاء فى الشعور بقى مكتوما فى النفوس لم يجد سبيلا يخرج منه فلم يبرز بروزا واضحا حتى يراه كل انسان .

« أما فى يوم الاحتفال بجنازة صاحب ( اللواء ) فقد ظهر ذلك الشعور ساطعا فى قوة جماله وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها فى العاصمة ووصل صدى دويها الى جميع أنحاء القطر .

« هذا الاحساس الجديد ، هذا المولود الحديث الذى خرج من أحشاء الأمة ، من دمها وأعصابها ، هو الأمل الذى يبتسم فى

وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذى يرسل حرارته الى قلوبنا الجامدة الباردة ، هو المستقبل » .

ولم يكن عجيبا أن يكتب قاسم أمين على هدوء نفسه وحسن تقديره هذا الذى كتب . ولم يكن عجيبا أن يحرك مصر من أقصاها الى أقصاها الحزن لوفاة الزعيم الشاب . فقد جاء به القدر فى فترة من فترات حياة هذا الوطن حين بدأت الأمة تنسى مظالم الماضى أيام حكم اسماعيل وتشعر بشدة وطأة الحكم البريطانى الذى قام على أساس من المصالح المادية وحدها فلم يعن الا بتخفيف الأعباء المالية ناسيا كل اعتبار غير تخفيض الضرائب . ليخيم على البلاد الجهل ، وليكون الغرض الأسمى من التعليم خلق الموظفين ، وليشعر المصريون بافتقارهم للحاكم البريطانى ولضعفهم أمامه ، فذلك كله هين ويسير مادامت الضرائب المرهقة ومادامت السخرية والكرباج قد ألغيت . فى هذه الفترة التى شعرت فيها الأمة بالحاجة المعنوية للعزة القومية وللكرامة الانسانية ، بعث القدر مصطفى بشيرا بهذه الحاجات السامية رفيع الصوت عالى الكلمة طلق اللسان قوى الجنان حلو الأسلوب يتغنى لقومه بما تشعر به نفوسهم فى غور أعماقها . فكان طبيعيا أن يلتف الظمأى حول هذا الورد من الكلام السائغ يسمعون عنده الأناشيد التى تطرب لها نفوسهم وتهتز لها قلوبهم ويجد فيها شعورهم الحبيس منفذا ومتنفسا . ليكن ذلك الكلام غير ذى غناء ، ولتبق القوة الغاشمة قديرة على أن تسير فى طريقها ، ترفع من شأن المصالح المادية على حساب حاجات النفس المعنوية ، فلن يغير ذلك من قيمة هذا الذى يشدو باسم الوطن ومن محبة

الناس له شيئا . ألست ترى الى الجمع الحافل من العمال يسد جوعه على مائدة ذى المال جزاء كدحه طول نهاره . ثم ما يلبث أن يذهب لسماع الشاعر أو المغنى يروى عنده ظمأ روحه . وهو لهذا المغنى أشد حبا منه لمن يمسك عليه حياته المادية . لأنه يحس فى الشاعر معنى انسانيا ، فى حين أن سعيه لدى المالك وجزاءه من سعيه لا يجزيه الا الابقاء على حياته الحيوانية البحتة .

لذلك كان جزاء وفاقا أن تحزن مصر على شاعر الوطنية العظيم مصطفى كامل . وكان حقا أن يرى قاسم أمين فى وحدة هذا الشعور بفقد الزعيم الشاب الذى كرس حياته ليتغنى باسم مصر وليعلن أنه وهبها حياته ، وحدة فى الأمل الكبير بمستقبل زاهر .

* * *

ولد مصطفى كامل فى سنة ١٨٧٤ ، أى فى السنة التى ولد فيها الخديو عباس حلمى الثانى . وقد بعث به أبوه على أفندى محمد ، وكان مهندسا ، الى مدرسة أم عباس ، فمدرسة القربية الابتدائيتين حيث تلقى دراسته الأولى . وفى أواخر أيامه بهما توفى أبوه وكفله أخوه حسين واصف باشا وزير الأشغال السابق . وبعد الدراسة الابتدائية التحق بالمدرسة التجهيزية — الخديوية الآن — لتلقى دراسته الثانوية . وفيها ظهر جريئا أكثر من زملائه جميعا . وجرأته هى التى جعلته دون سائر اخوانه يذهب بنفسه فيقابل ناظر المعارف اذ ذاك على باشا مبارك يشكو له حيف نظام الامتحان حيث أدى الى رسوبه ورسوب زملائه . واعجاب ناظر المعارف بهذه الجرأة هو الذى جعله يعدل عن هذا النظام فيؤدى ذلك الى نجاح مصطفى

وكثيرين من زملائه . فلما أتم دراسته الثانوية التحق بمدرسة الحقوق الخديوية فى العام المدرسى ١٨٩١ — ١٨٩٢ . ومن ذلك التاريخ بدأ ينشر رسائل ومقالات فى الصحف ، كما أنه ، على مايذكر مؤرخوه ومن بينهم مدام جوليت آدم ، ارتبط بالخديو السابق عباس حلمى الثانى برابطة كانت ذات أثر مباشر فى حياته كلها بعد ذلك .

ولم يكن مصطفى كامل هو وحده الشاب الذى اصطفاه عباس الثانى ، ولا كان هو وحده الذى أثر ارتباطه به فى حياته ، بل لقد اصطفى كثيرين من الشبان يومئذ ممن توسم فيهم الذكاء والاقدام فعاونهم فى دراستهم وعاونهم بعد الدراسة ، وأوفدهم الى أوربا لمهمات سياسية يؤيد بها سلطته ومركزه كحاكم مصر الشرعى . وسياسة عباس الثانى كانت معارضة تمام المعارضة لسياسة الانكليز ، فانه ما لبث أن تبوأ عرش أبيه وجده حتى وجد ندا له فى قصر الدوبارة لورد كرومر معتمد بريطانيا صاحبة السلطان الفعلى فى البلاد بقوتها وبجيش احتلالها وباستئثارها بكل المناصب الرئيسية فى الحكومة . وهو ما لبث أن تبوأ عرش أبيه وجده وأراد ، مدفوعا بحماسة الشباب ، أن يظهر للناس حقه وسلطانه حتى صدمته حادثة الحدود التى اضطر معها الى الاعتذار عن ملاحظته التى أبداها للقائد كتشنر حين استعراضه الجيش المصرى بالسودان . وكان المتقدمون فى السن من المصريين الذين شهدوا عهد اسماعيل ومظالم حكومته والذين رأوا حركة عرابى واشتركوا أو لم يشتركوا فيها وشهدوا فشلها وتغلب سلطان الانكليز عليها وعلى فرنسا وانفرادهم دونها

بأمر مصر — كان هؤلاء المتقدمون فى السن أشد الناس ترددا فى مشاركة الأمير الشاب ، الذى اعتلى العرش فى الثامنة عشرة من عمره. مطامعه ومطامحه ، فلم يكن يستطيع الاعتماد الا على الذين لم يهون عليهم ظلم اسماعيل استبداد الانكليز والذين لم يضعف الجهل أو البله فى نفوسهم معنى الحرية . وكان مصطفى كامل بين هؤلاء بل كان فى مقدمتهم . فقد جمع الى الشباب اقداما جاوز حدود الاقدام مع نشاط عصبى لايهدأ الا أن يهد المرض صاحبه ويقعده عن حركته الدائمة . وهو لذلك لم يقنع بدراسة الحقوق وبكتابة المقالات فى الصحف بل أنشأ ، ومايزال فى أول سنى طلب الحقوق ، مجلة أسماها المدرسة ، صدر أول أعدادها فى ١٨ فبراير سنة ١٨٩٢ وجعل نفسه بها زعيما لزملائه فى الدرس يلقى عليهم النصائح ويرشدهم الى الواجب ويقدم لهم مختلف المعلومات التى يرشده اليها اختباره الشاب فى بطون الكتب والنشرات الدورية .

وفى يونية سنة ١٨٩٢ سافر لأول مرة الى فرنسا ليؤدى امتحان الحقوق الأول بباريس . وكان طبيعيا أن تأخذ بلبه الغض حضارة الغرب وأن تؤثر فى أعصابه الحساسة مظاهر الحياة الناشطة والحرية المنظمة . وكانت فرنسا يومئذ قد أفاقت من كبوة سنة ١٨٧٠ حين قهرتها المانيا ، وجعلت تذكر فى حسرة تدليها من الصف الأول فى تصريف سياسة العالم . والشعور بالألم يحفزه الاحساس ويفيض على اللسان الشكوى والطموح والأمل . وقد تأثر مصطفى كامل بهذا أيضا كما تأثر بالحضارة وبالحرية . وزاده تأثرا معاودته الحضور للامتحان فى سنة ١٨٩٤ بباريس وفى أواخر هذه السنة بتولوز

حيث نال اجازة الحقوق . ومن ذلك اليوم انفتحت أمام خياله الشاب آفاق الحياة وآمالها . ولعل مما وجه هذه الآمال وجهتها ما وقع له مصادفة من مقابلة الكولونيل بارنج شقيق لورد كرومر ومادار بينهما من حديث كان له فى العالم السياسى قيمة وترتبت عليه حملة صحفية اشترك هو فيها فحالفه الفوز فاتجهت اليه الأنظار فرسم له القدر بذلك طريق حياته . فقد نشرت جريدة الأهرام الصادرة فى ٢٨ يناير سنة ١٨٩٥ مقالا عنوانه ( حديث ذو شأن ) موقعا بامضاء مصطفى كامل حاويا لما دار بين المصرى الشاب وبين الضابط الانجليزى من مناقشة أفضى فيها الضابط بكل سياسة انجلترا فى مصر مؤيدة بالدليل القاطع الذى لايعرف حجة ولاجدلا : دليل قوة السيف والمدفع . وأفضى فيها المصرى الشاب بحجة مصر وحقها وباعتمادها لنيل هذا الحق على قوته وفى ذاته وعلى أوربا التى لا تنظر الى انكلترا فى وادى النيل بعين مطمئنة . ولعل هذه الفقرة من أقوال مصطفى كامل تفسر نشاطه فى المستقبل وتفسر السياسة التى اتبعها الى سنة ١٩٠٤ حين تم الاتفاق الودى بين فرنسا وانكلترا اتفاقا انضمت اليه ألمانيا والنمسا . قال مصطفى : « ان لمصر أن تأمل من أوربا نجاتها وخلاصها ..... ولنا أوربا بأسرها التى تناديها صوالحها العدة بأن تنصرنا نصرة لتلك الصوالح التى سعيتم من يوم احتلالكم البلاد فى تقويض أركانها » .

وربما كان للخديو ومصطفى كامل ولكثير من المصريين يومئذ العذر فى اعتمادهم على أوربا والتجائهم الى بعض دولها لمناوأة البعض الآخر . فلم تكن سياسة أوربا الاستعمارية قد استقرت

يومئذ على أساس ارتضته دولها الكبرى واطمأنت معه كل واحدة منها الى أنها نالت من الغنيمة الحظ الذى يكفيها . والتى تكفى قواها للدفاع عنه ولاستغلاله وامتصاص دمه . بل كانت المنافسات ما تزال على أشدها بين انكلترا وفرنسا . وكانت ألمانيا الناشئة متطلعة الى مثل الامبراطورية البريطانية . وكانت النمسا تنظر الى ما ضيها بين الوجل اذ تراه يرتجف . وكانت سياسة الباب العالى فى الاستانة قائمة على الاستفادة من هذه المنافسات الدولية . فلم لا تقوم سياسة مصر على هذه القاعدة أيضا ؟ ولم لا تستفيد مصر من تطلع هذه الدول جميعا اليها لتتخلص منها جميعا ولتصل الى نوع من الحيدة يكفل لها ولو الاستقلال الداخلى الواسع النطاق الذى وصل اليه اسماعيل باشا ؟ .

والواقع أن فرنسا كانت ما تزال دامية الجرح لفشل سياستها بمصر بعد احجامها عن الاشتراك مع انكلترا فى التدخل المسلح سنة ١٨٨٢ . وكان ألمها أشد لأن هذه الضربة كانت فى حكم القاضية على ما نالته فى وادى النيل من نفوذ منذ حملة نابليون فى سنة ١٨٧٩ ، ومنذ اصطفائها محمد على وسعيد من بعده ، ومنذ قيامها بحفر قناة السويس ونشر الثقافة الفرنسية فى بلاد الفراعنة . وزاد الجرح ايلاما أن الفشل لم يقف عند مصر بل تناول نفوذ فرنسا فى الشرق الأقصى بسبب تغلب انكلترا عليها فى الهند وفى غير الهند من الممتلكات .

وقد أراد الخديو مستترا وأراد مصطفى كامل أن يستفيد من هذه السياسة غاية الاستفادة . وكانت القاعدة التى رسمت أن

تطالب الدول الأوربية انكلترا بتنفيذ وعدها بالجلاء عن مصر ، وأن تدفع الدول الأوربية الى هذه المطالبة ببيان ماتقوم به انكلترا فى وادى النيل من أعمال تدل على قصدها البقاء فيه . وكان حديث مصطفى كامل مع كابتن بارنج خطوة أولى وخطوة قوية فى هذا السبيل . ولم تمض على هذه الخطوة أسابيع حتى استصدرت انكلترا من الحكومة المصرية دكريتو بتأليف محكمة مخصوصة تحاكم المصريين الذين يعتدون على جنود جيش الاحتلال أو ضباطه . وانتهز مصطفى كامل الفرصة للاستفادة من هذا الحادث أيضا . ثم كان أن جاء مسيو دلونكل عضو مجلس النواب الفرنسى الى مصر ، فى ٢١ مارس سنة ١٨٩٥ . ولعله وحده ، بل لعل الحكومة الفرنسية وحدها لم يكونا السبب فى حضوره . وقد استقبله مصطفى كامل بالاسكندرية وظل معه يصل بينه وبين المصريين من الطبقات المختلفة حتى غادر مصر عائدا الى بلاده فى ١٣ ابريل من ذلك العام . وفى يوم ١١ ابريل أولم دلنكل للصحفيين بالاسكندرية وخطبهم فرد عليه مصطفى كامل شاكرا اياه وشاكرا فرنسا منتظرا منها معونة مصر وتأييدها .

ويذكر المرحوم على بك فهمى كامل فى السيرة التى وضعها لأخيه أنه بعد أيام من ذلك وساعة سفر على مع الأورطة البيادة الأولى أسر اليه مصطفى بأنه مسافر الى باريس . وقد دهش على لهذا السفر المفاجىء على غير ميعاد وبلا سبب . وربما دهش له لسبب آخر حين ذكر له أخوه أن سفره انما تدعو اليه « المسألة المصرية » لما يقتضيه هذا السفر وهذه المسألة والدعوة لها من طائل النفقة .

وسافر مصطفى الى باريس . والحق أنه قام بالدعوة فيها بطريقة تدل على مهارة لاتتاح لفرد . بل تدبرها جماعة . وعلى نشاط لايؤتاه كثيرون . فذكر بديا أنه موفد من قبل الحزب الوطنى المصرى . والحزب الوطنى على ما نعرفه نحن اليوم وعلى ما خلفه مصطفى كامل فى سنة ١٩٠٨ لم يكن له وجود فى سنة ١٨٩٥ . لكن الحزب الوطنى هو الاسم الذى كان يطلق على العرابيين . واذن فهو يذكر الفرنسيين بهذا الحزب الذى تغلب عليه الانكليز وحدهم حين تنحى الفرنسيون عن وادى النيل .

ثم انه جعل أساس دعوته فضلا عن ذلاقة لسانه لوحة فنية بديعة لم يذكر لنا مؤرخوه من الذى نقشها ومن الذى أمر بنقشها ، وتمثل هذه اللوحة فرنسا واقفة فى قوس نصر قام على نصب رفيع يجرى النيل من تحته ، وقد قامت مصر على شاطئه مقيدة يحرسها جندى بريطانى ، وتقدم جماعة من المصريين الى فرنسا يستنجدونها لتفك أسار وطنهم . ونقش على اللوحة بالعربية وبالفرنسية هذه الأبيات :

أفرنسا يامن رفعت البلايا ... عن شعوب تهزها ذكراك
انصرى مصر ان مصر بسوء ... واحفظى النيل من مهاوى الهلاك
وانشرى فى الورى الحقائق حتى ... تجتلى الخير أمة تهواك

ومن هذه اللوحة طبعت ألوف وزعت فى أنحاء العالم ونشرت فى كل صحيفة بعد أن قدمها مصطفى كامل بعريضة الى رئيس مجلس النواب الفرنسى نيابة عن المجلس . ومما جاء فى هذه العريضة قوله : « جاءت الأمة المصرية تستغيث بهذه الأمة الكريمة — فرنسا — التى حررت عدة من الأمم ، فهل تجاب الى استغاثتها وتضرعها ؟

وهل لفرنسا أن تؤيد بهذا العمل الجليل مكانتها فى العالم الاسلامى الواثق بها ؟ على أن ذكر اسم مصر عندما تكون حرة مستقلة بجانب الأمم العديدة التى حررتها فرنسا ليس بالفخار القليل لها .. فلتحى فرنسا محررة الأمم » .

كان لهذا العمل الذى قام به مصطفى كامل نيابة عما سماه الحزب الوطنى ضجة كبيرة فى العالم لفتت اليه الأنظار من كل صوب وجعلت الصحف فى مختلف الدول تهتف باسمه ، خلا الصحف الانكليزية التى تناولت هذا العمل بالتقريع وعزته الى مقامات خاصة فى مصر . وشد هذا النجاح الأول من عزيمة مصطفى كامل ومكن له من الاتصال بكبار الساسة وما يزال فى مقتبل شبابه . وزاده جرأة واقداما فجعل يطوف عواصم أوربا يتحدث فيها الى الصحفيين والساسة مذكرا اياهم بوعود انكلترا بالجلاء عن مصر وبمصالح دولهم فى أن يتم هذا الجلاء . ثم عاد الى باريس فنشر فيها رسالة عن أخطار الاحتلال الانكليزى لمصر . وفى ١٣ نوفمبر سنة ١٨٩٥ كتب الى لورد سالسبرى ردا على خطاب كان الوزير الانكليزى قد ألقاه فى جلد هول عن سياسة أوربا نحو تركيا . وفى خطابه دافع مصطفى كامل عن المسلمين وعن دولة الخلافة . وفى ٣ يناير سنة ١٨٩٦ كتب الى المستر جلادستون يطلب اليه ، رغم وجوده بعيدا عن الحكم ، تصريحا فى شأن مصر . فأجابه جلادستون بخطاب وردت فيه العبارة المأثورة : « وانى زمن الجلاء فيما أعلم منذ سنين » . وعاد بعد ذلك الى مصر حيث أقام بها حتى أغسطس اذ شد رحاله الى أوربا من جديد . وأثناء مقامه بمصر ألقى خطابه الأول بالاسكندرية

كما كثر المتصلون به من المصريين . وفى هذه الفترة أيضا نشرت له جريدة الاكلير الفرنسية التى تصدر بباريس حديثا عن الحملة المصرية الانكليزية الى السودان معتبرا اياها وسيلة الى اطالة أمد الاحتلال الانكليزى اطالة لا نهاية لها . وفى هذه الفترة أيضا اتصل علنا بالخديو اتصالا زاد العلاقات بين لورد كرومر وعباس توترا . ثم سافر فى أول أغسطس الى باريس حيث استمر هناك فى نشر الدعوة لمصر على أمل أن يحمل فرنسا وغيرها من دول أوربا على التدخل لمصلحتها . وفى هذه المرة كان يذكر الخديو عباس وميوله نحو مصر وأن « خطته هى انتظار الظروف ليستعد أحسن استعداد للوثوب والنزال لاسترداد حقوق البلاد المهضومة » . ولم يغفل ذكر المسلمين والخليفة ، وبعد أن قام بنشر الدعوة فى باريس سافر الى برلين ومنها الى فينا فالآستانة حيث وصلها فى أواخر أكتوبر وقابل فيها جلالة السلطان . قال فى كتاب له الى أخيه على فهمى كامل : « وكان جلالته ، كما أبلغنى الباشكاتب ، يود الانعام على برتبة أو نيشان ولكنى أظهرت عدم رغبتى فى شىء من ذلك حتى لا تروج بضاعة الأعداء ضدى ويتهمنى أبناء الوطن العزيز بالعمل حبا فى الظهور وفى مثل هذه الألقاب الكاذبة » .

وكذلك جعل من أوربا ميدان نشاطه السياسى فكان يقضى فيها معظم شهور السنة متنقلا بين عواصمها متحدثا الى رجال الصحافة والسياسة فيها داعيا اياهم ليستوفوا انكلترا وعودها بالجلاء عن مصر متحدثا عن المصريين تارة وعن المسلمين طورا ، كل ذلك فى لهجة أدنى الى الاعتدال وان وصفها الانكليز بالتطرف . وقد بقيت

من أساليبه فى الدعاية السياسية اذ ذاك تلغرافات الاحتجاج على ضرب الاسكندرية وغير ضرب الاسكندرية من الحوادث التى أدت الى الاحتلال البريطانى لمصر . لكن السياسة الانكليزية من جانبها كانت جادة فى السعى لتحقيق ما أفضى به الكولونيل بارنج الى مصطفى كامل مما نشره فى يناير سنة ١٨٩٥ . فكانت الحملة لاسترداد السودان واسترداده بالفعل وعقد اتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ وفتور الدول وفى مقدمتها فرنسا عن القيام بأى سعى جدى لمناوأة انكلترا فى مصر . ولكن ذلك لم يفت فى عضد مصطفى كامل ولم يضعف من نشاطه واقدامه وان يكن قد دعاه أو دعا الذين يعمل معهم للتفكير فى وسائل أخرى . وكان الالتجاء الى الباب العالى بعض هذه الوسائل .

ولعل التفكير فى هذا الالتجاء كان من أثر انتصار الدولة العلية فى الحرب البلقانية . وفى هذه الأثناء كثر تردد مصطفى كامل على الآستانة وازداد اعجاب السلطان عبد الحميد به فأنعم عليه فى سنة ١٨٩٩ برتبة المتميز ثم بالرتبة الأولى ، وذلك فى ظرف شهرين اثنين كما أنعم عليه برتبة الباشوية بعد ذلك بسنين قلائل .

ولم يكن فى مقدور تركيا أن تقاوم انكلترا فى مصر أكثر مما تقاومها أية دولة من الدول الأوربية . وهذه الظروف مجتمعة دعت مصطفى كامل والذين يعمل معهم ليروا عقم سياسة الاقتصار على نشر الدعوة فى أوربا وحدها والاعتماد على الدول لاجلاء انكلترا عن مصر ، وليفكروا فى استنهاض الشعب المصرى نفسه بالتعليم وبدعوته لتقدير عزته القومية وكرامته الوطنية . وبهذه الفكرة

تأسست مدرسة مصطفى كامل فى سنة ١٨٩٩ وصدرت جريدة اللواء فى ٢ يناير سنة ١٩٠٠ . ومن ذلك الحين قامت سياسة مصطفى على أساس من توثيق عرى روابط مصر بتركيا باعتبارها الدولة المتبوعة من جهة والدولة الاسلامية القوية التى يمكن أن تتجه الشعوب الاسلامية لها بالرجاء من جهة أخرى . أما فيما يتعلق بسائر الدول الأوربية فقد ضعف رجاؤه فيها وان ظل مستمسكا منه بخيوط لعلها كانت بقية ذلك الأمل القوى القديم الذى جعله يرفع صوته عاليا خمس سنوات تباعا فى عواصم أوربا ، أو لعلها الحرص الطبيعى فى الانسان على ألا ينكر شيئا من ماضيه . أما سياسته فى استنهاض الشعب المصرى فكانت تقوم على غرس الكراهية فى نفوس المصريين للانكليز وحكمهم مصر وملء النفس المصرية بالايمان بحق الوطن وبالتفانى فى محبته والاخلاص له وبالأمل دائما فى ثمرة السعى الصالح لفائدته .

وعجيب مع ذلك كله ، ومع أن مصطفى كامل كان ذكيا جريئا ، ومع أنه أمضى ما أمضى من السنين فى أوربا ، ومع اعجابه بالمدنية الأوربية اعجابا تكرر ذكره فى كتبه ورسائله — عجيب مع ذلك أنه كان رجعيا فى دعوته الاجتماعية . فلقد ظهر كتاب المرحوم قاسم أمين عن تحرير المرأة فى سنة ١٨٩٩ . وكان منطقيا أن يلقى التأييد الحار من جريدة الزعيم الشاب أول ظهورها فى يناير سنة ١٩٠٠ . لكن الأمر كان على نقيض ذلك . فقد كان اللواء خصما لدودا لقاسم أمين ولأفكاره وكان ميدانا لأشد المطاعن عليه . وظل اللواء كذلك فى شأن الاصلاحات الاجتماعية كلها محافظا بل رجعيا مستمسكا بالقديم

أشد الاستمساك . ولئن جاز لنا أن نعلل خصومته لقاسم أمين بما لقيه قاسم من تجهم الخديو له تجهما حرم عليه وهو مستشار بحكمة الاستئناف أن يدخل القصر فان تعليل رجعية اللواء فى الشؤون الاجتماعية قد يبدو عسيرا الا اذا كانت العلة هى بعينها التى دفعت الأمير ورجاله للوقوف فى وجه قاسم وأفكاره . هذه العلة فى رأينا هى تمليق الشعب فيما هو عزيز عليه من عادات وأوهام لاستغلاله فى الغايات السياسية التى يريد الأمراء والملوك استغلاله فيها . وتلك هى علة تمليق الأمراء والملوك والدعاة السياسيين لرجال الدين لأنهم حفظة هذه العادات والأوهام . فلو أن عباسا أو لو أن مصطفى كامل عضد قاسما فى رأيه فى تحرير المرأة لأدى ذلك الى فتور الشعب عنهم وتردده فى اتباعهم . ولو أن عباسا أو لو أن مصطفى كامل أراد أن يهز أوهام السواد فى الناحية التى تعرض الشيخ محمد عبده لهزها لفتر الشعب كذلك وتردد . والداعية السياسى تاجر يزن الأمور والحقائق بنتائجها لا بقيمتها الصحيحة ولا بما تحتويه . وما دام غرس كراهية الاحتلال البريطانى فى نفوس المصريين وملء قلوبهم بالايمان الوطنى يعوق سبيل الدعوة للاصلاح الاجتماعى فليكن الداعية السياسى وليكن الأمير محافظا بل رجعيا بل عدوا ظاهرا محاربا لكل فكرة حرة .

ونجحت دعوة مصطفى كامل أعظم نجاح . ذلك بأن نفوس الشباب فى مصر كانت متعطشة الى نغمة جديدة تحيى فيها الأمل بحياة عزيزة . وكانت هذه النغمة قد اختفت منذ الحوادث العرابية الى أن جاء مصطفى كامل . وبرغم وجود كثيرين من ذوى مقدرة لا تقل عن مقدرته وذوى تفكير أنضج من تفكيره ، فلم يكن أحد

منهم فى اقدامه ولم تكن حميـــة الشباب ملتهبة فى نفس التهابها فى نفسه . وعاون على نجاحه أسلوب جديد فى الخطابة لم يكن مألوفا من قبل ، هو الأسلوب الوجدانى الذى امتازت به خطابات الثورة الفرنساوية . هذا الأسلوب المعتمد على الجمل الضخمة التى تندفع بها المجاميع من غير روية عادة الى الغاية التى يريدها الزعماء : « لا معنى للحياة مـع اليـــأس ، ولا معنى لليأس مع الحيـــاة » « بلادى بلادى ، لك حبي وفؤادى ، لك حياتى ووجودى ، لك دمى ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لبى وجنـــانى ، فأنت أنت الحياة ، ولا حياة الا بك يامصر » « لو انتقل قلبى من الشمال الى اليمين ... الخ » بهذا الأسلوب الوجدانى وبقوته الخطابية النادرة المثال وبمخاطبته شعور الشبيبة وباستنهاضه همتها وبأناشيده عن الوطن ومحبته وارتقائه ، بذلك كله استطاع الزعيم الشاب أن ينهض بأعباء دعوته مؤيدا من الخديو عباس وأصدقائه بادىء الأمر ، شاعرا بقوته بعد ذلك ، ممليا ارادته على الذين كانوا يملون من قبل عليه ارادتهم ، مستأثرا بكل أمـــر وبكل رأى ، مطاعا من كل أنصاره وأتباعه الذين لم يتسام واحد منهم ليتطلع الى مثل مكانته ، متقدما دائما الى الأمام يتبعه شباب الأمة كلها ، رافعا بذلك عـــلم النهضة مرددا نشيد الأمل فى المجد والعظمة بصوت تهتز له الأفئدة وتخفق له الجوانح فلا تعرف الخطر ولا تأبه له ولا تشعر باقترابه ولا بوقوعه .

وبازاء هـــذه الحركة الوطنية المتدفقة حرارة وايمانا لم يكن لانجلترا الا أن تضاعف المجهود لبلوغ غاياتها السياسية فى مصر .

ولم يكن لورد كرومر ممثلها فى مصر يومئذ بالرجل الذى يستهان به . فحارب هذه الحركة وطعنها من جانبين . واتهمها بالتعصب الاسلامى ليستثير أوربا المسيحية . واتهمها بالعداوة للأجانب ليؤلب الدول فى صف انجلترا . وما أيسر ما تصدق الأذن الأوربية كلمة التعصب الاسلامى وعداوة المصريين المسلمين للأجانب المسيحيين . لذلك أنفق مصطفى كامل كثيرا من جهوده فى مصر وفى أوربا لنفى التهمتين ، وكان من ذلك أن أنشأ جريدتين فى مصر احداهما فرنسية والأخرى انكليزية . على أن انكلترا لم تقف من مجهوداتها عند هذا الحد . بل واصلت المسعى السياسى حتى عقدت الاتفاق الودى مع فرنسا فى ٨ يناير سنة ١٩٠٤ وبه حصلت على اطلاق يدها فى مصر على ألا تغير نظام مصر السياسى . وأقرت ألمانيا والنمسا هذا الاتفاق ، فأقرت الدول الثلاث بذلك معاهدة السودان التى عقدت فى سنة ١٨٩٩ . وبهذا الاتفاق الودى انهار ركن من أهم أركان سياسة مصطفى كامل . بل انهار مجهوده منذ سنة ١٨٩٥ الى سنة ١٩٠٠ حين كان كل عمله التجوال فى عواصم أوربا لاستفزاز دولها كى يقتضوا انكلترا تنفيذ وعودها بالجلاء عن وادى النيل .

والواقع أن هذا الحادث صدم المصريين يومئذ صدمة قوية . فرنسا هذه التى طالما علقت مصر عليها الآمال ، فرنسا التى رفعت البلايا عن شعوب تهزها ذكراها ، فرنسا محررة الأمم ومعلنة حقوق الانسان والمنادية بالحرية والأخاء والمساواة ، هى التى تمضى الاتفاق الودى تؤيد به سياسة الاستعمار فتترك انكلترا تطلق يدها فى مصر

مقابل ترك انكلترا اياها تطلق يدها فى مراكش !! ياخيبة الأمل ! وأين اذن محل الرجاء .

لكن « لا معنى للحياة مع اليأس ، ولا معنى لليأس مع الحياة » ! فلنجاهد . واستمر مصطفى كامل فى جهاده ، وما يزال له فى دولة الخلافة بعض الرجاء وما تزال دعوة الشعوب الاسلامية للالتفاف حول دولة الخلافة كوسيلة لتحررها محور دعوته . فلما كانت أوائل سنة ١٩٠٦ حدث ما زعزع من رجاء مصر فى الدولة العلية هى الأخرى . ذلك أن أعادت تركيا الخلاف الذى أحدثته حين تبوأ عباس عرش أبيه فى سنة ١٨٩٢ بأن أرادت أن تخرج شبه جزيرة سينا من الأراضى المصرية ، فوقفت انكلترا وأصرت على أن تكون حدود مصر هى المبينة فى الفرمان الذى أصدره السلطان لاسماعيل باشا فى سنة ١٨٧٣ . وقد قبلت تركيا ذلك فى تلغراف أرسله الباب العالى فى ٨ يناير سنة ١٨٩٥ . لكنها أرادت أن تفسر هذا التلغراف فى سنة ١٩٠٦ تفسيرا خاصا فتجعل حدود مصر تنحدر من رفح الى السويس فالى العقبة . فوقفت انكلترا مرة أخرى . ولما احتلت القوة التركية طابة ، وهى قرية على مقربة من العقبة داخلة ضمن الحدود المصرية ، خاطب السير ادوارد جراى وزير الخارجيـــة البريطانية اذ ذاك سفير تركيا فى لندرة بما معناه : ان قوات الامبراطورية على استعداد لتأييد مركز انكلترا فى مصر . وقد استمرت المشادة فى هذا الموضوع بين تركيا وانكلترا زمنا وقف أثناءه مصطفى كامل بجانب تركيا يدافع عن مطالب دولة الخلافة جهد طاقته على أن تركيا انتهت آخر الأمر بالتسليم بمطالب انكلترا ، فكانت هزيمة مسقطة لكل

أمل فى معونة تركيـــا . وكذلك تداعى الركن الثانى من أركان الدعوة التى كان مصطفى كامل قائما بها .

ولقد كان من شأن تداعى هذه الأركان واحدا بعد واحـــد أن يكشف عما تستره هذه السياسة من الخيال . على أن حادثا جديدا وقف فيه مصطفى كامل موقف المدافع عن العدالة والانسانية بمعناهما الصحيح ستر ما انكشف من فساد الاعتماد على أوربا وعلى الباب العالى . ذلك هو حادث دنشواى . فقد خرج جماعة من الضباط والعساكر الانكليز من القاهرة قاصدين الاسكندرية فمروا فى طريقهم بقرية دنشواى فنزلوا لصيد الحمام بأجرانها . واعترضهم الأهالى وحدث تصادم انتهى بجرح أربعة من المصريين بينهم امرأة وباصابة بعض الضباط الانكليز اصابة فر من جرائها أحدهم الكابتن بول فأصابته ضربة شمس مات متأثرا بها . وعلى أثر هذا الحادث عقدت المحكمة المخصوصة التى شكلت بديكريتو سنة ١٨٩٥ لتنظر فى هذه القضية وحكمت على أربعة من الأهالى بالاعدام وثمانية بالجـــلد وآخرين بالأشغال الشاقة ، ونفذ هذا الحكم بطريقة همجية لا عهد للانسانية بها منذ عصورها المظلمة . فقد نصبت المشانق التى أرسلت الى قرية دنشواى قبل صدور حكم المحكمة أمام منازل الأهـــالى مباشرة ونصبت الى جانبها آلات الجلد . وغداة صدور الحكم نفذ على صورة يقشعر من هولها البدن . فكان كل محكوم عليه بالاعدام يعلق فى المشنقة ويبقى معلقا أمام أنظار أهله وأبنائه الى أن يجلدوا اثنين من المحكوم عليهم بالجلد وكان هؤلاء يجلدون بكرابيج ذات ثمانية ألسن معقود طرف كل لسان منها بقطعة من الرصاص . ومن

حول المشانق والمجالد وفوق أسطح المنازل وقف الناس من أهل هؤلاء التعساء وذويهم يشهدون جلودهم تشوى بالكرابيج وجثثهم فارقتها أرواحها معلقة فى المشانق ، ومستشار الداخلية الانكليزى واقف يحافظ على النظام لهذا المشهد الذى أبدعته انكلترا فى مطلع القرن العشرين . ما أشدها وحشية وما أتعسها حضارة ! هنا يجب أن يرتفع الصوت عاليا دفاعا عن الرحمة وعن الانسانية وعن العدالة وعن كل المعانى التى جاهدت الانسانية أجيالا وقرونا لتثبيتها فى النفوس . وأى صوت أرفع من صوت مصطفى كامل . وأى أسلوب وجدانى كأسلوبه ! وهذه الدعاية السياسية التى فشلت بازاء قوة انكلترا فى أوربا وفى مصر لابد أن تنجح اذا استغلت لكشف هذا الظلم وللاستفادة منه لتحريك النفوس . وقد نجح مصطفى كامل فى هذا أكبر نجاح . والحق أنه لم يرتكب فى التاريخ الحديث فظاعة تعدل فظاعة تنفيذ حكم دنشواى ، ولم تثر حادثة من الحوادث الشعور القومى فى مصر ما أثارته هذه الحادثة . ولقد صدق مصطفى كامل اذ قال : ان عشرات السنين كانت أقصر من أن تحيي شعور الشعب كما أحياه هذا الحادث . لذلك ظل يكتب ويخطب فى مصر وفى انكلترا بيانا لبشاعة هذا الظلم الذى بلغ من بشاعته أن اضطر لورد كرومر الى اعتزال منصبه فى مصر مع اعتراف الكل له بأنه من أقدر الساسة البريطانيين وأعظمهم أثرا فى حياة الامبراطورية .

على أن المصريين كانوا قد رأوا فشل السياسة الأولى التى جروا عليها : سياسة الاعتماد على فرنسا ثم على أوربا ثم على الباب العالى ،

وقدر جماعة منهم أن لابد من الأخذ بسياسة أخرى هى اعداد الأمة بأدوات الاستقلال من علم وخلق وغرس الايمان بنفسها فى نفسها لا لمجرد كراهية الانكليز ولا حبا فى الباب العالى ومقام الخلافة السامى ، ولكن حبا فى الاستقلال والحرية لذاتهما . وكان لطفى بك السيد وزير المعارف السابق لسان الذين فكروا هذا التفكير والذين اعتزموا لبث دعوتهم اصدار جريدة « الجريدة » . على أن نفس مصطفى كامل لم تطاوعه ليرى فى ميدان الخدمة السياسية العامة من يرى غير رأيه . لذلك هاجم « الجريدة » قبل صدورها وهو من أعرف الناس بصديقه لطفى السيد وبالذين كانوا على رأيه . ولعل هذا الخلق فى الزعيم الشاب هو الذى دعاه أن يبعث من أوربا على أثر اعلان المرحومين سعد زغلول باشا وقاسم بك أمين تشكيل لجنة لتأسيس جامعة مصرية أهلية محتجا على عملهم بأنه سبقهم الى الفكرة فيجب أن يكون تنفيذها تحت رعايته .

وخلف سير الدون جورست لورد كرومر كمعتمد لانكلترا فى مصر ، فجرى مع الخديو على سياسة غير سياسة المشادة والنزاع التى كانت سائدة بين عابدين وقصر الدوبارة الى ذلك التاريخ ، وطمع الخديو فى أن ينال من وراء هذا الاتفاق مع معتمد بريطانيا سلطة لعل السعى لها هو الذى دفع به لاصطفائه من اصطفى من الشبان ليعملوا باسم مصر كى يخليها الانكليز فتبقى السلطة فيها محصورة فى يد حفيد اسماعيل . وغير ذلك من الخديو على مصطفى كامل . وذلك شأن الملوك . يصطفون من يصطفونه مادام لهم فى ذلك مأرب خاص فاذا انقضى المأرب انصرفوا عنه وأنكروه . ثم ان مصطفى رأى

دعوة لطفى السيد الى الاستقلال التام أبعد مدى من الدعوة الى جلاء انكلترا وبقاء مصر تابعة لتركيا . لذلك قال فى الخطبة البديعة التى ألف بها الحزب الوطنى وألقاها فى تياترو زيزينيا بالاسكندرية مانصه : « فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من أمم الأرض كلها . وأننا اذا خطبنا الود لأمة أو لدولة فانما نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون » . ومع هذه الكلمة الصريحة فى المطالبة بالاستقلال والحرص عليه كانت الفقرة الأولى من برنامج الحزب الوطنى هى استقلال مصر الداخلى وفاقا لمعاهدة لندره فى سنة ١٨٤٠ . ولعل ذلك انما نص عليه تفاديا من معارضة القانون والتعرض لتهمة التآمر لقلب النظام الذى كان موجودا .

ولم يوهن فتور العلاقات بين مصطفى كامل والخديو ولا الخلاف بينه وبين الأحزاب المصرية الأخرى من همته العالية فى الدفاع عن منكوبى دنشواى . وقد كلل مسعاه بالنجاح فصدر الأمر العالى بالعفو عنهم فى عيد جلوس الخديو الذى تلا هذه الحوادث أى فى ٨ يناير سنة ١٩٠٨ .

* * *

بعد ذلك بشهر واحد كان مصطفى كامل على سرير المرض ينتظر الموت فى ثبات وصبر ، والأمة من حوله يخفق قلبها فرقا على هذا الابن البار الذى أذكى ضرام الوطنية فى شبيبتها . فلما كان يوم ١٠ فبراير طبق الموت جفنى الزعيم الشاب وما يزال فى مقتبل عمره ،

ولما يبلغ الخامسة والثلاثين . لكن هذه السنوات الثلاث عشرة التى جاهد فيها مصطفى ( من ١٨٩٥ — الى ١٩٠٨ ) هى فى الواقع حياة طويلة ؛ لأنها حياة جليلة بنشاطها وبأعمالها ، جليلة بايمانهـا وسعيها . وفى عصر ذلك اليوم بينا أنا جالس مع زميل لى من طلبة الحقوق مر بنا من نعى الزعيم لنا . وفى اليوم التالى خفق قلب مصر من أقصاها الى أقصاها حزنا عليه وجزعا ألا يخلفه من يكون مثله ذكاء ومقدرة وقوة ايمان .

وودع مصطفى هذا العالم وقد عمل لوطنه فى عشر سنوات مالم يعمله غيره فى عشرات السنين ، بل مالم تعمله أجيال بأسرها . لذلك بقيت ذكراه تحييها مصر كل عام . ومن حيث ذكراهم فأولئك لهم الخلد طى ضمير الدهر وكفى بذلك جزاء موفورا .

# قاسم بك أمين (*)

كلما ذكر اسم قاسم أمين ذكر معه تحرير المرأة فى مصر . فأول صيحة ارتفعت لهذا التحرير هى صيحة قاسم فى كتابيه : « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » . وعلى أثر هذه الصيحة قام جدل عظيم فى الموضوع ما تزال حواشيه باقية الى يومنا هذا . مع ذلك ، ومع أن قاسما لم يمت الا من عشرين سنة ، فلو انه بعث اليوم ورأى من آثار دعوته هذا التعليم الاجبارى للبنين والبنات ، وهذه النهضة النسوية العظيمة فى مختلف جوانب الحياة . وهذه الحرية النسبية التى تتمتع بها المرأة ، وهذا الاصلاح فى التشريع للأحوال الشخصية ما تم منه وما يوشك أن يتم ، اذن لأخذته الدهشة ، ثم لانقلبت دهشته اغتباطا أى اغتباط بهذه الآثار ، ثم لعقب سروره أسف على ما اضطر اليه فى كتبه من محافظة ألزمه اياها روح عصره الجامد . ثم لترك ميدان المرأة وتحريرها يسير فى طريقة الطبيعى ، ولفكر فى ميدان آخر من ميادين الاصلاح الاجتماعى الخطير الذى تحتاج مصر اليوم اليه أشد الحاجة . ولعل الأدب القومى وخلقه وتوطيده والارتفاع به الى سماوات الانتاج الذاتى الخصيب يكون بعض الميادين التى يصرف اليها بطل الجامعة المصرية منذ تأسيسها وأحد واضعى أسس هذا الأدب القومى فى كتبه الثلاثة كل مايكون لديه بعد بعثه من نشاط وجهد .

---

* اقرأ عن قاسم أمين أيضا فى « أوقات الفراغ » من ص ٩٦ـ١٤٨

ذلك بأن روح قاسم كانت روح أديب . كانت الروح العصبية الحساسة الثائرة التى لاتعرف الطمأنينة ولا تستريح الى السكون ؛ وكانت الروح المشوقة التى لاتعرف الانزواء فى كن للبحث والتنقيب حيث تنسى نفسها وتستبدل بكنها ما فى حياة الكون وحركته من نشاط وجمال . بل كانت عيونه الواسعة تريد أن ترى جدة الوجود الدائمة تتكرر مناظرها فتطبع على صفحات نفسه وحيا والهاما أكثر مما تؤدى اليها المباحث الجافة منطقا وجدلا . وكانت هذه المناظر تذكى شعوره الحساس بجمال الحياة ، وتدعوه الى الحرص على متاعه بها وعلى دعوته غيره لهذا المتاع . وذلك لايؤتاه الا رجل فن جميل لايقف عند التلذذ لنفسه بنعم الحياة ، بل يعبر لغيره عن معانى هذه النعم ! وكما يعبر الموسيقار بالنغم والمصور بالنقش والمثال بالنحت والشاعر بالوزن ، كذلك الكاتب الأديب يجد فى وصف ما فى الحياة من مختلف ألوان الجمال ما يعبر عن شعوره به ومايدعو غيره اليه . وحياة قاسم كانت كلها متجهة الى هذه الدعوة . وكانت متجهة اليها بقوة آخذة بنفسه متغلبة عليه حالة منه محل الايمان بها ايمانا صادقا .

ولد قاسم مصريا يجرى فى عروقه دم كردى ، أورثه اياه جده الأمير الكردى . وولد فى أسرة متوسطة اليسار لم يفسدها ترف الاكثار ولم تجن عليها آثار الحاجة . وتربى منذ نشأته تربية أمثاله ، ثم سافر الى فرنسا حيث درس الحقوق وعاد فى سنة ١٨٨٥ . وليس فى ظروف صباه شىء غير عادى الا أنه كان جم الحظ من الحياء مما ألزمه العكوف على نفسه وعلى درسه . وليس فى حياته بعد ذلك شىء من المجازفات التى تجذب لأصحابها أنظار الجماهير ،

بل ظل منذ أتم دراسته الى آن عاجلته منيته سنة ١٩٠٨ وهو فى ريعان قوته قاضيا ثم مستشارا بمحكمة الاستئناف . لكنه كان مع حيائه الجم عيوفا يحترم نفسه وكرامته كما يحترم الغير وحريته، فلم يجرب عليه أحد ضعة ولا ضعفا . ولعل أقدس ما كان يجله من مظاهر الحرية حرية الرأى . وتلك ظاهرة كثيرا ما تلقاها فى ذوى الحياء . فهم مع احترامهم لغيرهم ولحريته ومع مبالغتهم فى هذا الاحترام الى حد يهون معه عليهم أحيانا أن يتحملوا سوء استعمال الغير لهذه الحرية الى حد يضايقهم ، تراهم اذا أراد مريد حبس رأيهم أو محاربته توترت كل أعصابهم وانتفضوا انتفاضة الليث تبدو أنيابه ومخالبه ووقفوا مستميتين يذودون عن رأيهم ويستهينون فى سبيل ذلك بالمال والجاه وبالحرية والحياة . وذلك سر نجاحهم دائما . على أنهم لذلك لا يصدرون عن الرأى الا بعد تمحيصه وتقليبه على مختلف وجوهه والاقتناع به اقتناعا يحل منهم مكان الايمان . وهذا ما عبر عنه قاسم فى مقدمة كتابه « تحرير المرأة » حين قال : « هذه الحقيقة التى أنشرها اليوم شغلت فكرى مدة طويلة كنت فى خلالها أقلبها وأمتحنها وأحللها ، حتى اذا تجردت من كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضع الفكر منى ، وصارت تشغلنى بورودها وتنبهنى الى مزاياها وتنبهنى بالحاجة اليها ، فرأيت أن لا مناص من ابرازها من مكان الفكر الى فضاء الدعوة والذكر » .

وهذا الخلق فيه هو الذى جعله منذ عودته من دراسة الحقوق بفرنسا الى خاتمة حياته قاضيا ممتازا . فهو لم يقض يوما لينال حظوة عند أحد أو ليصفق الجمهور له . ولم يكن من بين القضاة

الذين قال عنهم : « أعرف قضاة حكموا بالظلم ليشتهروا بين الناس بالعدل . » ولم يتقيد فى قضائه بآراء الفقهاء أو أحكام المحاكم مما يعتبره أكثر القضاة حجة لامحيد عنها . بل لم يتقيد بنص القانون اذا لم يصادف هذا النص مكان الاقتناع منه . وهذا هو ما جعله ميالا للرأفة فى قضائه نافرا أشد النفور من حكم الاعدام . فقد كان يرى « أن العفو هو الوسيلة الوحيدة التى ربما تنفع لاصلاح الذنب » و « أن معاقبة الشر بالشر اضافة شر الى شر » و « أن التسامح والعفو عن كل شىء وعن كل شخص هما أحسن ما يعالج به السوء ويفيد فى اصلاح فاعله » و « أن الخطيئة هى الشىء المعتاد الذى لا محل للاستغراب منه والحال الطبيعية الملازمة لغريزة الانسان » . فاذا كانت الجماعة لم توفق بعد لادراك هذه الأفكار وكانت قوانينها التى وكل اليه تطبيقها كقاض ما تزال تجرى على سنة القصاص والانتقام وما تزال دموية متوحشة ، فلا أقل من أن يتحاشى الاعدام وهو أشد ما فيها وحشية ، وهو العقوبة الوحيدة التى لا سبيل لعلاجها اذا ظهر خطأ القاضى أو ثابت الجماعة الى رشدها ورأت تعديل أساس عقوباتها بجعل العقوبة للاصلاح لا للقصاص أو أخذت بمذهب العفو والتسامح .

وكذلك كان رأيه فى قضائه المدنى : لم يكن يتقيد بالاجراءات اذا رأى العدالة توشك أن تهدر لأن واحدا من هذه الاجراءات لم يراع المراعاة الواجبة . ثم كان أشد القضاة ميلا لمصالحة المتخاصمين ولا حلال التسامح محل النضال والحسنى مكان الشر والسوء . وهو فى هذا ككثير من القضاة والمفكرين الذين أحدثوا بأحكامهم جديدا فى العدالة وفى التشريع والذين خطوا بنصوص

القوانين الى معان تتفق مع الرقى الانسانى الذى يصدون اليه ويودون لو يتحقق . وأنت اذ تقرأ أحكامه تشعر فيها بهذه المعانى التى ربما خيل الى رجال القضاء بالمهنة أنها الى الأدب والخيال أقرب منها الى النصوص المقدسة . والتى كانت مع ذلك وسيلة التطور التشريعى فى سبيل بلوغ العدالة منازل الكمال .

وهذه الآراء المتقدمة التى اعتنقها قاسم فى نظره الى الانسان وفى تحليله نفسيته . وهذه الأعصاب الثائرة التى تهتز لكل ما فى الحياة من جمال وترجو لو يستمتع الناس به . وتربية قاسم فى وسط فرنسا الحر الذى كان متأثرا بالثورة الكبرى وبثورات سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٧٠ . ذلك كله هو الذى دفعه ليعلن رأيه فى تحرير المرأة مع علمه بما يثيره اعلان هذا الرأى عليه من حملات شعواء . فقد شعر قاسم بما شعر به كثيرون من الشبان الذى درسوا فى أوربا من ألم لما يرونه حين مقارنة الوسط الذى كانوا فيه بالوسط الذى عادوا اليه . بل لعل هذه الحال على حد تعبير الاستاذ لطفى بك السيد « اعترته على نوع أشد مناسب لمقدار اطماعه الواسعة ومداركه القوية ومشاعره الرقيقة . وربما استحالت هذه الحال بمساعدة ما به من الوقار الجنسى الى ملكة ينم عليها سكونه واطراقه ويفسرها كثير من كلماته الى حد يجعل المرء يراه متطيرا أكثر منه متفائلا » . وكثيرون ممن تعتريهم هذه الحال يثورون ثم ما يلبثون أن يهدأوا اذ يرون أنفسهم عاجزين عن أن يهزوا الوسط الذى هم فيه أو يبدعوا فيه جديدا . ولعل قاسما حدثته نفسه غير مرة بالسكوت والاكتفاء بجاهه العريض وبمنصبه العظيم . ولعله كان يصف نفسه أيضا حين كان يقول عن الشيخ

محمد عبده : « كم من مرة سمعته يؤكد أنه صمم على ألا يتداخل فى شيء من هذا القبيل ، ثم رأيته فى الغد منغمسا فيه أكثر مما كان ذلك لأنه ، بعكس ما يراه عموم المصريين فى أنفسهم ، كان عنده أمل لا يزعزعه شيء فى اصلاح أمته ، كان عنده اعتقاد متين بأن البذرة الطيبة متى ألقيت فى أرض بلادنا الخصبة نبتت وأزهرت وأثمرت كما نبتت وأزهرت وأثمرت بذور الفساد فيها . لهذا كان يلقى بملء يديه كل ما جمعه فى حياته من الأفكار الصالحة والعواطف الشريفة والتعاليم المفيدة ، كأنه كان يشعر أن حياته ليست طويلة فكان يجعل يبذل جميع ما كان عنده [1] » وكذلك لم يستطع هو أن يسمع لداعى الطمأنينة الى منصبه وجاهه بعد ما رأى أن لامناص من ابراز دعوته من مكان الفكر الى فضاء الدعوة والذكر .

وفى ظننا أن الدعوة الى تحرير المرأة من رق الجهل ورق الحجاب لم تكن كل برنامج قاسم الاجتماعى ، وانما كانت حلقة منه هى أعسر حلقاته وأعقدها . ذلك بأنه لم يقصر عليها كل جهد حياته ، بل اشتغل منذ سنة ١٩٠٦ بالدعوة لانشاء الجامعة مع صديقه سعد زغلول وشغل بهذه الجامعة وبتوطيد أركانها الى أن وافته منيته بعد ماأعد كل العدة لافتتاحها وقبيل هذا الافتتاح بأشهر معدودة . وتدل كلماته على أن برنامجه كان أوسع من مجرد تأسيس الجامعة وتركها تسير حسب ما توجهها الرياح ، وعلى أنه كان يريد أن يجعل من الجامعة خطوة لبرنامج أوسع نطاقا يتناول ثورة فى اللغة والأدب كالثورة التى أحدثها كتاباد فى تعليم المرأة وفى رفع الحجاب .

(١) تأبين الشيخ محمد عبده .

ومن نافلة القول تكرار الكلام عن برنامجه فى تحرير المرأة . فقد تناول الكتاب هذا البرنامج بالشرح والتحليل منذ أكثر من عشرين سنة . وكل ما يمكن لقارىء كتابيه « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » أن يقف عنده اليوم فى شأن برنامجه ما اضطر اليه من تحفظ يجعل أهل هذا الجيل يرون صيحة قاسم التى كانت يوم ظهرت قوية مرعبة أن هزت أركان عادات أهل عصره لا تزيد اليوم على أنها صورة للآراء والعادات المتداولة ، ونسخة من آلاف ما يكتب من نوعها وما يزيد أكثر الاحيان فى تقدمها وسبقها .

ومعنى هذا أن دعوة قاسم آتت كل ثمرها فصارت بعض عقائد الناس وآرائهم . واذا كان شيء مما دعا اليه كتنظيم تعدد الأزواج وكجعل الطلاق باذن القاضى ما يزال موضع النظر ، فان الرجاء منعقد بتمامه عما قريب ، كما أنه لم يبق من يعترضه الا الجامدون والذين فى قلوبهم مرض . على أن كتابى تحرير المرأة والمرأة الجديدة ليسا مقصورين على الدعوة الى تعليم المرأة وازالة الحجاب ، بل فيهما مذهب جديد فى التفكير والكتابة لم يكن معروفا من قبل قاسم ولم يسبقه اليه أحد ، فيهما شيء من « لروما نتسم » الغربى ومن تحليل الطبيعة الانسانية فى أرق عواطفها وأدق وجداناتها . فقد كان قاسم ينظر الى عاطفة الحب نظرة عبادة وتقديس ، وكان يقول « ان العارف يعتبر العثور على الحب الشريف أكبر السعادات فى هذه الدنيا . واذا كان المال زينة الحياة فالحب هو الحياة بعينها » [1] وكان يراه غذاء روحيا لاغنى لنفس عنه فى جميع أدوار حياته . وعنده أن « كل عشق شريف . فان كان

(١) تحرير المرأة .

بين شريفين زاد فى قيمتهما ورفع من قدرهما • وان كان بين وضيعين أكسبهما شرفا وقتيا حتى اذا زال العشق سقطت قيمتهما وانحطت مرتبتهما ورجعا الى أصلهما » • ورجل ذلك نظره للحياة أدنى الى تغليب حكم العاطفة والى اعتبارها الهادى والمرشد الأول فى الحياة • وانك اذ تقرأ فى كتابيه ما كان صادرا عنه هو غير متأثر بجدله مع غيره أو ببحوثه الفقهية التى التجأ اليها لتبرير مذهبه بازاء الشريعة الاسلامية ، اذ ذاك ترى العاطفة الحية الحساسة • عاطفة المحبة والرحمة والتسامح والسلام هى السائدة فى كل نواحى الكتاب ، وهى مقدمة كل أسبابه ونتائجه • وهل الحياة الا محبة ورحمة وتسامح وسلام ؟ وهل فى الحياة أجمل من المحبة والرحمة والتسامح والسلام ؟ وقاسم يريد بالناس أن يستمتعوا بجمال الحياة وبالحياة كلها استمتاعا كاملا • وهو لا يريد هذا على أنه مجرد دعوة لمثل أسمى قد تصل الانسانية اليه وقد لا تصل ، ولكنه يريده حقيقة تتم • وهو يريده لنفسه بمقدار ما يريده للناس ، وأكثر مما يريده للناس • وأنت ترى هذا فى كلماته التى لم تنشر للناس الا بعد موته والتى كان يرصد فيها أفكاره الخاصة لنفسه • ترى فى هذه الكلمات مبلغ ايمانه بالجمال وبالحب وبالفن الجميل • وترى مبلغ ألمه لعدم تقدير بنى وطنه بدائع الطبيعة وتصوير رجال الفن لهذه البدائع • قال : « وصلنا قصر اللوفر وكنا أربعة من المصريين لنمتع النظر بأبدع ما جادت به قرائح أعاظم الرجال فى العالم • فبعد أن تجولنا فى غرفتين جلس أحدنا على أحد الكراسى قائلا : أنا اكتفيت بما رأيت وها أنا ذا منتظركم هنا • وقال الثانى : أتبعكما لأنى أحب المشى وأعتبر هذه الزيارة رياضة

لجسمى . وسار معنا شاخصا أمامه لا يلتفت الى اليمين ولا الى اليسار وما زال كذلك حتى وصلنا قاعة المصاغ والحلى . وحينئذ تنبهت حواسه وصار ينظر الى الذهب ثم صاح : « هذا ألطف ما فى هذه الدار » ووصلنا الى تمثال الهة الجمال الفريدة فى العالم أجمع فسألت دليلنا : ماذا تساوى هذه الصورة اذا بيعت ؟ فقال : انها تساوى ثروة أغنى رجل فى العالم ، تساوى كل ما يملكه الانسان ، تساوى ما يقدره لها حائزها ويطلبه ثمنا لها اذ لا حد لقيمتها »

ومثال الجمال عند قاسم مجسم فى المرأة . واذا كانت الموسيقى وكان التصوير وكان التمثيل وكان كل مظهر من مظاهر الفنون الجميلة محببا اليه فان مصدر الوحى الذى تصدر عنه هذه الآثار جميعا هو المرأة ، هى التى تجعل للطبيعة وما فيها جمالا لأن عيونها تقع عليها ، وهى تلهم الرجال هذا الجمال لأنها تحب الزهر وعطره والنسيم وأرجه والقمرى وشدوه ولأنها تحب كل جميل . وقد لا ترى ذلك واضحا صريحا فى كتب قاسم . ولكنك تراه واضحا فى عباراته الملتهبة عن العشق والحب . وفيما قدمنا من عباراته فى تحرير المرأة وفى الكلمات ما ينهض دليلا على رأينا . وأكثر منه فى الدلالة قوله : « كلما أردت أن أتخيل السعادة تمثلت أمامى فى صورة امرأة حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل » وقوله : « الحب احساس عميق يستولى على النفس كلها ويجعلها محتاجة الى الاختلاط بنفس أخرى احتياجا ضروريا كاحتياج العليل الى الشمس والغريق الى الهواء ، نار تلهب القلب لا يطفئها البعد ولا يبردها القرب بل يزيدها اشتعالا ... نظرة فى عيون محبوبته تملأ قلبه فرحا وتجعله يتخيل أنه ماش فى طريق مفروش بالورد أو راكب سحابة

وطائر فى المرتفعات العالية ، فوق فوق قريب السماء » وهو ، وذلك ايمانه الصحيح ، قد رأى أن المرأة التى تستطيع أن تلهم الرجل كل هذه المعانى السامية وأن تفيض على الفنان بالوحى وعلى غير الفنان بأسباب السعادة التى تحبب اليه الحياة والعمل فيها ليست هى المرأة الجاهلة المحجوبة . لذلك دعا دعوته لتحرير المرأة من رق الجهل ورق الحجاب لتكون مبعث السعادة للناس جميعا .

* * *

لكن هذا الوحى والالهام لا يكون الا اذا استعد الرجال لتلقيه . واذا كان لدعوة قاسم أن تنجح فى ميدان تحرير المرأة وأن تجعل من المصرية مثلما كانت أخت رينان أو زوجة جون ستوارت ميل أو شبيهاتهما من النساء اللواتى أوحين الى النوابغ ما غير وجه التاريخ ، فلا بد من اعداد الرجال لتلقى هذا الالهام السامى ولابرازه فيما يجب أن يبرز فيه من قوة . وذلك لم يكن ممكنا والتعليم العالى ، كما كان يومئذ ، مقصور على أن يعد موظفين للحكومة وللأعمال الحرة ممن لا يرون العلم الا وسيلة للكسب « ويعملون على مبدأ — اكسب كثيرا واتعب قليلا — وليس فيهم العامل المحب لعلمه أو فنه والعاشق الذى تحتل شهوة العمل كل قلبه وتتمدد فيه وتملؤه برمته » . أمثال هؤلاء لا يوحى اليهم جمال العالم فكرة جديدة ولا يرتجون من الحياة الا اعتزازا بمنصب أو بمال طائل يحصلونه . وهؤلاء لا يمكن أن تنهض أمة بهم لترقى الى سبيل الكمال . فأما الفئة التى « تطلب العلم حبا للحقيقة وشوقا الى اكتشاف المجهول ، الفئة التى يكون مبدؤها التعلم للتعلم والتى تحس جمال الحياة فى مختلف مظاهره ، الفئة التى ترى

فى المرأة الجميلة المهذبة معوانا على النهوض بالجماعة — هذه الفئة لاتكون الا حين توجد الجامعة وحين يوجد التعليم الجامعى • وهذه الفكرة هى الأساس الذى دعا قاسما للتعاون مع صديقه سعد زغلول ومع أركان نهضة مصر ليؤسسوا الجامعة المصرية التى استظلت لجنتها برياسة سعد باشا زغلول حتى ترك منصبه كمستشار فى الاستئناف وعين وزيرا للمعارف فحل محله قاسم أمين فى رياسة اللجنة الى أن عاجلته المنية •

وقد ظل قاسم عاملا مع أصحابه مجدا يستنهض الهمم ويجمع الأموال ويهىء كل أسباب نجاح الجامعة • وقد بين فكرته عنها فى خطاب ألقاه بمنزل المغفور له حسن باشا زايد بالمنوفية لمناسبة وقفه خمسين فدانا للجامعة قال فيه : « ان الوطنية الصحيحة لا تتكلم كثيرا ولا تعلن عن نفسها • عاش آباؤنا وعملوا على قدر طاقتهم وخدموا بلادهم وحاربوا الأمم وفتحوا البلاد ولم نسمع أنهم كانوا يفتخرون بحب وطنهم ، فيحسن بنا أن نقتدى بهم فنهجر القول ونعتمد على العمل •••

« نحن لا يمكننا أن نكتفى الآن بأن يكون طلب العلم فى مصر وسيلة لمزاولة صناعة أو الالتحاق بوظيفة ، بل نطمع فى أن نرى بين أبناء وطننا طائفة تطلب العلم حبا للحقيقة وشوقا الى اكتشاف المجهول ، فئة يكون مبدؤها التعلم للتعلم • نود أن نرى من أبناء مصر ، كما نرى فى البلاد الأخرى ، عالما يحيط بكل العلم الانسانى واختصاصيا أتقن فرعا مخصوصا من العلم ووقف نفسه على الالمام بجمع ما يتعلق به ، وفيلسوفا اكتسب شهرة عامة ، وكاتبا ذاع صيته فى العالم ، وعالما يرجع اليه فى حل المشكلات ويحتج برأيه •

أمثال هؤلاء هم قادة الرأى العام عند الأمم الأخرى والمرشدون الى طريق نجاحها ، والمدبرون لحركة تقدمها • فاذا عدمتهم أمة حل محلهم الناصحون الجاهلون والمرشدون الدجالون •

« ان عدم استعداد طلبة العلم لحب العلم ذاته هو عيب عظيم فينا يجب أن نفكر فى ازالته • وهو نتيجة من نتائج التربية المنزلية التى غفلت عن تربية احساسنا وأهملت تربية قلوبنا فأصبحنا ماديين لانهتم الا بالنتائج فى جميع أمورنا ، حتى فى الأشياء التى بطبيعتها يجب أن تكون بعيدة عن الفوائد كعلاقات الأقارب والأصحاب •

« ان الارتقاء فى الانسان تابع على الخصوص لاحساسه ، وان أكثر الناس استعدادا للكمال هم أصحاب الاحساس الذين تهتز أعصابهم المتوترة بملامسة الحوادث ، وتبلغ منهم الانفعالات النفسية مبلغا عظيما فيظهر أثرها فيهم بكثرة وشدة • أولئك هم السعداء الأشقياء الذين يتمتعون ويتألمون • أولئك هم السابقون فى ميدان الحياة ، تراهم فى الصف الأول مخاطرين بأنفسهم يتنافسون فى مصادمة كل صعوبة • من بينهم تنتخب القدرة الحكيمة خيرهم وتوحى اليه أسرارها فيصير شاعرا بليغا أو عالما حكيما أو وليا طاهرا أو نبيا كريما •

« ولى أمل عظيم أن انشاء الجامعة المصرية يكون سببا فى ظهور شبيبة هذا الجيل وما يليه على أحسن مثال » •

كان أول أمل لقاسم من انشاء الجامعة اذن هو الأمل العلمى البحت • هو تكوين فئة للبحث وراء الحقيقة شوقا اليها وحرصا على كشف ما يحيط بهذا العالم من الأسرار • وهذه الحقيقة لايصلّ اليها أولئك المشغولون بأسباب الرزق العاكفون على السعى لها

والدأب فى سبيلها • وانما تصل اليها بيئة علمية يتصل الطالب فيها بالاستاذ اتصال دراسة واتصال بحث • اتصال تعليم واتصال تضامن فى زيادة ثروة الانسانية العلمية • هذه الثروة النورانية التى تضىء ما حولها لتهتك حجب الجهل وما يجره وراءه من جمود وتعصب ونفاق ، والتى تهدى الانسانية سبيل السعادة بما تكشف لها من جمال الوجود • ولعل أكبر رجاء قاسم كان أن يتناول هذا البحث آداب مصر بغية الوصول الى تركيز أدب قومى صالح يجدد الأدب العربى الذى كان متداولا الى عصره • وقد كانت لقاسم فى تجديد اللغة والأدب آراء لا تقل تقدما عن آرائه فى مسألة المرأة وتحريرها • وكان يرى « أن اللغة العربية مرت عليها القرون الطويلة وهى واقفة فى مكانها لا تتقدم خطوة الى الأمام بينا أخذت اللغات الأوربية تتحول وترتقى كلما تقدم أهلها فى الأدب والعلوم حتى أصبحت النموذج المطلوب فى السهولة والايضاح والدقة والحركة والرشاقة ، وصارت أنفس جوهرة فى تاج التمدن الحديث » • وفى كلماته كثير عما كان يراه من أوجه النقص فى اللغة ووسائل علاج هذا النقص قال : « لم أر بين جميع من عرفتهم شخصا يقرأ كل ما يقع تحت نظره من غير لحن • أليس هذا برهانا كافيا على وجوب اصلاح اللغة العربية ••• لى رأى فى الاعراب أذكره هنا بوجه الاجمال وهو أن تبقى أواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأى عامل من العوامل • بهذه الطريقة ، وهى طريقة جميع اللغات الافرنكية واللغة التركية أيضا ، يمكن حذف قواعد النواصب والجوازم والحال والاشتغال الخ • بدون أن يترتب عليه اخلال باللغة اذ تبقى مفرداتها كما هى » •

ولم يكن جزعه على الأدب بأقل من نفوره من جمود اللغة •

فكم نعى على الكتاب والشعراء اقتصارهم على « تكرار أفكار الغير التى حفظوها كما يحفظ الأطفال القرآن » • وكم أسف على الفتور العقلى الذى يجعلك : « اذا اجتمعت فى اليوم بعشرين رجلا من معارفك تسمع من التسعة عشر الآخرين ما سمعته من الأول ولا تجد فى الجريدة التى تقرؤها أو تسمع من الصاحب الذى تقابله فكرة غريبة أو تعبيرا جديدا أو أسلوبا مبتدعا ، لا تجد النابغة الذى يدهشك ويجذبك بعجائب جنونه » وكم استهجن الاساليب التى تقتصر على المحسنات اللفظية ودعا الى جدة تخرج بالكاتبين من ذلك النوع البالى الذى لا يعرف البحث والتحليل والتسمع على النفس والمشاعر ووصف بدائع الطبيعة مكتفيا بالعبارات المحفوظة التى توارثوها عن كتاب العرب أيام مجدهم • وانك لتجد فيما خلف قاسم صورة من هذا الأدب الجديد الذى يدعو اليه والذى غزا ميدان التحرير والكتابة فأصبح أدب هذا العصر الحاضر • ولئن كنا ما نزال نرجو للأساليب الجديدة ثروة وقوة فان فضلا كبيرا يرجع لقاسم فى هذه الجدة التى دعا اليها والتى كان يرجو أن تبدع فيها الجامعة التى جاهد فى انشائها والتى قامت بعد موته قوة تقربها من المثل الأعلى الذى يرجوه •

واختطف الموت فجأة قاسما وما يزال فى ربيع قوته • مات بالسكتة القلبية بعد أمسية قدم فيها طالبات رومانيات فى نادى المدارس العليا • مات وهو فى ميدان هذا الجهاد الشاق الذى خاض غماره وحمل أعباءه بقوة وعزيمة لم يتطرق اليهما كلال • فقد وقف الرأى العام فى وجهه على أثر نشر كتاب تحرير المرأة • ولم يكن هذا الرأى العام مقصورا على السواد ولا على الجامدين • بل

ساير هؤلاء كثيرون ممن يزعمون أنهم يفهمون الرأى واحترامه والحرية وقداستها ، بل ممن كانوا مقتنعين بصواب رأى قاسم . وبلغ الأمر أن حرم قصر عابدين عليه . ولم يثبطه شيء من هذا ولم يبال بذم الناس « بل وجد فيه نوعا من حماسة الغضب منبها لأعصابه منشطا لقواه مغريا اياه بالاستمرار والثبات » . ورد على خصومه بكتاب « المرأة الجديدة » ثم قام بالمجهود العظيم الذى قام به فى انشاء الجامعة . وكان فى ابان ذلك كله ساكن النفس مطمئن الضمير ، محبا للحياة وجمالها . غير بخيل على نفسه بحظ من ذلك يناله فى رفق ما كان بعيدا عن مصر . فاذا عاد اليها اقتصر على أصدقائه القليلين الذين كانوا « يخففون عليه حمل الحياة ويرغبونه فى بقائها » .

مات فجأة فى ليل ٢٣ ابريل سنة ١٩٠٨ فأثار خبر وفاته فى نفوس الناس جميعا ، أصدقائه وخصومه ، رنة حزن وأسى ، واجتمع لتشييع رفاته كل ذوى الرأى فى مصر . وكانت جنازته مظهرا صامتا لاجلال الوطن وتقديره العاملين من رجاله . وغادر هذا العالم تاركا وراءه ذكرا باقيا هو ذكر الصدق والاخلاص لبلاده لم يبتغ عليهما فى حياته أجرا من جاه أو نشب ، فكان أجره عليهما الخلود بعد موته فى ضمير الأجيال المتعاقبة . ذلك بأنه رفع لواء الحرية الصحيحة والعدل فى أسمى معانيه ، وبعث الى الروح المصرية حياة جديدة تكفل لها بلوغ ما ترجوه بين جماعة الامم المتحضرة .

وفى يقيننا أن مجهود قاسم من أبقى المجهودات على الحياة ، وأن الصحائف المعدودة التى كتبها ستظل أبدا موضع اجلال العصور واحترامها .

# اسماعيل باشا صبرى

لم تمض على وفاة المغفور له اسماعيل صبرى باشا غير سنوات قليلة ومع ذلك فقد بدأ الناس لا يذكرون عنه الا انه كان شاعرا مجيدا . فأما أنه كان وكيلا للحقانية فى آخر أيامه ، وأنه درج قبل ذلك فى وظائف الحكومة المختلفة حتى بلغ هذا المنصب ، فهذا ما يسحب النسيان عليه ذيله رويدا رويدا ، وهذا ما يعتبر الجانب القليل الخطر من حياته . ولا عجب فى ذلك . فلقد كان الشعر هو الجانب المنير من روح اسماعيل صبرى والذى يجعله أحد رجال التاريخ الحديث . والناس لا يذكرون من الكبراء الا مواضع عظمتهم الحقة ، المواضع التى تتصل فيها نفوسهم بنفس الانسانية كلها اتصالا تتأثر به النفس الانسانية تأثرا باقيا على الأجيال فى تعاقبها . فأما هذا العمل اليومى الذى يقوم به كل منا ويستطيع غيره أن يحل محله فيه ، فأما هذا الجانب من الحياة الذى يتكرر فيه الفرد من غير أن تظهر له شخصية خاصة ممتازة ، فأما النيابة والقضاء ووكالة محكمة الاستئناف ومنصب النائب العمومى ووكالة الحقانية مما تقلب فيه اسماعيل صبرى ، فتلك المراكز على خطرها وجلالها وما تخلعه على صاحبها فى حياته من جاه ومقام عظيم ، انما يتصل صاحبها بالجيل الذى يعيش فيه الا أن يمتاز فى أعمال هذه المناصب امتيازا يترك أثرا تتناقله الأجيال . ولم يترك اسماعيل صبرى فى هذه الناحية من حياته ذلك الأثر . لذلك كان

له من جاهها مدى حياته ما يكون لغيره . فأما ما بقى له فذلك الضياء النفسانى الذى يتجلى فى شعره القليل . والذى يعتبر على قلته آية فى الجمال تهتز لها نفوس كل الأجيال . والذى يبقى من أجله اسم اسماعيل صبرى على الزمان ؛ لانه — على حد قول الاستاذ على الجارم فى مرثيته اياه — :

لم يمت من يزول من عالم الحس وتأبى آثاره أن يزولا

* * *

ولد المرحوم اسماعيل صبرى فى ١٦ فبراير سنة ١٨٥٤ ودخل مدرسة المبتديان التجهيزية فمدرسة الادارة . وفى سنة ١٨٧٣ التحق بالارسالية المصرية لفرنسا فنال أجازة الحقوق فى سنة ١٨٧٨ . وهذه الأجازة هى التى فتحت أمامه أبواب السلك القضائى من مساعد نيابة لدى المحاكم المختلطة الى وكيل وزارة الحقانية . على أن الجانب النفسى الاقوى منه لم يكن الجانب التشريعى أو الجانب القضائى ، بل كان جانب تجاوب الأوزان والأنغام والشعر . وكثيرا ما رأيت رجالا يكونون دون غيرهم من أهل حرفهم فى الكفاية والمقدرة ، ولكنهم يمتازون بجانب آخر لهم فيه نبوغ . هؤلاء يحجب فيهم جانب النبوغ الجانب الآخر ويجعله يبدو ضعيفا . بل كثيرا ما يجنى جانب النبوغ على الجانب العملى للحياة ، لما يكره النبوغ عليه من وهبته الطبيعية اياه من مجهود مستمر وحياة خاصة ، فاذا الجانب العملى يكاد ينسى الا ما تمليه عليه الملكات الممتازة من قوة واقتدار .

ولم يكن لجانب النبوغ الشعرى فى اسماعيل صبرى تاريخ

صبرى فكان منذ أول حياته شاعرا مقلا ، وكان ، على ما يظهر من قديم معروف • وقد عبر شوقى فى رثائه اياه عن ذلك بقوله :

ان فاته نسب « الرضى » فربما
جريا لغـــاية ســؤدد وطراف
شرف العصاميين صـــنع نفوسهم
من ذا يقيس بهـــم بنى الاشراف
قـــل للمشـــير الى أبيه وجـــده
أعلمت للقمرين من أســـلاف

وكثيرا ما كانت المواهب الممتازة لاترجع الى تاريخ قـــديم معروف ، بل كثيرا ما رأيت هذه المواهب الممتازة تتجلى فى أشخاص لا تلمح فى تاريخهم أية مقدمة لها • وهى قد تجلت فى نفس اسماعيل صبرى مذ كان فى السادسة عشرة من عمره ، وقبل أن يختط طريقه الى الســلك القضائى • فقد نشرت له مجلة روضة المدارس وما يزال فى هذه السن مقطوعات شعرية تلمح خلالها روح الشاعر ، وان كانت فى ذلك الحين قد كانت متأثرة أشد التأثر بأغراض الشعر فى عصر اسماعيل من مدح الامراء وذوى الســلطان • وروضة المدارس كانت يومئذ مجلة أدبية تعمل لاحياء اللغة العربية والشعر العربى •

ولما ســافر فى الارسالية وأقام بمدينة اكس أتيح له الاطلاع على الأدب والشعر الفرنسى • ويدل شعره فى السنوات الأخيرة على انه تأثر بهذا الشعر كثيرا وانه انطبع منه فى نفسه حظ غيره قليل • على انه لم يستطع فى أول أمره أن ينقل الى الشعر العربى روحا غربية مثلما فعل شوقى مثلا • فأنت ترى فى شعر صبا شوقى الشىء الكثير المتأثر تأثرا باديا بحياة شوقى فى أوربا • أما اسماعيل

شعره ، لا يتأثر تأثرا سريعا ، ولكن ما يؤثر فيه يبقى عالقا بنفسه حتى يكون له مظهره ولو بعد حين .

والظاهر أن التقاء الحياتين الشرقية والغربية والشعرين الشرقى والغربى فى نفس اسماعيل صبرى ، أحدث أثرا عميقا امتزج مع غريزة حياته . فقد كان رجلا رقيقا كل الرقة دمث الأخلاق حاضر البديهة ، اجتمع له كل ما يعرف من صفات « ابن البلد » وظرفه . واناك لتسمع ما يرويه عنه أصحابه من ذلك الشىء الكثير : فكان اذا سئم انسانا من الناس ولم تطاوعه نفسه الرقيقة على الاغلاظ له فى القول ، طلب الى صديقه حافظ ابراهيم ان يوقع بينه وبين هذا الثقيل حتى لا يضطر لمقابلته أو التحدث اليه . وكان كثير التندر ، حتى لقد تحكم عليه النكتة فلا يرى بأسا من أن يقول : انه لو نزل كتاب مقدس فى القطب الشمالى لوعد الله عباده النار أعدها للمتقين . وكان ظرفه وخفة روحه وسرعة بديهته يلهمانه فى كثير من المواقف ما لا يلهم المنطق . اعترف أمامه متهم بجريمة القتل . فلما خلا مع زملائه للمداولة ورأى أن العقوبة هى الاعدام. ذكر لهم أنه يشك فى اعتراف هذا الرجل لأنه لا يرى فى سيماه معنى شجاعة يمتاز به على سواه من أمثاله . وجىء بالرجل الى غرفة المداولة وقال هو له : أتدرى أن اعترافك هذا يجعلنا نحكم عليك بالاعدام . فكان جواب الرجل : لكن العمدة لم يقل لى هذا ، بل قال لى حين دفع لى الجنيهين انى سيعفى عنى لأنى كنت فى السجن حين ارتكاب الحادثة . وتبين فعلا أن الرجل كان فى السجن فلم يكن له فى الحادثة يد . وقضى ببراءته .

الى جانب هذه الصفات التى يمتاز بها « ابن البلد » المصرى

مما تأثرت به نفس اسماعيل صبرى الشاعرة بمخالطتها الوسط المصرى . كان رجل اجتماع بالمعنى الافرنجى الصرف ، أى رجل دنيا اذا أردت ترجمة العبارة الفرنسية homme de monde ترجمة حرفية . وكان له أصدقاء كثيرون جدا من الجاليات الاوربية المقيمة بالقاهرة . وكان يغشى اجتماعات من يختارهم من أهل هذه الجاليات بمقدار ما يغشى اجتماعات الظرفاء وأولاد البلد .

على أنه مع كل هذه الوداعة والظرف، ومع ما كان يسيل به خلقه من رقة كان أبيا لا يقيم على ضيم . ذكر لى بعض أصدقائه الذين عرفوه طوال حياته انه برغم ما تقلب فيه من كبرى مناصب الحكومة كان المصرى الوحيد الذى لم يقابل لورد كرومر ولم يدخل الوكالة البريطانية فى مصر . وانه حدث بينه وبين رياض باشا ، وكان رئيس النظار ، جفاء لحكم أصدره ماسا ببعض المحسوبين على رياض باشا . فلما جاء فى أحد المواسم الى عابدين ومثل بين يدى الخديو توفيق ثم خرج من لدنه الى رياض باشا مهنئا اياه كرئيس حكومة أوقفه رياض باشا ولم يأذن له بالجلوس . وكان ابن رياض باشا واقفا عند باب الحجرة التى يجلس فيها أبوه ، فقال اسماعيل صبرى مخاطبا الابن بمسمع من الأب : قل لأبيك يحترم الناس كى يحترموه . وروى عثمان باشا مرتضى فى حفلة تأبين اسماعيل صبرى أن أحد قناصل الدول الأجنبية طلب اليه ، وكان محافظا للاسكندرية ، أن يشيع جنازة غنى من أهل جاليته ترك ثروة طائلة كسبها فى مصر وأوصى بها كلها لبلاده . فكان جواب المحافظ أن اعتذر ، لأن المحتفل بجنازته لم يفكر فى مصر التى أثرى فيها ، فليس يطلب الى مصرى أن يفكر فى مجاملته حيا أو ميتا .

دعة وظرف ورقة وحسن معاشرة وإباء . اجتمعت كلها فى نفس شاعر التقت فيه الحياتان الشرقية والغربية وألهمتها الطبيعة ذوق الجمال ، وبخاصة ما كان منه متعلقا بالنغم الشعرى — فماذا ترى يكون أثر ذلك كله فى شعره ؟ فأما الرقة فقد تنفست فى شعر صبرى غزلا بالمرأة وهياما بجمالها أيا كانت هذه المرأة . وأنت ترى من ذلك شيئا غير قليل حين تذهب الى مراجعة شعر صبرى الغنائى ، لكنك تراه ماثلا بصورة حلوة جميلة آخذة باللب فى قصيدته البديعة ( تمثال جمال ) وبخاصة فى هذه الأبيات منها يخاطب المرأة الجميلة أو كما سماها « لواء الحسن » :

ان هـذا الحسن كالمـاء الذى ... فيـه للأنفس رى وشـفاء
لا تذودى بعضنا عن ورده ... دون بعض ، واعدلى بين الظماء
سـاعفى آمال أنضاء الهـوى ... بقبول من سـجاياك رخـاء
وتجلى واجعلى قوم الهـوى ... تحت عرش الشمس بالحكم سواء
أقبلى نسـتقبل الدنيـا وما ... ضمنته من معـدات الهنـاء
واسفرى ، تلك حلى ما خلقت ... لتـوارى بلثـام أو خبـاء
واخطرى بين الندامى يحلفوا ... أن روضا راح فى النادى وجاء
وانطقى ، ينثر اذا حـدثتنا ... ناثر الدر علينـا ما نشـاء
وابسمى ، من كان هذا ثغره ... يملأ الدنيا ابتسـاما وازدهـاء
أنت روحانيـة لا تدعى ... أن هـذا الحسن من طين وماء
وانزعى عن جسمك الثوب يبن ... للملا تكوين سـكان السماء
وأرى الدنيا جناحى ملك ... خلف تمثال مصوغ من سناء

وتراه كذلك فى هذه الأبيات يخاطب بها امرأة لا ندرى أية واحدة هى من ألوية الحسن التى تزدحم عادة فى نفس ذوى الظرف

والرقة ممن لا تحتمل نفوسهم طغيان الحب المستبد يذعن له الفؤاد والقلب والنفس والجوارح جميعا اذعان خضوع وايمان واستسلام وهو مع ذلك باذعانه راض وببذله سعيد :

زيني الندى وسيلى فى جوانبه لطفا يعم رعايا اللطف رياه
ريحانة أنت فى صحراء مجدبة من الرياحين حيانا بها الله
ان غاب ساقى الطلا أو صد لاحرج هذا جمالك يغنينا محياه

لعلك تلمح فيما نقلنا من هاتين القصيدتين — أو المقطوعتين ان شئت — شيئا غير الغزل بجمال المرأة من غير تقيد بامرأة معينة . ولعلك تلمح فيها من الموسيقى أكثر مما اعتدت أن تلمح فيما تستمع اليه من شعر غير اسماعيل صبرى . وانك لواجد هذه النغمة الموسيقية الحلوة الرقيقة فى أكثر شعره ان لم يكن فى شعره جميعا . بل انك لواجدها حتى فى القصائد التى يكلف الشاعر نفسه أن يكون حماسيا فيها كقصيدة فرعون وقومه . بل انك لواجدها حتى فيما يتكلف فيه الحكمة كقصيدة الساعة وما نظمه عن نجم هالى . وذلك طبيعى وقد كان اسماعيل صبرى مشغوفا بالغناء طول حياته الى غير حد حتى كانت الحياة عنده قطعة من الموسيقى ، أو قل كان خير مافى الحياة عنده قطعة من الموسيقى . وكان سمعه أكرم حواسه عليه . أليس فى رثائه يقول حافظ ابراهيم :

لقد كنت أغشاه فى داره وناديه فيها زها وازدهر
وأعرض شعرى على مسمع لطيف يحس نبو الوتر

والحق أن اسماعيل صبرى لم يولع فى حياته بشىء ولعه بالغناء ، ولم يجاهد وهو فى مناصب القضاء لترقية شىء فى مصر أكثر من جهاده لترقية الغناء . كان ذلك شأنه منذ عهد المغفور له الخديو

اسماعيل باشا ، أى منذ أن نشأ يقول الشعر الى أن مات • وكان لا يقف من شعره الغنائى عند الشعر العربى بل كان يختلط بالمغنين ورجال الموسيقى وكان يضع لهم أدوارا باللغة المصرية • وكان لذلك موضع محبة رجال الفن الموسقيين والمغنين واحترامهم •

ولقد كان له فى هذا الباب فضل كبير : رفع الأدوار الغنائية من درك كانت فيه فجعلها ذات معان رقيقة تمثل عواطف طاهرة وميولا سامية • وأدواره ( قدك أمير الأغصان ) و ( الفجر لاح قوموا ياتجار النوم ) وغيرهما لا تزال من أفضل الأدوار المصرية التى تغنى الى وقتنا الحاضر • وقد عرفه الناس جميعا بذلك حتى كان حجة يرجع اليه • روى لى أحمد شوقى بك حادثة غاية فى اللطف : تلك أنه كان عنده وهو يشغل منصب النائب العمومى يوما وكانت مصر تموج أفكار أهلها بحادث سياسى وقع فيها • وفيما هما جالسان يتحدثان دخل حاجب ومعه مظروف حكومى كبير فقطع ذلك حديثهما وانتظر أن يجدا فيه اشارة الى الحادث السياسى وما يجب اتخاذه من الاجراءات بازائه • فلما فض اسماعيل باشا المظروف وقرأ ما بداخله هز رأسه مبتسما • ذلك أن على باشا شريف رئيس مجلس الشورى يومئذ قد بعث فى هذا الظرف بدور غنائى وهو يطلب الى النائب العمومى اصلاحه • ولهذه المناسبة قص اسماعيل باشا صبرى حادثا وقع فى قرطبة حين كانت الدولة الاسلامية على وشك الزوال منها ، وكانت طرقها تجرى دما لاقتتال الناس فيها • ذلك أن فتاة أطلت من نافذتها منادية صديقة لها فى نافذة مقابلة تطلب اليها وترا تصلح به عودها • وكذلك يطلب رئيس مجلس الشورى الى النائب العام أن يصلح

له دورا غنائيا بينما تموج البلاد بحادث سياسى لاتعرف نتائجه .

ولهذا الولع بالنغمة وبالغناء ترى الكثير من شعر اسماعيل صبرى صالحا لأن يكون صوتا يغنى فيه . اسمع الى قوله يخاطب سيدة تدعى الكسندرا :

انثرى الدر ياسمية أسكنـ ـدر لافض عقـده من فيك
وأميطى عن الحقيقـة مايجـ ـجب عنا جمالهـا من شكوك

وقوله :

أقصر فؤادى فما الذكرى بنافعة ولا بشافعـة فى رد ما كانا
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمنا حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا
هلا أخذت لهذا اليوم أهبته من قبل أن تصبح الأشواق أشجانا
لهفى عليك قضيت العمر مقتحما فى الوصل نارا وفى الهجران نيرانا

وغير ذلك مما يغنى فيه من شعر اسماعيل صبرى كثير .

أنت لا تستطيع أن تطلب الى شاعر بلغ من الرقة ما بلغ اسماعيل صبرى وشغف بالغناء شغفه أن يكون ممن يجاهدون الحياة يحاولون اخضاعها لرأيهم أو أن يكون قوى الايمان مما فى الحياة بشىء . فالمرأة وجمالها والغناء وألحانه والموسيقى وأنغامها صور يطرب لها الحس وينطبع طربه فى النفس فيدعوها الى الطمأنينة للحياة والاستهتار بما يشغل الناس أنفسهم فيها من شؤون ، والتوفر على المتاع بهذا الطرب والحرص على استدامته والفزع لذلك من الموت . ويذكر الذين عرفوا اسماعيل صبرى معرفة صحيحة أنه كان كذلك . لكنك مع ذلك ترى فى شعره نزعات تكاد تكون صوفية . وترى الى جانب ذلك شيئا من التبرم بالحياة ومن ايثار الموت واستعجاله . أليس يذكر بتغزل عمر بن الفارض شيخ الصوفية فى الذات الآلهية قول اسماعيل صبرى :

يارب أهلنى بفضلك واكفنى شـــطط العقول وفتنة الأفكار
ومر الوجود يشف عنك لكى أرى غضب اللطيف ورحمـــة الجبار
ياعالم الأسرار حسبى محنـــة علمى بأنك عالم الأســـــرار
أخلق برحمتك التى تسع الورى ألا تضـــيق بأعظـــم الأوزار

أو ليست الحكمة كل الحكمة فى قوله :

أواه لو عقـــل الشـــباب وآه لو قـــدر المشـــيب

أو لم يقل الفلكيون أن نجم هـــالى المذنب الذى مر بالأرض فى سنة ١٩١٠ كان سيحرق الأرض ويقيم القيامة فابتهج اسماعيل لذلك وقال :

أنت نعم النذير يانجم « هالى » زلزل الســـهل والرواسى ذعرا
ان يكن فى يمينك الموت فاقذفـــه شواظا على الخـــلائق طرا
أغدا تستوى الأنوف فلا ينظر قوم قوما على الأرض شزرا
أغـــدا يصـــبح الصراع عناقا فى الهيولى ويصبح العبد حرا
ان يكن كل ما يقولون فاصدع بالذى قد أمرت حييت عشرا

بل ألم يدع صبرى الموت كما دعاه فوست مستعجلا اياه كى ينقذه من عذاب الدنيا حين قال :

ياموت خذ ما أبقت الأ يام والســـــاعات منى
بينى وبينك خطـــوة ان تخطها فرجت عنى

فكيف مع هذا كله يكون بشا للحياة طروبا بما فيها فزعا من الموت ومن العدم ؟ وكيف مع هذه الحكم التى نراها فى شعره يكون كل شغله بجمال المحسوسات من منظور ومسموع ؟ هذا اعتراض يرد للذهن لأول وهلة . لكن الشـــاعر لا يكون شاعر حـــكمة ولا شاعرا نفسانيا لمجرد ذكره خواطر فلسفية وعتها ذاكرته أكثر

مما اهتزت لها نفسه . ثم هو لا يكون برما بالحياة مؤثرا الموت لبعض أبيات قد تدفعه الى قولها شؤون خاصة . فالبيتان الأخيران اللذان روياهما انما قالهما اسماعيل صبرى — فى رواية بعض من عرفوه — لما كان يلقى فى حياته العائلية من أسباب الشكوى . وأما ذلك التصوف الذى نراه فى الأبيات الأولى فليس الا مظهرا لما وعت الذاكرة راجع نفس الشاعر فى ساعات تغص فيهما النفس بنعيم الحياة حين يفيض عنها فيضا يجعلها تستغفر وتتوب برهة لتعود الى نعيم الحياة وفيضه بعد ذلك مباشرة . فأما الشاعر النفسانى فهو الذى يحس فى أعماق نفسه بمعان قوية تظهر فى شعره ولو تحدث عن ظواهر تعدها أنت وأعدها أنا تافهة فى الحياة . من ذلك كثير من شعر أبى العلاء المعرى . ومنه كثير من شعر الافرنج . كنت أعيد منذ بضعة أيام قراءة قصيدة ( موت الذئب ) لألفرد دفينى وأستعيد منها المعانى القوية التى تجيش فى نفس الشاعر الفرنسى وتتجلى فى كل قصائده . مثل هذا الشاعر النفسانى ان كان دينيا يرى فى جمال المرأة وفى تجاوب الموسيقى وفى ألحان الغناء معانى دينية . وهو يرى هذه المعانى الدينية فى موت طفل وفى موت ذئب كما يراه فى الحب وفى كل صورة من صور الحياة ولون من ألوانها . وان كان شاعر عاطفة أو شاعر فلسفة تجلت العاطفة والفلسفة فى شعره كله . فاذا رأيت له شعرا لا يعمره الجانب النفسى القوى من جوانب حسه أو شعوره أو تفكيره كان لك أن تحكم بأن ما اختزنته الذاكرة مما لم يؤثر فى النفس أثرا عميقا هو مبعث هذا الشعر . وما تختزنه الذاكرة مما ينظمه الشاعر ليس هو المعبر عن نظرته للحياة وتقديره لما فيها .

كان اسماعيل صبرى اذن متأثرا بما تتأثر به العين والأذن من صور الحياة وألوانها • وكان هذا هو الذى يوقع على وتر عاطفته أنغام شعره • وكان شعره لذلك جميل اللفظ غاية الجمال • وكان تأثره هذا يجعله معنيا بالجمال اللفظى أكثر من كل شاعر سواه • واناك لتجد أمامك فيما نقلنا لك هنا من شعره مظهر ذلك واضحا جليا • فرب فكرة عادية أو صورة تمر أمامك كل يوم تجدها فى هذا الشعر فاذا بها قد اكتست رونقا وبهاء ما كان لها أن تكتسيها لو أن شاعرا آخر هو الذى صاغها • والظاهر أن هذه النزعة القوية عند اسماعيل صبرى كانت ذات أثر كبير فى الشعر العربى فى هذا العصر • فحافظ ابراهيم لا يأبى أن يدعو اسماعيل صبرى أستاذه وأستاذ شوقى • وشوقى لا يأبى أن يعترف بأن هذه النظرة التى كان ينظر بها اسماعيل الى الشعر أثرت فيه هو تأثيرا غير قليل • ولم ينشأ من الشعراء فى العهد الأخير من كانت له فى الشعر نفسية خاصة تخالف نفسية اسماعيل صبرى لتطبع الجيل الجديد كما طبع هو بطابعه جيله •

ولا أستطيع أن أختم هذا البحث العجل عن اسماعيل صبرى من غير أن أضع أمام القارىء ابياتا ارتجلها تسيل رقة وتعبر أرق تعبير عن هذه النفسية التى كانت ترى العاطفة كما كانت ترى كل ما فى الحياة حسا منظورا أو مسموعا ، ارتجلها يوم دفن ابن صغير للمرحوم الشيخ على يوسف فقال :

يا مالىء العين نورا والفؤاد هوى
والبيت أنسا ، تمهل أيهـا القمر

لا تخل أفقك يخلفك الظـــلام به
والزم مكانك لا يحلل به الكدر
فى الحى قلبان باتا يانعيمهما
وفيهما ، اذ قضيت ، النار تستعر
وأعين أربع تبكى عليك أسى
ومن بكاء الثكالى السيل والمطر
قد كنت ريحانة فى البيت واحدة
يروح فيه ويغـــدو نفحها العطـــر
ما كان عيشك فى الأحياء مختصرا
الا كما عاش فى أكمامه الزهر
فارحل تشيعك الأرواح جازعة
فى ذمة الله بعـــد القبر ياعمر

* * *

لعلك وقد رأيت من اسماعيل صبرى وشعره هذه النفسية المشغوفة بالألوان تشعر الى جانب هذا بما يشعر به كل من يقرأ شعر اسماعيل صبرى من أنه كان شاعرا مصريا حقا ، ومن أن النزعة البدوية كانت لا تعرف سبيلا الى نفسه ، وان الرقة التى تسيل بها جوانب وادى النيل والصفو الذى يظل سماءه والخضرة النضرة التى تزين جنباته وأغاريد الطير فى هوائه الرقيق ، كل ذلك كان ينعكس فى نفس اسماعيل صبرى بقوة لا تراها فى كثرين غيره من الشعراء • ولعلك لذلك تقر له باللقب الذى لقيـــه به معاصروه : لقب شيخ الشعراء •

وقضى حياته مغتبطا بالحياة . حتى اذا كان فى أخريات أيامه أصابته ذبحة صدرية قعدت به عن أن ينعم بشىء فى الحياة خمس سنوات تباعا . ولعل بيته يخاطب الموت :

بينى وبينك خطوة ان تخطها فرجت عنى

كان يصدق عليه خلال هذه السنوات الخمس الصدق كله . وقد خطا اليه الموت هذه الخطوة فى منتصف ليل ٢٠ مارس سنة ١٩٢٣ . وقضى يومئذ متحملا معه مدرسة حافلة من مدارس الشعر ومذهبا جليلا من مذاهب تقدير الجمال . قضى وخلف بعده من أثره مجموعة أشعار لم تطبع بعد لأنه كان يقول انه وهب شعره للنسيان . وتلك هبة لن تتم . فالنسيان لا يتطرق الى الكمال ولا يعدو على الجمال . لذلك نشر من شعره الشىء الكثير وحفظ أصحابه مالم ينشر . ولعلنا نسعد برؤية مجموعة شعره مطبوعة عما قريب .



obeikandl.com

# محمود باشا سليمان

... وهذا أيضا محمود سليمان باشا قد مات . فأضاف حلقة الى سلسلة عظماء مصر الذين ودعوا عالمنا هذا فى السنتين الماضيتين[1] . لكنه ودعه على صورة غير تلك التى ودعوه عليها . هم كانوا بين مجاهد تحفزه قوى الشباب للجهاد ، وآخر بعض طبعه الكفاح ، وثالث اضطر لاعتزال الناس اضطرارا . أما هو فجاهد لخير وطنه فى شبابه . ثم جاهد له فى كهولته ، ثم جاهد له وقد نيف على التسعين . وبعد اعتزامه الانقطاع الى الله وعبادته . فلما دب الخلاف بين المصريين واندلع لهيب الفتنة فى البلاد نأى عن الفتنة مختارا وعكف على ما اعتاد من عبادة وتقوى ، وظل فى تقواه وفى عبادته ينتظر بقلب مطمئن ونفس هادئة اليوم الذى يختاره الله فيه الى جواره . فلما كان عصر يوم الثلاثاء الماضى أغمض عينيه عن عالمنا هذا ليفتحها هناك فى العالم الذى قضى سنيه الطويلة يرجوه ، عالم أجر وسعادة لا يعرفان الزمان ولا المكان لأنهما يسموان على كل زمان ومكان .

وليس كثيرون من أبناء هذا الجيل من يذكرون شخص محمود باشا سليمان . كانت أجيال مصر المتعاقبة ، وكان تاريخ مصر يذكره أطيب الذكر . ليس كثيرون من يذكرون هذا الرجل المهيب فى وقاره ، النحيف فى جسمه ، الطويل القامة فى اعتدال ، الحاد

(١) كتبت هذه الرسالة لمناسبة وفاته فى ٢٢ يناير سنة ١٩٢٩ .

النظرات ، الأسمر اللون ، الجليل المشيب • ولئن كانت قد مضت سنوات لم أره فيها ، فانى ما أزال أذكر أول مرة رأيته ، وكنت ما أزال طالبا بالحقوق ، وكنت أتردد على دار « الجريدة » عند أستاذنا لطفى بك السيد • فبينا أنا هناك فى أحد أيام ربيع سنة ١٩٠٨ دخل محمود باشا سليمان فحياه الحاضرون فى اجلال واحترام وقدمنى له لطفى بك • وأشهد لقد جلست يومئذ وفى نفسى شىء من الرهبة أمام هذا الشيخ الذى يحمل طى تجاعيد وجهه صحفا مجيدة من تاريخ مصر • جلست وجعلت أحاول أن أختلس ، فى نظرات يداخلها الحياء والخوف ، صورة رئيس حزب الأمة آتيا يتحدث الى كاتب حزب الأمة • وانتظرت أن يتكلم ، فمضت لحظات خلتها طويلة طويلة وخلت معها أن وجودى قد يحول دون الشيخ والكلام ، فاستأذنت وانصرفت • ولم أره بعد ذلك غير مرات قليلة كانت الأخيرة منها حين كان رئيسا للجنة الوفد المركزية وحين كانت تتعلق باسمه آمال الوفد المصرى فى أوربا ، وآمال المصريين فى مصر •

هذا الرجل قد غادرنا بعد أن طوى رحلة الحياة فى أناة وتؤدة ووقار ، وانتقل منها فى مثل هذه التؤدة والأناة والوقار الى جوار ربه وما يرجو من حسن ثوابه • غادرنا بعد اذ خلف وراءه تاريخا حافلا جليلا وذكرا لاتشوب سواطع نوره شارة من ظلام • فلقد وهب هذا الرجل حياته كلها لله ولوطنه ولأبنائه • كان فى عهد المغفور له اسماعيل باشا الخديو رجلا كاملا مسموع الرأى نافذ الكلمة ، ترك عمدية بلده ساحل سليم ونظارة القسم التى تتبعه الى وظائف وكيل مديرية فى جرجا وفى أسيوط • فلما صدر القانون

النظامى بعقد مجلس النواب فى عهد توفيق باشا تقدم للنيابة عن الأمة وانتخب عضوا بمجلس النواب وألقى عليه أن يلقى خطاب العرش ، وكان له فى هذا المجلس مواقف يذكرها له التاريخ . فلما شبت نار الثورة العرابية كان من بعيدى النظر الذين قدروا ما يمكن أن يصيب البلاد من جرائها ، فتنحى عن الاشتراك فيها كما تنحى بعد ذلك عن الاشتراك فى النظام الذى أعقبها . فمع هذه المكانة الكبيرة التى كانت له ، ومع ما أظهر من مقدرة فى مجلس النواب الذى سبق الثورة ، ومع أنه لم يكن من أنصار الثورة وأعوانها ، فانه لم ير بعد فشل الثورة واحتلال الانكليز مصر أن يتقدم للعمل العام تحت النظام الجديد الذى سنه الانكليز لمصر حين استصدروا من الخديو قانون مجلس الشورى والجمعية العمومية ، بل تنحى عن العمل العام وترك القاهرة الى الصعيد ، وعكف على عمله الخاص وعلى البر بالفقراء . وظل كذلك من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٨٩٥ حين أخرجه ظرف محلى خاص من هذه العزلة وجعله يتقدم لعضوية مجلس الشورى ، وما لبث أن عاد الى القاهرة والى العمل العام حتى انتخب وكيلا للمجلس وحتى كانت له فيه مواقف مشهودة . واذا كان للتاريخ أن يذكر السابقين الى مطالبة الانجليز بأن يخلوا بين مصر ووضع نظام الحكم فيها ، فلقد كان المغفور له محمود باشا فى مقدمة هؤلاء . كان فى مقدمتهم منذ كان عضوا فى مجلس الشورى وحين ترأس بعد ذلك حزب الأمـــة . واذا كان للتاريخ أن يذكر السابقين الى الأحزاب المنظمة ، فان محمود سليمان باشا هو أول من ترأس حزبا ذا برنامج ونظام فى مصر . فلقد كانت الأحزاب المصرية الى يوم تشكيل حزب الأمة تقوم على فكرة الدعوة لعمل

واحد معين . فالحزب الوطنى أيام عرابى باشا كانت مطالبه محصورة فى الدستور وفى التسوية بين المصريين والأتراك من رجال الجيش . والأحزاب والهيئات التى جاءت بعد ذلك كانت تطلب مطلبا واحدا كجلاء انكلترا عن مصر أو ما هو من ذلك بسبيل . أما حزب الأمة فكان أول الأحزاب التى وضعت لها برنامجا مفصلا يتناول مرافق البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية جميعا . وعلى نهجه سلكت الأحزاب الأخرى بعد ذلك .

ولقد تألف حزب الأمة على هذه الصورة فى أخريات سنة ١٩٠٧ وسبقته الجريدة ، التى كانت بعد ذلك لسان حاله ، بشهور . وكان رئيس شركة الجريدة ورئيس حزب الأمة هو المغفور له محمود باشا سليمان . فلما حدثت بعد ذلك بسنوات أسباب للخلاف بين المسلمين والأقباط وكان من أثرها أن عقد الأخيرون مؤتمر أسيوط يتهمون فيه حكومات ذلك العصر بانها تنئى الأقباط عن مناصب الحكم ولا تعطيهم حظهم الكامل منها ، وكانت هذه الحركة خطيرة النتائج ، كان محمود سليمان باشا من الذين تقدموا للقضاء عليها ولاعادة الألفة بين العنصرين . ولذلك تألف المؤتمر المصرى بهليوبوليس واختار المغفور له رياض باشا رئيسا له ومحمود سليمان باشا وكيلا له ، وفند مزاعم الأقباط يومئذ وأظهر الناس على أن لهم من مناصب الحكم أكثر من نسبتهم العددية بكثير ، ودعاهم الى أن يكونوا فى وحدة الأمة صفا .

وجاءت الحرب الكبرى وكان محمود باشا قد جاوز الثمانين وحق له أن يستريح من عناء العمل وأن يخلص كل نفسه لله فى انتظار لقائه اياه . والحق أن صفحات الجهاد التى كانت له

فى ماضيه وما قام به كأب من حسن العناية وجميل البر بأبنائه كان كافيا وفوق الكفاية ليكتب لهذا الرجل صحيفة مجد باقية • وصحت عزيمته على الاعتزال والانقطاع لله حتى لقد خرج من ماله لأبنائه فى سنة ١٩١٦ واعتزم عيش الزهادة والنسك وتمام الانقطاع لله • وما أجمل هذه الشيخوخة الطاهرة المنزهة عن شوائب الهوى والتى قامت فيما سبق لها من سنى الحياة بما يطلب الى الرجل من جد وبر وتقوى ، تقضى فى حساب النفس والقربى الى الله ورجاء مغفرته وثوابه • ما أجمل الشيخ يصل الى قمة الحكمة بعد أن يطوف من الحياة بشهواتها وأهوائها ومطامعها ومالها ومجدها فتدعوه الحكمة الى أن ينظر الى الأهواء والمطامع والشهوات جميعا نظرة اصغار أن كانت لا بقاء لها ولا متاع للنفس بها ، وانما المتاع بانعام النظر فى الكون واستكناه ما فيه من خير وحق وجمال •

على أن الأقدار كانت قد احتفظت لمصر بصفحة أخرى من صفحات المجد يخطها محمود سليمان باشا • ليكن لشيخوخته عليه حق ، ولتكن خير خاتمة المرء أياما تقضى فى العبادة والتقوى ، وليكن محمود سليمان قد خرج من دنياه تاركا اياها الى أولاده وانقطع لنفسه ولربه — ليكن ذلك كله فان للوطن مع ذلك عليه حقا • وهو لم ينس يوما حق الوطن عليه • لذلك ما كادت الحرب العامة تضع أوزارها ، ثم ما كادت الحركة الوطنية المصرية تبدأ ، حتى اذا هذا الشيخ خرج مرة أخرى من عزلته وجاء ينضم الى صفوف المجاهدين لاعلاء شأن الوطن ورفع مناره وتقديس كلمته • ولئن كان قد نيف على الثمانين فلن تزيده سنه ولن يزيده مجده ومقامه

وعظمته الاحرصا على الوقوف فى الصف الأول من صفوف المجاهدين وأن يكون فى مقدمة من يتعرض لما يصاب به من يتعرض للدفاع عن عظمة هذا الوطن واستقلاله . وكان منظرا يبهر النفس ما فيه من مهابة واجلال . فلقد جلس محمود باشا فى رياسة لجنة الوفد المركزية يوم كانت البلاد تضطرب أحشاؤها من أقصاها الى أقصاها ويوم كانت الأحكام العرفية بالغة قسوتها أعظم مبلغ ، جلس فى رياسة لجنة الوفد المركزية وجعل من داره كعبة قصاد خدمة الوطن وأقسم لا يتزحزح الا أن تزحزحه القوة . وأرادت القوة يوما أن تبتلى نباته وعزمه فأصدرت اليه الأمر أن يبرح القاهرة ، فاذا به لا يبرحها حتى ذهبوا الى ذهبيته وأبعدوها عن ميدان العمل السياسى على كره منه . ولقد كان فى ذلك ، كما كان فى غيره ، سباقا الى مثل التضحية والمكانة العلية . وكان فى هذا مثلا عاليا من النزاهة والتضحية لخير الوطن .

ولما آن للبلاد أن تنقسم بعضها على بعض وأن تقوم بين أهلها الفتنة ، اعتزل الميدان نهائيا وان لم ينس قديم صلاته بأصدقائه سواء منهم من كان فى فريقه السياسى ومن كان فى فريق مخاصم له . وعلى اشتداد الخصومة فى وقت من الأوقات بين الاحرار الدستوريين والمغفور له سعد زغلول باشا فان محمود باشا سليمان كان أسبق من أرسل الى سعد باشا على أثر عودته من جبل طارق يهنئه بسلامة مقدمه . وكذلك كان فى هذه كما كان فى غيرها عظيما ساميا فوق شهوات الساعة ، كبيرا عن أن يتأثر بالأهواء الطارئة .

ومن يوم أن اختلفت الأحزاب فى مصر عكف هو على ما كان قد اعتزم منذ سنوات من الانقطاع لله ولعبادته • وظل كذلك حتى ارتضاه الله الى جواره يوم الثلاثاء ٢٢ يناير سنة ١٩٢٩ • ارتضاه الى جواره فخلف هذه الدنيا فى أناة وتؤدة وحكمة ، كما عاش فيها فى أناة وتؤدة وحكمة •

obeikandl.com

# عبد الخالق ثروت باشا

ما أحسب فجيعة من الفجائع التى منيت بها الأمم كانت أشد وقعا على النفوس من فجيعة مصر فى المغفور له عبد الخالق ثروت باشا • وما أحسب رجلا وجل خصومه كما وجل أصدقاؤه لفقده ، كما اشترك أصدقاء هذا الفقيد العظيم وخصومه فى وجلهم لرحلته رحلة الأبد • ثم ما أحسب العقل والعاطفة والحواس جميعا اهتزت بالحسرة وبالأسى اهتزازها لهذا الحادث الذى رج نفوس الناس رجا بل دكها دكا • ولن أنسى ما حييت تلك اللحظة الأسيفة التى عرفت فيها الخبر أثر الوفاة بسويعات حين دخلت الى صالون السيدة المحترمة هدى هانم شعراوى بباريس فألفيتها وألفيت الأستاذ الكبير هلباوى بك وألفيت زائريهما وكلهم باكو العين والفؤاد وكلهم فى شبه ذهول لما أصاب مصر فى مصرع هذا الرجل الذى كانت تعتبره مصر كلها ملاذها اذا حزب الخطب وضلت بساسة مصر وساسة انكلترا السبل • ثم لن أنسى ما حييت اسراع المصريين وأصدقاء مصر الأجانب الى سكنه فى باريس بشارع أناتل دلافرج Anatole de la Forge وليس منهم من يقف فزعه لوفاة رجل كان له بعد فى الحياة سعة ، بل كلهم أشد فزعا لمصر وما أصابها بفقد هذا الربان الذى اختاره القدر ليسير بدفة سفينتها حين الزعازع الهوجاء فينقذها من أدق المواقف • لن أنسى هذا ، ولن أنسى صاحب الدولة عدلى باشا يكن فى منزل الفقيد وفى مشهد

جنازته بباريس وهو يتساءل عن الوفاة وكيف كانت فى جزع دونه جزع الأخ لفقد أعز أخ له عليه ، وهو يحاول حبس عبرته فتخونه كما تخون جميع الذين شهدوا صندوق جثمان الفقيد • ينقل من عربة الجنازة الى عربة السكة الحديدية • وكيف ينسى انسان هذا وما أحاط بالفاجعة ولكل انسان من هذه الفاجعة الأليمة نصيب لأنها فاجعة مصر وفاجعة السلام ؟ •

ويأبى القدر الا أن يحيط هذه الفاجعة بما يزيدها هولا ، اذ يختطف الرجل فى بلاد نائية عن وطنه ويختطفه على عجل ، كأن للقدر عند مصر ثأرا لا تهدأ ثائرته الا اذا أشعرها ألما موجعا ينقض الضلوع بعضها على بعض • فلقد كان ثروت فى صحته حين جاء الى باريس من سان مورتز يوم الاثنين السابع عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٨ — أى قبل وفاته بخمسة أيام • فلما كان يوم الجمعة الحادى والعشرين من سبتمبر خرج فى الصباح كعادته وعاد بعد الظهر بقليل يشكو ألما فى الكتف وفى الظهر • واستدعى طبيب الحى ففحص الحالة ورأى أنها بسيطة لا تزيد على روماتزم يزول فى زمن قصير • لكن الآلام تزايدت أثناء الليل • فلما جاء محمد على دلاور بك فى الصباح ليعود صديقه رأى معه ضرورة استدعاء استاذ أخصائى أجابهم أنه سيكون هناك فى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ، لأنه لا يستطيع ترك المستشفى الذى يعمل فيه قبل هذا الموعد • وحضر الأستاذ الطبيب فى الموعد ، فلما فحص المريض فى سريره وخرج الى قاعة الاستقبال خرج دلاور بك فى أثره يسأله رأيه • وكان رأيا مروعا • فالباشا اعترته ذبحة صدرية ان استطاع احتمالها ساعتين كان فى نجاة حياته شىء من الأمل •

لكن الطبيب فى شك من استطاعة احتماله اياها • وهو ماكاد يغادر غرفة الاستقبال الى سلم الدار حتى اذا ثروت باشا قدشعر بالتنفس يضيق ثم يضيق ثم يضيق ، فيؤلمه ذلك ويوجعه • ولكى نخفف من هذا الألم رفعت السيدة المحترمة زوجته اياه الى صدرها • ثم لم تك الا لحظة حتى شعر الباشا بشىء أنطقه فى دهشة وعجب بلفظ : « الله » وكانت هى آخر كلمة قالهـا • فان شريانا متصلا بالقلب انفجر فى هذه اللحظة أشعره الخطر حين لم يك الى دفع الخطر سبيل ولا الى اتقاء الكارثة التى تفجر لها فؤاد مصر وسيلة • ونودى بالطبيب فعاد فاذا به أمام جلال الموت وكان من برهة أمام رجل ألبسته الحياة وألبسها كل حلل الجلال •

وكأنما أراد القدر اذ كتب لوح أجل ثروت فى باريس بعيدا عن بلاده وكتب على زوجه أن تكون فى هذه الساعة العصبية الى جانبه ، أن يحيط الفجيعة المفزعة بما يخفف من هول وقعها ، فجمع بباريس فى هذه الفترة جماعة من أخصاء ثروت وأصدقائه ومحبيه وعارفى فضله فى خدمة بلاده • جمعهم ليكونوا الى جانب جثمانه وليحاولوا عزاء زوجتـه وولده مصطفى المقيمين معـه • وقام المصريون المقيمون فى باريس وطائفة كبيرة من الفرنسيين وغير الفرنسيين فى اليومين اللذين انقضيا بين الوفاة وتشييع الرفات فى سـفرها لتستقر فى ثرى الوطـن بـكل ما يجب لثروت من اكرام واجلال •

وفى هذين اليومين اللذين انقضيا بين الوفاة والتشييع الى ثرى الوطن كنت تسمع من المصريين جميعا عبـارة ملكت عليهم ألبابهم : من ذا يحل عقد المشاكل اذا تعقدت بعد ثروت ؟! كنت

تسمع هذه العبارة تصدر عنهم جميعا على اختلاف نحلهم وأحزابهم . أو لم يكن هو دائما الموئل الذى يلجأ اليه المصريون مهما علت أقدارهم والذى يلجأ اليه الانكليزحين يحزب الأمر ولا يكاد انسان من الناس يرى له من طريق السلام فرجا ولا حلا ؟ لذلك كان الكل ينظرون اليه كأنه الربان الذى ينقذ السفينة كلما ارتطمت على الصخر وخيف عليها أن تتحطم فطبيعى أن يتساءل الكل عمن يحل عقد المشاكل اذا تعقدت بعد موته .

ولعل أحدا لم يذكر فى وفاة ثروت مصاب زوجه وأبنائه فيه ، لأن الناس نسوا فى هذه الوفاة كل مصاب غير مصاب الوطن . مع هذا فمصاب بنى ثروت ومصاب أصدقائه فيه كأب وكصديق فادح فاجع كمصاب الوطن سواء بسواء . فلقد كان أبر أب بأبنائه وأوفى صديق لأصدقائه . بل ان الذين عرفوه أبا ليذكرون كم كان بره عظيما وكم كان حنانه أعظم من بره . وكم كان صديقا لأبنائه بمقدار ما كان أبا لهم . وكم كان يجد فى صداقتهم له مايزيد فى عواطف الأبوة والبنوة سموا ورقة . وان الذين عرفوه صديقا ليعرفون له من الوفاء لهم ما قل أن يكون له فى صديق مثال . ثم هو الى جانب ذلك كان حصافة الرأى ونبل الشمائل والشهامة والذكاء صورت كلها رجلا .

* * *

ولد محمد عبد الخالق ثروت سنة ١٨٧٣ فى بيت جاه ونعمة . كان أبوه المغفورله اسماعيل عبد الخالق باشا ابن المرحوم عبدالخالق أفندى من أصل أناضولى ، وكان من كبار الحكام فى عهد محمد على الكبير . وكانت أمه من بيت تركى هى الأخرى . وقد أرسل به

أبوه الى مدرسة عابدين وهو فى الثامنة من عمره ، ثم تابع دراسته فى مدرسة النورمال حتى اذا نال شهادة الدراسة الثانوية التحق بمدرسة الحقوق ثم كان أول الناجحين فى اجازة الليسانس سنة ١٨٩٣ .

وكان ثروت الطالب ، على ماذكر الأستاذ لطفى بك السيد زميله فى مدرسة الحقوق . « شابا حسن الطلعة ، تعلوه سيما الجد فى غير عبوس ، مترفعا فى غير كبر ، سهل الأخلاق دون فناء فى الأغيار . وكان فى ألمه وفرحه معتدلا محتفظا فى كل حال بكرامته ، نافذ الرأى فى بيئته ، ودودا من غير الحاح ، ومتحفظا من غير انقباض ، محبب العشرة فى رقته . وكان فى جاذبيته حلاوة حديثه متفوقا كما كان فى ذكائه واجتهاده . نعم فقد كان ذكيا حاد الذكاء مواتى البديهة كثير الاشتغال ، فوق درس الحقوق ، بمناحى الثقافة يلتمسها فى الآداب الفرنسية والعربية . وأكثر ميله فى هذا الباب الى التاريخ على العموم والتراجم على الخصوص ، ميل كبر معه حتى صار فى السنين الأخيرة — من حياته — نوعا من الشغف » وكان لشغفه هذا مظهر عرفه عنه كل أصحابه وعرفه عنه باعة الكتب فى مصر وفى باريس بنوع خاص . فقد كان كثير التردد عليهم والبحث فى مخازنهم عن كتب قديمة نفدت طبعاتها ، وكان لا يأبى أن ينفق فى هذا البحث أياما متتالية حتى يقع على طلبته . فاذا وقع عليها أمعن فيها بحثا وتقليبا حتى يقف منها على غاية البحث الذى يدور بخاطره .

ولما نال اجازة الحقوق التحق موظفا بوزارة الحقانية سكرتيرا للمستشار القضائى بها . وكان المستشار القضائى يومئذ السير

جون سكوت من أحسن من عرفت الحكومة المصرية مقدرة ونزاهة وسرعان ما قدر مواهب ثروت حتى اختصه بكل ثقة وحتى وضع فى يده كل نفوذه . ونفوذ المستشار الانكليزى يومئذ كان أقوى من نفوذ الوزير المصرى ، بل كان نفوذ أى موظف انكليزى أقوى من نفوذ أكبر كبير من ولاة الحكم فى مصر . لذلك كان ما استولى عليه ثروت من نفوذ ومن ثقة بحيث طوع له أن يقوم فى وزارة الحقانية مقام صاحب الأمر والنهى فيها وما يزال شابا لم يبلغ الخامسة والعشرين من سنه . وعاونت هذه الحرية فى السلطة ما وهب من مقدرة وذكاء ، فلم يلبث غير قليل حتى تقدم فى وظائف القضاء وحتى عين مستشارا بمحكمة الاستئناف ثم نقل مديرا لأسيوط ثم عاد الى الحقانية نائبا عاما واختير وزيرا لها فى سنة ١٩١٤ .

على أنه لم يقصر نشاطه فى هذه الفترة من حياته على المناصب التى تولاها والتى أسرع به الزمن فيها الى حد لم يعرفه غيره ، ثم كان بثقافته وذكائه واقتداره مثلا عاليا للموظف الكفء القدير . بل لقد أسلس من نشاطه الى أعمال عامة لا اتصال لها بالحكومة ، بل كانت الحكومة تنظر اليها فى كثير من الأحيان بشىء من الريبة والحذر . انتخب عضوا فى ادارة الجمعية الخيرية الاسلامية ، وعضوا فى ادارة الجامعة المصرية ، وكان يومئذ ما يزال يشغل منصب النائب العام . وكانت له فى الجامعة وفى الجمعية سلطة نافذة وارادة قوية ، ثم كان لنفوذه بعد أن علا فى العالم السياسى نجمه ما زاد الهيئتين قوة واقتدارا على القيام بالأعمال الجليلة فى البر وفى الثقافة مما أنشئتا من أجله .

وقد ظل اقتداره وظل نفوذه معروفا فى الدوائر الخاصة بالقضاء

وعند المسئولين عن شئون مصر العامة . حتى عين فى منصب النائب العام . وكان المسئولون وكانت دائرة القضاء تقدر فيه الى جانب فضله حرصه على تنشئة من يتوسم فيهم الكفاية والمقدرة من الشبان وممن يطمع فى أن يقوموا لبلادهم بمثل الدور الذى قام به هو لبلاده . فلما كان صاحب الدعوى العمومية أتاح له حادث خطير أن اتصل بالجمهور اتصالا مباشرا ، فقد اعتدى ابراهيم ناصف الوردانى على حياة المرحوم بطرس باشا غالى فى سنة ١٩١٠ بأن أطلق عليه الرصاص ساعة خروجه مع ثروت باشا النائب العام من وزارة الحقانية وتولى ثروت بنفسه تحقيق هذا الاعتداء والمرافعة فى الدعوى . هنالك اطلع الجمهور منه على اقتدار خاص . وهنالك بدأ الجانب السياسى من حياة الرجل تظهر نواته وتكاد تتحدد سياسته . فالعبارة التى ننقلها من تلك المرافعة تلخص الى حد كبير ما جرى عليه ثروت كوزير وكرجل سياسى بقية حياته ، قال :

« نحن أول من يجل الاشتغال بالمسائل العامة ويرى أن السعى بالطرق المشروعة فيما ترقى به البلاد وأهلها من فروض العين على المصرى ، وان كل مصرى مطالب بتضحية شىء من وقته وماله وهمته فى خدمة بلاده . نحن أول من يرحب بتنمية الوطنية ورياضة النفوس على احتمال أشق المشقات فى اعلاء اسم مصر وزيادة شرفها ورفعتها . كذلك نرى أن من مرقيات الأمم الدارجة فى رقيها النظر فى أعمال القابضين على أزمة الأمور فيها ونقدها . ولكنا لا نسلم بحال من الأحوال أن يتطلع الى مقام ناقد الحكام الا رجل جمع الى العلم الغزير والحكمة البالغة الاتزان فى القول والفعل حتى

يقدر الأعمال قدرها وينظر فى الأمور بفكر صحيح ، فلا يتعدى حد المشروعية والا انقلبت الخدمة وبالا وارادة الخير شرا » .

هذه العبارة من مرافعة ثروت تنم من حياته السياسية المستقبلة عن جانبين : الأول تقديره السعى لتقدم البلاد واستقلالها على انه فرض من فروض العين على كل مصرى . والثانى أن يكون ذلك السعى بالطرق المشروعة لا بالثورة ولا بالفوضى ولا بالاعتداء . ولئن كان هذا التعبير — بالطرق المشروعة — هو الذى اتخذته مصر من بعد شعارا لها فى المطالبة بحقوق كان ثروت بطل تحقيق النصيب الأوفى منها ، فان هذا التعبير بالذات قد جعل ثروت كنائب عام يقف من كثرة شباب مصر يومئذ موقف الريبة ، فالشباب ، وان قدر بعقله ما للحق فى ذاته من قوة تتغلب على كل قوة سواها ، متعجل يريد أن يرى الحق فى قبضة يده ، أو هو يصفق وان فى أطواء قلبه لمن يعتدى على من يحسبه الحائل دون هذا الحق . لذلك كان الوردانى موضع عطف الكثيرين من الشباب وان لم يكن موضع عطف الذين يقدرون الأشياء بنتائجها من المسئولين ، ولذلك كان ثروت بمرافعته موضع اعجاب المسئولين وتقديرهم وموضع حنق الشباب عليه مع اعجابهم بمقدرته كالمسئولين سواء بسواء .

ولم يحرك حنق الجمهور ولا متابعته الشباب فى غضبه أى عصب من أعصاب ثروت . ذلك بأن جانبا ثالثا من جوانب حياته السياسية كان الاعتداد برأيه هو وبعقيدته ، لا برأى الجمهور وعقيدته فيه . فهو ما اطمأن ضميره ورضيت نفسه مقدم على عمله غير عابىء برأى الناس فى اقدامه . وهو مقدم فى جرأة عجيبة لا يسهل تصديقها الا على الذين عرفوا قدر دماثة الخلق ووداعة الطبع وحب الخير والميل العظيم الى البر والرحمة .

وحرك الحكم بالاعدام على قاتل بطرس غالى النفوس بشىء من مثل ما تحركت له على أثر الحكم فى قضية دنشواى . وكان بطرس رئيسا لمحكمتها المخصوصة . تحركت النفوس ذاكرة دنشواى واتفاقية السودان . ملتهبة غيرة بما سمعت فى الدعوى من مرافعات الدفاع عن الوردانى مرافعات حارة تفيض تقديرا لوطنيته التى دفعته الى جريمة ارتكبها مدفوعا بعوامل لاقبل له بمقاومتها . والحق أن هـذا الحادث الذى عقب حكم دنشواى فى سنة ١٩٠٦ ثم صدور العفو عن المحكوم عليهم من الدنشوائيين فى سنة ١٩٠٨ ، ثم وفاة مصطفى كامل ، الذى جاهد حتى استصدر العفو بعد صدوره بشهر واحد . نقول ان هذا الحادث حرك النفوس فى مصر الى المزيد من السعى فى المطالبة بحرية كان الشعور ما يفتأ متزايدا بأن الاحتلال الانكليزى القابض على أزمة الأمور فى مصر يحاول القضاء عليها قضاء أخيرا . وكان من أثر هذا الشعور — الذى ازداد التهابا حين أحس بتخلى أوربا عنه بالاتفاق الودى الذى عقد بين فرنسا وانكلترا فى سنة ١٩٠٤ وبعجز الباب العالى الذى انهزم أمام انكلترا فى حادث طابه فى سنة ١٩٠٦ — أن بدأت فى البـلاد حركة اعتماد على النفس وتقـدير لما يجب من جهود المصريين لوطنهم بما جعل الحكومة المصرية التى تقوم لتستر الحكومة الفعلية ، حكومة المستشارين الانكليز ، تحس بغضاضة على نفسها وحرج فى مركزها . وكان ذلك شـأن حكومة محمد سـعيد باشا التى تولت مناصبها بعد وفاة بطرس . على أنها حرصت على أن تظهر فى مظهر الحكومة الوطنية فيما كان يقع من مناقشات فى مجلس الشورى ، ثم ظهرت كذلك فى مظهر الحـكومة الوطنية حـين

استصدرت . بموافقة انكلترا وعميدها فى مصر لورد كتشنر الذى خلف سير الدون جورست بعد وفاته ، قانونا جديدا لنظام الحكومة المصرية ، هو قانون الجمعية التشريعية .

وتمت الانتخابات لهذه الجمعية فى أواخر سنة ١٩١٣ ، وبدأت عقد جلساتها منذ أوائل سنة ١٩١٤ بعدما انتخب فيها من أقوياء الحجة فى مصر وذوى المكانة منها ماجعل الحكومة لا تستطيع طول مناقشة الجمعية اياها . فاستقالت وان لم يكن ثم نص فى القانون النظامى بمسئوليتها أمام هذه الهيئة النيابية . وشكل حسين رشدى باشا الوزارة الجديدة واختار ثروت باشا وزيرا للحقانية فيها .

على أن الحرب العظمى لم تلبث أن أعلنت فى أغسطس سنة ١٩١٤ فلم يكن بد من ارجاء عقد جلسات الجمعية التشريعية حتى انتهائها . ويذكر الذين عاشوا هذا الظرف الدقيق من حياة مصر والحكومة المصرية كم كان مركز مصر حرجا ، وكم كان مركز الحكومة المصرية أشد حرجا . فمصر كانت ولاية عثمانية ممتازة تدين بالولاء لتركيا . وخديو مصر عباس حلمى الثانى كان غائبا عن مصر مقيما بالآستانة متهما فى نظر الانكليز بالتآمر مع تركيا ومع ألمانيا على انكلترا وعلى الحلفاء . ورشدى باشا رئيس الحكومة والقائم مقام الخديو مدين هو وحكومته لتركيا وللخديو بالاخلاص والولاء . وانكلترا صاحبة اليد العليا فى مصر والجيوش الجرارة على أرضها تملك بكلمة أن تضمها الى أملاكها من غير أن يستطيع الخديو أو تستطيع تركيا دفاعا عنها . وهيهات اذا ضمت مصر الى أملاك انكلترا أول الحرب أن يكون أمل فى أن تخرج من هذا المركز بعد الحرب اذا انتهت هذه الحرب بانتصار انكلترا

وحلفائهـا ، أو أن يكون أمل حتى فى مركزها كولاية عثمانية ممتازة اذا انتهت الحرب بانكسار انكلترا وانتصار الألمان عليها . فما عسى تصنع حكومة حسين رشدى فى هذا المركز الدقيق ؟ .

وزاد مركز تلك الحكومة دقة وحرجا أن الشعور العام فى مصر كان ميالا الى جانب ألمانيا آملا فى فوزها طامعا فى أن تحرر من نير انكلترا . وكأنما تجددت يومئذ فى نفس المصريين الذين كانوا يعتمدون من قبل على فرنسا لتجلى لهم جنود انكلترا عن أرضهم آمال فى الاعتماد على ألمانيا لتحقق لهم هذه الغاية . وكان هؤلاء المصريون الموالون ألمانيا بعواطفهم يدورون فى الأندية والأماكن العامة وفى قطر السكة الحديد وبيدهم خرائط الحرب مؤشرا عليها بمواقع القتال وبما كسب الألمان واندحر الحلفاء . ودعاية كهذه من شأنها أن تعد البلاد للثورة اذا لم تكن حكومتها مستعدة لقمع كل حركة من الحركات الطائشة فيها . لكن هذا الاستعداد من جانب حكومة رشدى باشا لم يكن له تأويل الا الدفع بمصر الى أحضان انكلترا والخروج بذلك على ما كان معروفا يومئذ من ميول تركيا ميولا انتهت بخوضها غمار الحرب الى جانب ألمانيا . فوقفت تلك الحكومة محاولة أن تصل الى خير الوعود من انكلترا بالنسبة لمصر يوم تنتهى الحرب لمصلحة الحلفاء ، عاملة على أن يصيب مصر أقل ضير ممكن من جراء الحرب ، نافضة يدها بعد ذلك من شؤون الدفاع عن مصر بعد ما أعلنت انكلترا الأحكام العرفية فيها وأخذت هذه المهمة على عاتقها ، منتظرة تطور الحوادث وما يمكن أن يجيء القدر به .

وأعلنت تركيا الحرب منضمة الى ألمانيا ، فألفت انكلترا الفرصة سانحة لتغيير موقف مصر السياسى . وقد دار بخاطر أولى الأمر فى

لندن — على ما ذكر لورد جراى وزير الخارجية الانكليزية فى ذلك الحين — أن يعلنوا ضم مصر الى أملاك التاج • لكن اعتراضات قامت فى هذا الصدد : أولها وأقواها أن الحلفاء الذين تحارب انكلترا واياهم كتفا لكتف يؤولون هذا التصرف من جانبها بأنها أرادت أن تقرر لنفسها غنائم الحرب قبل أن تضع الحرب أوزارها وقبل أن تتفق واياهم على شيء فى هذا الصدد • ثم ان اعلان الضم ربما كان من شأنه أن يهيج الشعور فى مصر الى حد ربما كانت عواقبه غير مأمونة • على ذلك فكرت حكومة لندن فى اعلان الحماية على مصر ، وانتهت ، بعد شيء من التردد ، الى اختيار السلطان حسين كامل سلطانا فى القاهرة بدل ابن أخيه عباس الذى قررت انكلترا أنه انضم انضماما ظاهرا الى أعدائها ، فلا يمكن أن يعتلى عرشا تحت حمايتها • ودارت محادثات طويلة فى هذا الشأن بين الوكالة البريطانية والحكومة المصرية انتهت الى قبول رشدى باشا وزملائه الأمر الواقع والبقاء فى مناصبهم كوزراء تحت نظام الحماية ، آملين متى انتهت الحرب أن تجد انكلترا فى تصرفهم ما يجعلهم منها بمكان يستطيعون معه الوصول الى خير نظام سياسى لبلاد ألقت المقادير على عواتقهم أعباء مصيرها فى ظرف دقيق لم يكونوا يتوقعونه • وظلت حكومة رشدى باشا ، وفيها ثروت باشا وزيرا الحقانية ، حتى وضعت الحرب أوزارها وأعلنت الهدنة فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، قائمة بكل ما أخذت به نفسها من ولاء للحلفاء وحرص على مصالح مصر ورجاء فى أن لا يسوء مركزها بسبب ظروف احتملوها ولم تكن لهم يد فيها •

ولما كانت الشروط الاربعة عشر التى وضعها الرئيس ولسن

رئيس جمهورية الولايات المتحدة معتبرا اياها أسسا للهدنة والصلح قد أعلنت قبل الهدنة بأشهر مشتملة على شرط يجعل للشعوب حق تقرير مصيرها . فقد انتهز جماعة من أعضاء حزب الامة — نذكر من بينهم على باشا شعراوى ، ولطفى بك السيد ، ومحمد باشا محمود وعبد العزيز باشا فهمى — هذه الفرصة ففكروا فى تكوين هيئة تطالب لمصر بحقها فى تقرير مصيرها . وأفضى هؤلاء بفكرتهم الى حكومة رشدى باشا فوجدوا منها ارتياحا لها . ففاتحوا سعد زغلول باشا على أن يكون رئيسا لهيئتهم باعتباره وكيل الجمعية التشريعية المنتخب كما فاتحوا عبد اللطيف المكباتى بك ومحمد على باشا من أعضاء الحزب الوطنى . وعلى ذلك تألفت هيئة أطلقت على نفسها اسم الوفد المصرى ووضعت صيغة توكيل من الامة لها بالسعى لاستقلال مصر أينما وجدت اليه سبيلا . ووزعت هذه التوكيلات فى طول مصر وعرضها بعلم حكومة رشدى باشا . وكان من رأى السير رنجالد ونجت مندوب انكلترا السامى فى مصر يومئذ أن يترك لهذا الوفد حرية السفر الى انكلترا أو الى حيث شاء من ممالك أوربا وأن يسافر حسين رشدى باشا وعدلى يكن باشا ليعبرا فى لندن عن مطالب المصريين . ولو أن نصيحة السير ونجت نجحت يومئذ لتغير ، على الأغلب ، وجه المسألة المصرية ولسارت فى طريق غير التى سارت فيها بسبب رفض انكلترا الاذن للوفد وللوزيرين المصريين بالسفر .

ورفضت حكومة لندن سفر أحد من الوزراء المصريين وسفر رجال الوفد الى انكلترا أو الى مؤتمر السلام . ولم تنجح محاولات الحكومة المصرية والمندوب السامى البريطانى فى تحويل

الحكومة الانكليزية عن رأيها . هنالك استقال رشدى باشا وعدلى باشا واستقالت وزارتهما فى ٦ فبراير سنة ١٩١٩ . ولقد خيل الى المراجع العليا يومئذ أنهم واجدون فى ثروت باشا ، وله من الكفاية والمقدرة ما له ، الرجل الذى يستطيع التغلب على الموقف باقناع رجال الوفد كى يعدلوا عن خطتهم ، كما خيل اليهم أن ثروت باشا لن يرفض رياسة الوزارة حين تعرض عليه وما يزال يومئذ فى الخامسة والأربعين من عمره . لكن تقديرهم أخطأ ، فقد كان ثروت باشا مشتركا بقلبه وبعقله مع الحركة الوطنية ومع زميليه عدلى ورشدى . ثم هو كان يقدر التبعة الكبرى التى احتملها مع زميليه بقبول البقاء فى الوزارة بعد اعلان انكلترا حمايتها على مصر . فاذا كانت المقادير قد أتاحت النصر لانكلترا ، وكانت مصر ، والحكومة المصرية بنوع خاص ، عاملان من عوامل هذا النصر اعترف به الفيكونت مارشال اللنبى قائد جيوش الحلفاء فى الشرق ، فان من خطل الرأى وسوء التدبير الذى لا يليق بسياسى حنكته تجارب الحرب ما حنكت ثروت باشا أن يرضى العاجلة من رياسة الوزارة بديلا لما كان يرى حقا لأمته أن تبلغه من نظام يتفق مع مكانتها ويعادل بعض الجهود التى بذلتها أثناء الحرب الكبرى . واذا كانت بعض دول أوربا التى خاضت غمار الحرب الى جانب الحلفاء قد حصلت على وعود بالتوسع وضمان الاستقلال ، واذا كانت بلاد العرب قد اعتبر لها استقلالها ، فلن يكون ثروت هو الذى يقبل وزارة يعتبر قبولها حيلولة دون مصر وما تطمع فيه من استقلال وعزة مكان بين دول العالم .

ورفض أن يشكل الوزارة فى هذا الظرف الدقيق ، مقدرا أن

سيحسب عليه رفضه عند ذوى الكلمة والمراجع العليا فى مصر • بل لقد أبلغ يومئذ أن رفضه هذا يحول بينه وبين الوزارة بقية حياته ، فلم يعبأ بما أبلغ اليه وأصر على الوقوف الى جانب أمته اصرارا دعا الوفد ، وعلى رأسه سعد زغلول باشا ، كى يسعى بكامل هيئته الى دار ثروت باشا مقدما اليه التهنئة على ابائه الوطنى وآيات الشكر على تضامنه مع الوفد فى حركته القومية، وكانت كلمات سعد باشا له أن تضامنه مع الحركة القومية العامة يكسب الوفد قوة والبلاد أملا فى النجاح • وترتب على هذه الزيارة لبيت ثروت باشا أن أنذرت السلطة العسكرية الوفد بأنهم بحركاتهم يعرقلون سير الحكومة • على أن هذا الانذار لم يزد على أن ثبت ثروت باشا فى اصراره على رفض تشكيل الوزارة وعلى وضع حجر الأساس برفضه هذا لنجاح القضية القومية •

من ذلك التاريخ بدأ ثروت باشا نشاطه السياسى فى السعى لاستقلال بلاده بالطرق المشروعة التى أشار اليها فى مرافعته فى قضية قاتل بطرس باشا غالى • ومن ذلك التاريخ أخلص لغايته كل نفسه وكل جهده وازدرى الى جانبها كل ما يطمع فيه غيره • على أن ثقته المطلقة بنفسه كانت تدعوه الى أن يتبع فى سياسته خطة غير التى يتبعها كثيرون من الساسة غيره • فهو لم يكن يبدأ بأن يعلن للناس مطالبه مستعينا فى تحقيقها بالقوة أو بالوقيعة أو بالمساومة • بل كان يحدد فى نفسه غاياته ويعتمد قبل كل شىء على البحث المقترن بالحكمة والمنطق وحكم العقل • وقوته ومهارته وصبره كانت تكفل له النجاح دائما فى بلوغ ما يريده • وكان

يكفل له هذا النجاح كذلك ما تعوده من الاضطلاع بالتبعات وحمل المسئوليات منذ أول شبابه وحين كان سكرتيرا لمستشار الحقانية الذى ألقى بين يديه بواسع سلطته • بهذه القوى عنده استعان حين جاءت لجنة ملنر سنة ١٩٢٠ لتنظر فى وضع نظام لمصر تحت الحماية البريطانية فاشترك مع أصدقائه السياسيين ، رشدى باشا وعدلى باشا واسماعيل صدقى باشا ، فى اقناع اللجنة بضرورة التفاهم مع هيئة الوفد المصرى فى أمر القضية المصرية • وكان ثروت باشا من بين زملائه هو الذى ينقل آراء اللجنة ووجهات نظرها الى رجال الوفد بباريس كى يمهد لهم الوقوف على آرائها وخططها ، حتى اذا اتصلوا بها كان اتصالهم مثمرا • فلما انتهت اللجنة من محادثاتها مع الوفد وأعلن مشروع ملنر فى سنة ١٩٢٠ ثم قدمت اللجنة تقريرها وأعلنت الحكومة البريطانية اعترافها بأن الحماية علاقة غير مرضية بين مصر وانكلترا وطلبت الى عظمة سلطان مصر ايفاد هيئة تتفاوض مع الحكومة البريطانية فى استبدالها بعلاقة أوجب للرضا ، شكل عدلى باشا وزارته الاولى فى مارس سنة ١٩٢٠ وكان ثروت باشا وزير الداخلية فيها •

وعاد سعد زغلول باشا من باريس فى أوائل ابريل ودارت محادثات بينه وبين الوزارة انتهت الى اختلافه واياها فى طريقة تشكيل الوفد الذى يقوم بالمفاوضة واعلانه الحرب عليها فى خطبة ألقاها فى ٢٨ ابريل بحى شبرا • ثم سافر عدلى باشا على رأس الوفد الرسمى الذى تألف بأمر عظمة السلطان ليقوم بالمفاوضة ، واستصحب معه من أعضاء وزارته حسين رشدى باشا واسماعيل صدقى باشا ومحمد شفيق باشا ، كما استصحب غيرهم مفاوضين

ومستشارين . وقام ثروت باشا فى مصر رئيسا للوزارة بالنيابة . وكوزير للداخلية مسؤول عن حفظ الأمن والنظام اللذين كانا مهددين بحركات أنصار سعد باشا زغلول لم يتردد فى احتمال التبعات التى رآها واجبة فى هذا الظرف ، دالا بذلك على جرأة وحزم لا يعرفان ترددا ولا هوادة . وبرغم الجهود التى بذلها عدلى باشا والوفد الذى كان معه فى سبيل اقناع الانكليز بوجهة نظر مصر ، وبرغم تناولهم كل مسألة من المسائل الخلافية بين الدولتين ابتغاء الوصول الى حلها حلا يقنعهما ، فقد جنى الخلاف بين سعد باشا والحكومة على هذه المفاوضات فلم تؤت الثمرة التى كانت مرجوة منها ، ولذلك قطع عدلى باشا المفاوضة بعد أن أعلن اليه لورد كرزون وزير الخارجية البريطانية مشروع حكومته . واستقال عدلى باشا على أثر وصوله . ونشرت السلطات البريطانية المشروع المذكور مرفقا بمذكرة مهينة لمصر أشد الاهانة .

تحرج الموقف السياسى بين مصر وانكلترا على أثر هذه الاستقالة . ثم زاده حرجا أن قبضت السلطة العسكرية البريطانية على سعد زغلول باشا وخمسة من أنصاره وقررت نفيهم عن مصر . هنالك عادت البلاد كلها كلمة واحدة تنادى بعدم التعاون مع انكلترا وتدعو كل مصرى أن لا يقبل تأليف وزارة تضطلع بمسئولية الأمر فى مصر ، حتى تظل انكلترا وأحكامها العرفية مسؤولة مباشرة عن كل ما يقع فيها .

فى هذا الظرف ظهرت مهارة ثروت باشا السياسية وظهر اقتداره . ان المشروع الذى أعلنته انكلترا ولم تقبله مصر يقضى باعتراف انكلترا باستقلال مصر استقلالا مقيدا فى مسائل معينة . وهذه

القيود هى التى لا ترضاها مصر . فاذا أرجأنا النظر فى هذه القيود الى ظرف مقبل أكثر ملاءمة من ظرف المفاوضات وما كان يشوبه من خلاف بين سعد باشا زغلول والحكومة المصرية وأعلنت انكلترا من جانبها التخلى لمصر عما ارتضت أن تتخلى عنه أثناء مفاوضات عدلى باشا ووفده ، كانت هذه خطوة جديدة من جانب انكلترا تدل بها على حسن نيتها بازاء مصر وتزيل الحرج الذى أدى اليه كتابها المرفق به المشروع ، ثم لا تكون قد خسرت شيئا لأنها انما تتنزل عما كانت معتزمة من قبل التنزل عنه . على أنه حين بدأ محادثاته مع معتمد انكلترا للوصول الى هذه الغاية لم يبدأها بطلب الغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر ، لما كان يعلمه من أن هذا الطلب يلاقى من جانب حكومة لندن بالرفض ، بل تقدم بطلبات لا يبدو أول الأمر أن لها بوجود الحماية البريطانية لمصر أو برفعها اتصالا . ولم يكن بد أمام العقل من قبول انكلترا هذه الطلبات . وبعد قبولها وتحديد المسائل التى تعلق لمفاوضات حرة مستقبلة بين مصر وانكلترا ، وصل ثروت باشا من بحثه الى نقطة تبين معها لممثل انكلترا نفسه أن بقاء الحماية الانكليزية مفروضة على مصر لم يبق له أية فائدة لانكلترا نفسها . وحكم العقل يقضى بأن التشبث بأمر لا فائدة من ورائه سخف لا يليق بذوى الفطنة السياسية . وقد بلغ من اقتناع اللورد اللنبى معتمد انكلترا واقتناع المستشارين الانكليز فى الوزارات المصرية برأى ثروت باشا ، أن هددوا جميعا بالاستقالة اذا وقفت لندن فلم تجب مطالبهم . وعجبت حكومة لندن لهذا الموقف فاستدعت معتمدها ومستشاريه فذهبوا اليها ، ولم يكن الا أيام حتى أقنعت حجج ثروت الحكومة الانكليزية

أيضا • وعاد لورد اللنبى فى يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ فأعلن فى مصر تصريحا من جانب انكلترا بأنها تعترف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة وتنتهى لذلك حمايتها عليها محتفظة لمفاوضات مستقبلة بمسائل أربع : الدفاع عن مصر ، وحماية مواصلات الامبراطورية ، وحماية الأجانب والاقليات ، ومسألة السودان • وعلى أثر ذلك أجاب ثروت باشا دعوة جلالة الملك فشكل وزارته الأولى فى أول مارس سنة ١٩٢٢ •

على أن هذا العمل العظيم الذى قام به ثروت باشا من حمل انكلترا على الاعتراف باستقلال مصر كان سببا لأن تدبر ضده فى الخفاء مؤامرة لاغتيال حياته • وقد دبر هذا الاغتيال قبل اعلان التصريح بيومين • على أن ادارة الأمن العام علمت بالمؤامرة وأحبطتها ، بأن أبلغت ثروت باشا الخبر وتفاصيله ، وأن المؤتمرين يكمنون له عند كوبرى الأعمى ، حتى اذا مر فى سيارته ذاهبا الى نادى محمد على فتكوا به • وقد طلب ذلك اليوم الى مقابلة عظمة السلطان فى عابدين فى الوقت الذى كانت المؤامرة فيه تريد اتمام جريمتها • فدعا اليه صديقه وزميله فى محادثات الانكليز بشأن الاعتراف باستقلال مصر حضرة صاحب المعالى اسماعيل صدقى باشا وطلب اليه أن ينوب عنه فى مقابلة جلالة الملك على أن يركب سيارة بالاجرة • وكذلك نجا ثروت وقبض على المتآمرين • ومن يدرى ماذا كان يصيب مصر لو أن الجناية تمت على ما يشتهى المدبرون ؟ •

واعلان انكلترا اعترافها بمصر دولة ذات سيادة بفضل مجهودات ثروت باشا السلمية ومقدرته على الاستفادة من الظروف

بتقديره قوة بلاده ومطالب انكلترا — هذا الاعلان رفع مقامه فجعله سياسيا فذا فى نظر العالم بأسره ، وجعل أبناء أمته يتطلعون اليه معجبين به وبمهارته ، على انهم انقسموا مرة أخرى ، لا فى قدرهم المجهود لذاته ، ولكن فى الخطة السياسية ، أو بالأحرى فى الخطة الحزبية التى يسلكونها بازاء التصريح بالاستقلال وبازاء الرجل الذى فاز به . فأما الطوائف الحكيمة التى تقدر الأشياء بقيمتها الحقيقية فاعتبرت التصريح خطوة جدية فى سبيل استكمال الاستقلال وعاهدت ثروت باشا على مؤازرته فى خطته . ووقفت طوائف أخرى حريصة من ناحية على ألا يمس التصريح أذى ، عاملة فى نفس الوقت على مناوأة ثروت باشا وحكومته مناوأة دفعتهم للطعن على التصريح والانتقاص من قيمته . وقد كان من مظاهر هذا الموقف ان أمسك هؤلاء عن ابداء رأيهم فى التصريح حين أعلن البرلمان الانكليزى أنه يريد بحثه فى جلسة حدد لها يوم ١٤ مارس سنة ١٩٢٢ ، وظلوا فى وجل أى وجل أن لا تنال حكومة لويد جورج ثقة البرلمان بسبب اعلانها اياه . فلما فازت هذه الحكومة البريطانية بالثقة وأعلن جلالة ملك مصر استقلالها فى ١٥ مارس واطمأن هؤلاء المتحفزون الى أنه أصبح حقا لمصر لاينازعها فيه أحد بدأوا حملتهم عليه حملة منظمة غايتها الحملة على حكومة ثروت باشا . على أن ثروت لم يتردد فى هذا الظرف لحظة ، بل ظهر بكل ما يجب من قوة وحزم وبدأ ينفذ ما ينطوى عليه التصريح من حقوق مصر بانشاء وزارة الخارجية التى كانت ألغيت منذ أعلنت الحماية البريطانية على مصر فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ ، وباقالة المستشارين البريطانيين من مختلف الوزارات عدا وزارتى

الحقانية والمالية ، وبتشكيل لجنة من خيرة رجال مصر لتضع للبلاد نظاما دستوريا على أحدث المبادىء العصرية ، وبالضرب على يد الفوضى فى كل صورها ومظاهرها ، واظهار الحكومة المصرية الأهلية بمظهر الاحترام الواجب لها .

وليوطد فى النفوس الايمان بحق مصر دعا فى ٢٦ مارس سنة ١٩٢٢ ، لمناسبة عيد ميلاد جلالة الملك ، الى حفلة كبيرة بفندق الكونتنتال حيث ألقى خطابا يبين فيه مزايا العمل الجليل الذى قام به ويرسم فيه الخطة الواجب اتباعها لاستكمال الاستقلال . وقد يبدو عجيبا أن تكون الفكرة السائدة فى هذا الخطاب هى بعينها الفكرة التى وردت فى مرافعة عبد الخالق ثروت النائب العام فى قضية الوردانى ، والتى أوردت نصها من قبل . فقد جاء فى هذا الخطاب السياسى ما نصه :

« لم يبق علينا الا أن نقنع انكلترا أن ليس بها من حاجة الى التمسك بالضمانات التى تريد الاحتفاظ بها فتخطو بريطانيا العظمى خطوة أخرى بالاكتفاء بما لا يتنافى منها مع استقلالنا الشرعى . وليس لدينا وسيلة لتأييد ما نذهب اليه أكثر من تعلقنا بأهداب السكينة والتزامنا الهدوء وأخذنا بأسباب النظام . فان حجتهم الكبرى فيما يبدونه من رغبة فى الضمانات هى شدة حذرهم على مصالحهم وخوفهم عليها وعدم اطمئنانهم الى تركها لعهدتنا . فاذا قضينا على عوامل الفتنة والاضطرابات وجعلنا التزام السكينة رائدنا فاننا نثلم هذا السلاح بأيديهم وندفع حججهم علينا . ولا مشاحة فى أن كل من يعمل على تعكير السلام أو اثارة الاضطراب مجرم فى حق وطنه عامل على هدم كيانه » .

ثم جاء فيه أيضا :

« اننى لا أكره المعارضة ، بل اذا انعدمت هذه المعارضة فاننى أعمل على خلقها لما لها من نفع وفائدة فى الوصول الى الحقيقة وتمحيص كل أمر على أكمل وجه • ولكنى أريد المعارضة الشريفة التى تترفع عن الاعتبارات الشخصية ولا تنزل الى اختلاق الاكاذيب • اننى أريد الخصومة الشريفة التى لا تنظر الا لمصلحة الوطن وخير البلد وتدرس كل أمر لذاته مجردا عن كل اعتبار شخصى » •

وهذه الخطة التى رسمها ثروت فى خطاب يوم عيد ميلاد جلالة الملك ، هى التى كررها من بعد فى خطب ألقاها فى افتتاح لجنة الدستور ولوفود ذهبت اليه فى شؤون سياسية مختلفة • ولقد كان لهذه الخطة الحكيمة أن تؤتى ثمرها كاملا بفضل مهارة ثروت وحنكته وقوة منطقه لو أن مناوأته لم تنتقل من الميدان الوطنى الصحيح الى ميادين أخرى • فبينما هو يعمل جادا فى تطبيق مزايا الاستقلال الذى حصلت عليه مصر مقيدا بالتحفظات التى أشرنا اليها ، وقعت على جماعة من البريطانيين ، ضباطا وجنودا ومدنيين ، سلسلة اعتداءات شنيعة أودت بحياة ثمانية عشر منهم على التعاقب • على أن هذه الاعتداءات وحدها ما كانت لتجنى على خطته لو لم يقترن بها ما جعل مركز وزارته حرجا غاية الحرج بعد زمن وجيز من بدء لجنة الدستور عملها • فقد عمدت هذه اللجنة الى وضع مبادىء تتفق مع المبادىء العصرية التى كلفت بوضع الدستور المصرى على أساسها ، وشاركها ثروت باشا الرأى فى مبادئها • وفى رأى البعض أن مصر بلاد شرقية يجب أن تسود فيها وسائل السياسة

الشرقيـــة وخططها . لذلك ألقى ثروت باشـــا نفسه فى موقف لا يستطيع معه القيام بأعباء الحكم على الوجه الذى يرضاه ضميره . وبرغم المحاولات الكثيرة التى بذلها لتهدئة العواصف الكمينة فى ثورتها حوله . فانه شعر بدقة المركز فجعل يستعجل لجنة الدستور حتى وضعت مشروعه وتعجلت بعد ذلك فى وضع مشروع لقانون الانتخاب . ورفعت اللجنة مشروعها اليه فى جلسة تاريخية ألقى فيها كلمة ذكر أثناءها أنه سيعمل على صدور الدستور كما وضع مشروعه ، وكان ذلك فى ١٨ أكتوبر سنة ١٩٢٢ . ولما كان جماعة أصـــدقائه السياســـيين يؤلفون فى هـــذا الوقت حزب الأحرار الدستوريين ، انتظر من معونتهم ما يكفل اقتـــداره على السير بسياســـته خطوة أو خطوات أخرى . لكن الحزب ما كاد يتألف فى ٣٠ أكتوبر ، ثم ماكاد يمضى أسبوعان على تأليفه حتى أطلق جماعة من الشبان الرصاص على باب داره ، دار جريدة «السياسة» فأصابوا حسن باشا عبد الرازق واسماعيل بك زهدى من أعضاء مجلس ادارته . وأبدت الصحف المناوئة لهذا الحزب أن الرجلين ذهبا ضحية خطأ يؤسف عليه لأنهما لم يكونا مقصودين بالذات .

وكثرت الأقاويل حول المصادر الحقيقية التى تشجع هـــذه الجرائم ، ورأت وزارة ثروت باشا بعد أن رفعت الدستور الى جلالة الملك أنها تخطت بالبلاد خطوات يمكن الوقوف عندها فترة ريثما تطمئن النفوس وتهدأ أسباب الجريمة . وعلى ذلك رفع ثروت باشا استقالته فى يوم ٣٠ نوفمبر منوها فيها بما أتمت وزارته وبما مهدت له من صـــدور الدستور وغـــير الدستور مما نص فى تصريح ٢٨ فبراير على وجوب صدوره .

واعتكف ثروت منتظرا ظرفا خيرا من الظرف الذى كان فيه فى الحكم ليعود الى الميدان فيعمل لاتمام ما بدأه بتصريح الاستقلال على أنه فى اعتكافه لم ينوان يوما عن بذل كل ما لديه من نفوذ كى يصدر الدستور • فلما صدر فى ١٩ ابريل سنة ١٩٢٣ أيام قيام وزارة يحيى باشا ابراهيم وانتظرت البلاد الانتخابات ، أخذ يتوقع فى ظروفها ما يطوع له العود لتنفيذ سياسته • وسياسته ، كما رأيت ، تقوم على الاخلاص الصحيح والعزم الوطيد على اتمام اتفاق بين انكلترا ومصر تحل به المسائل المعلقة فى التصريح • وعسير الوصول الى هذا وفى البلد من آثار الانقسام ما يخشى أن يجنى على أية مفاوضات جديدة جناية الانقسام على المفاوضات التى تولاها عدلى باشا يكن سنة ١٩٢١ • فلما عاد سعد زغلول باشا من منفاه فكر ثروت فى امكان التفاهم معه اجتنابا لكل انقسام مستقبل • لكن علاقات الرجلين كانت متوترة منذ سنة ١٩٢١ أشد التوتر • وقد ألقى المحيطون بسعد فى روعه أن ثروت هو الذى نصح بنفيه • ثم ان سعدا كان قد طعن على ثروت أشد المطاعن وأقساها • بل لقد ذهب فى الطعن عليه الى اتهامه فى اخلاصه لوطنه • فكيف يستطيع ثروت أن ينسى هذا كله وأن يتقدم الى ناحية سعد خطوة من الخطى ؟ على أنه رأى كرامة الوطن فوق كرامة أى فرد من أبنائه ، فبعث الى سعد بخطاب يذكر له فيه أنه فى حرصه على مصلحة الوطن يريد أن يحتكم واياه فى أسباب الخلاف بينهما الى الأمراء وذوى الرأى والمكانة فى البلاد • وكان يرجو من احتكامه أن تزول أسباب الانقسام وأن تعود وحدة الأمة ليعود هو ، معتمدا على هذه الوحدة ، الى استكمال استقلال

بلاده باتمام الاتفاق بين مصر وانكلترا • لكن مسعاه هذه المرة لم ينجح أن رفض سعد باشا التحكيم • وبقى ثروت باشا بعد ذلك بين كتبه ومكتبته وفى عمله المتصل بالجمعية الخيرية الاسلامية وبالجامعة المصرية وبغيرهما من الهيئات التى كانت أبدا فى حاجة الى ثاقب رأيه • فلما كانت سنة ١٩٢٥ أدت الظروف السياسية الى التفاهم والائتلاف بين سعد زغلول باشا وخصومه السياسيين • ذلك أن سعد باشا حصل حزبه على الأغلبية الكبرى فى انتخابات سنة ١٩٢٤ فتولى الوزارة وظل فيها حتى اعتدت جماعة ينسب بعضهم الى حزبه على حياة السير لى ستاك باشا حاكم السودان العام • فأبلغت انكلترا حكومته انذارا قاسيا اضطرت بعده الى التخلى عن المناصب • وخلفه أحمد زيور باشا فى رياسة الحكومة ، فاستعان بالأحرار الدستوريين بعد أن حل مجلس النواب وأجرى انتخابات أسفرت عن أغلبية لحزب سعد باشا كذلك • فحل المجلس الجديد أيضا وأجلت الانتخابات الى أجل غير مسمى • على أن الحل الأول وهذا التأجيل الثانى خلق فى البلاد حزبا جديدا كان أعضاؤه كثيرى التردد على القصر الملكى وكانت رغبتهم عن الدستور والحياة النيابية أكثر من رغبتهم فيهما • وخيل لأعضاء هذا الحزب يوما أنهم يستطيعون القيام وحدهم فأقيل رئيس حزب الأحرار الدستوريين من الوزارة واستقال زميلاه الوزيران اللذان كانا من أعضاء حزبه تضامنا واياه ، وسنحت بذلك فرصة التفاهم والائتلاف مع حزب سعد زغلول باشا ضد الخصم المشترك والعمل معا لعود الحياة النيابية • وكذلك قربت الظروف بين ثروت باشا وسعد باشا ، وكان يخيل للكثيرين أنهما لن يلتقيا • وجرت

الانتخابات وألف عدلى باشا يكن الوزارة الائتلافية الأولى وجلس سعد باشا فى رياسة مجلس النواب • وفى أوائل ابريل سنة ١٩٢٧ استقال عدلى باشا : فألف ثروت باشا وزارته الثانية وبقى سعد باشا فى منصبه رئيسا للنواب • وكانت انكلترا يومئذ قد أرادت ، متأثرة بآراء مندوبها السامى اللورد جورج لويد ، التحرش بالحكومة المصرية ، فخلقت ما سمى أزمة الجيش وبعثت بأساطيلها الى الاسكندرية ولم يعرف أحد قط مطالبها على وجه التحديد • فاستطاع ثروت باشا ، بمهارته وكياسته ، أن يقضى على هذه الأزمة من غير أن تصل انكلترا من مطالبها الى أكثر من منح أحد الموظفين الانكليز بوزارة الحربية المصرية رتبة الباشوية •

حدث بعد ذلك أن سافر جلالة الملك فؤاد الى أوربا مدعوا الى زيارات رسمية بانكلترا وايطاليا وفرنسا وبلجيكا • وبعد شىء من التردد استصحب جلالته رئيس وزارته ثروت باشا فى رحلته • فانتهز ثروت فرصة وجوده بانكلترا وفاتح وزير خارجيتها السير أوستين تشمبرلن فى أمر أزمة الجيش وتحدث اليه فيما اذا كان مستطاعا الوصول الى حل المسائل المعلقة بين الدولتين اتقاء أزمات أخرى • وقد انتهت هذه المحادثات الى مشروع لم يقبل فى مصر ولكنه مهد السبيل الصحيح الى الاتفاق النهائى وربما كان ممكنا تعديله بما يمهد لقبوله ، لو أن سعد باشا زغلول بقى حيا الى حين انتهاء ثروت من محادثاته • لكنه توفى أثناءها ، فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ ، ولم يخلفه من حنكته التجاريب السياسية ماحنكت هذا الزعيم • وطلب الى ثروت باشا أن يحل مجلس النواب وأن يجرى انتخابات يعرض فيها المشروع الذى وصل

اليه على البلاد . فأبى . لأنه رأى أحزاب مصر كلها لا تقبل المشروع ، ولأنه من ناحية أخرى خشى اذا حل المجلس أن لا يعود . واستقال من الوزارة ونشر يوم استقالته كتابا أخضر عن مفاوضاته . ويدل هذا الكتاب والمذكرات التى اشتمل عليها على ضخامة المجهود الذى بذله ثروت أثناء قيامه بالمفاوضات منفردا ضخامة لم يعرف لها حتى اليوم فى حياة سياسى مصرى نظير . ويدل كذلك على مقدرة وذكاء وكفاية وتضلع بالسياسة العالمية قل أن يكون لها مثيل . ثم يدل على صحة ما رواه عنه السير أو ستن تشمبرلن لأحد أصدقائه اذ قال : « أتاح لى اتصالى فى جمعية الأمم بأكثر وزراء الخارجية فى الدول المختلفة أن أقدرهم جميعا . وما أحسب واحدا منهم يفوق ثروت مهارة وقوة حجة وحسن بيان » . وفى الكتاب الأخضر المذكور الى جانب هذا كله، اتجاه جديد فى سياسة ثروت يرمى الى ربط الاتفاق بين مصر وانكلترا بقضية السلام فى العالم ، ويجعل لذلك من الرجل سياسيا عالميا لا سياسيا قوميا وكفى . فقد أبدى وزير الخارجية البريطانية من التشدد فى بعض الأمور ما رأى ثروت باشا معه أن المناقشة أصبحت غير مجدية وأن مقامه فى لندرة للوصول الى الغاية التى ينشدها لم يبق له محل . وكان أمامه اذ ذاك أن يعلن ذلك الى قومه فى عبارة قوية أخاذة ، وأن يعود محاطا بهالة من الجلال والاعجاب . لكن ذلك ليس يتفق مع طريقته فى التفكير ولا هو يقرب الغاية التى ينشدها ولا يؤيد السلام الذى يسعى لتأييده . لذلك لجأ الى الحكمة ينادى داعيها فى نفس الوزير الانكليزى ، حتى اذا لم يجب هذا الداعى وأصر على تشدده كان مسئولا أمام

العالم كله وكان مخالفا فى خطته مع مصر كمفتاح بلاد الشرق الخطة التى اتبعتها الدول الاوربية فيما بينها لتأييد السلام . فبعث بخطاب فيه من البراعة السياسية ، ومن الحرص على كرامته وكرامة بلاده ، ومن تحميل مناظره تبعة عدم النجاح ، ما يشهد به نصه اذ قال :

« عزيزى صاحب السعادة »

« من أطيب الأشياء الى نفسى أن أعرب لسعادتكم ، قبل مغادرتى لندرة ، عن عظيم شكرى لما لقيته لديكم من حسن الاستقبال . وان أنس لا أنس نزعة الود التى ما برحتم تصدرون عنها فى محادثاتنا ولا ما أبديتموه على الدوام من صادق الرغبة فى التماس أسباب التوفيق بين البلدين » .

« ولقد كان يسعدنى أن أرى مساعيكم المجيدة فى تثبيت أركان الصداقة بين القطرين تكلل بالنجاح ، كما أنه يؤلمنى أن يخفق كل ما بذل من الجهود فى هذا السبيل ، تلك الجهود التى لم تجعل ، حتى اللحظة الأخيرة ، مجالا للشك فى حسن ختام محادثاتنا فى هذا الشأن » .

« ولا أزال أرجو ، اذ أنادى منكم داعى الحكمة وألتجىء الى صادق شعوركم وصحيح انصافكم ، أن تدركوا الغاية التى تعملون لها ، وأن تضموا الى اكليل « لوكارنو » اكليل الاتفاق بين انكلترا ومصر » .

ولم تضعف استقالته من الوزارة من ايمانه بامكان الاتفاق بين مصر وانكلترا . بل كان يرجو فى ظروف سياسية جديدة ما يمكنه من العود لمعالجة المفاوضات من جديد مع عظيم الرجاء فى نجاحها .

لكن المجهود العظيم الذى أنفقه والمقابلة السيئة المنطوية على انكار الجميل ، التى قوبل بها ، ومحاولته نسيان ذلك بالاكباب على العمل فى مجلس الشيوخ كعضو من أعضائه ، كل ذلك هز أعصابه وأضعف قوته . فسافر مستشفيا فى صيف سنة ١٩٢٨ وذهب الى سان مورتز ثم عاد منها الى باريس فى ١٨ سبتمبر . ولم يكن يدرى أن أجله يتربص به فيها ليختم كتاب حياته فى الساعة الثانية من بعد ظهر ٢٢ سبتمبر ، أى بعد وصوله اليها بخمسة أيام .

وبكت مصر ثروت ، وتقدمت دول العالم كلها تعزيها فيه ، وتناولت الصحافة فى مختلف الامم أعماله فشادت بها ورفعتها الى المكان الجديرة به .. بكته مصر مقدرة جميل صنيعه ، وعظيم نزاهته ، وعلو همته ، آسفة على مافرط منها أيام حياته فى حقه . مؤمنة بأن سيبقى اسم ثروت علما فى تاريخ مصر على الاقتدار السياسى المنقطع النظير .